رماد

منصور؛ مريم
رماد: رواية/ مريم منصور. - القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع / القاهرة: ٢٠١٧.
٢٨٠ص؛ ١٤×٢٠
تدمك: ٥-٦٣-٦٥٠٢-٩٧٧-٨٧٩
رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٩٦٥

دار النشـــــــر: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع
عنوان الكتـــاب: رماد
الكاتـــــــب: مريم منصور
تاريخ الطبـــع: ٢٠١٧
تصحيح لغـــوي: عبدالله أسامة
تنسيق داخلـــي: سمر محمد
تصميم الغـــلاف: سوليمان
إشراف عـــــام: محمد المصري



 elrasm.blkalemaat
 elrsmblklemat@yahoo.com
 01061419555

عن قصة حينا المقصي

رماد

(رواية)

مريم منصور



أفيقوا ... أفيقوا قبل أن تستحيل بلادكم إلى رماد .

عن قصة حينا المقصي...

حكاية حديثة من بلاد ما بين الأنهار.

بلاد الشرق والشمس.. والضباب.

حينما يحكيها لنا الطفل، صارخًا بأمه وبلاد أمه.

حتى يفيقوا من سبات ألف عام.

الإهـــداء

إلى الصوت الأخرس، والدموع التي لا تنضب، والزهور التي اقتطفت قبل أوانها، إلى أسراب العصافير المهاجرة، وإلى الخريف الذي يسكننا ويقتل كل معاني الربيع بداخلنا، فنعجز قبل أن نولد، ونذبل قبل أن تنبت جذورنا، إلى مصابيح الإنارة المكسرة، والمنازل الخربة المهدمة، وإلى القهوة الباردة، والضيعة المحتلة، إلى كل شيء ضاع، تكسر، مات..

أناشدك بخالقك، أن تعود؛ فإن على هذه الأرض ـ ورغم كل شيء ـ ما يستحق الانتظار.

إلى الباكين المستضعفين.. الحزانى، والصامتين، أصحاب الألسنة التي بترها الألم، والشفاه التي شققها الظمأ، والصوت الذي لا يسعه إلا أن يصرخ، لكنه لا يفعل؛ لأنه لا يخرج.. لقد سُرق.

مريم منصور

٢-٢-٢٠١٤م

على ضفاف بحيرته الأثيرة، جلس ينظر بعينين جافتين في مهابة الحدث، يودع آخر الخيوط السمراء المنسدلة من طرف عباءة الليل، المتدلية من خلف الأفق البعيد. وكلما مرت اللحظات مر معها طيف الفجر يلوح من بعيد. حقًا.. لم يكن يدري قبل ذلك أن الشروق لا يحمل ملامح جمالية فقط، بل إنه يملك جوهرًا حقيقيًا تفتقده كل المناظر الطبيعة، الشروق الذي يعني أن الغد القادم من بعيد أكثر ضياءً وأكثر وضوحًا.. والشروق الذي يحمل بين يديه شعلة.. تمحو الظلام وتحول الغوامض إلى وضوح تام.

تنفس بقوة وهم بالنهوض.. نظر حوله يحصي الأوراق والدوايات والأقلام. والمصباح الصغير أطفأه، ثم راح يلملم الأوراق من حوله وفق ترتيب معين.. ثم ألقى الدوايات والأقلام بعيدًا عن مرمى البصر.

جلس من جديد وقد رمى بنظرته الأخيرة نحو السماء بعد أن فرك عينيه المتحجرتين على أثر السهر والإعياء.. أحضر الورق المجمع بجانبه على هيئة كتاب، تنفس للمرة الثانية وكأنها النهاية، ضم الأوراق فوق ساقيه، عاد بعينيه نحو الأوراق.. وأخذ يقرأ ما كُتب.

لستُ ابن حرام

(ضيعتنا ليست أسوأ ضِياع هذا الحي)

*مائة عام بعد اندلاع الفتنة

كانون، مساءً..

زقاق مهجور كان.. مثله كمثل أغلب الأزقة القابعة بالجهة الغربية من الحي، كانت ليلة باردة بالتأكيد، وصرير الريح يلفح جدران المنازل المغلقة، ويلفحني. كان صوتي الباكي يئن بحرقة خافتة كأنه لشبح مسجون، ذلك المشهد كان قبل سبعة عشر عامًا، يوم كان لا شيء يختلف عن اليوم، وفي أحد الأزقة التي يمتلئ بها الحي، وجدتني شُمّيّسة.. الطبيبة العجوز التي لم تلدني، ويبدو أنها ترأفت على حالي يومها كثيرًا لأن جميع من شهد هذا اليوم قال لي: "رأينا شُمّيّسة يومها تحملك بين يديها وهي تبكي حتى إننا لم نفسر صوتك من صوتها". كانت شُمّيّسة عجوز في الستين من عمرها ولكنها كانت مرهفة الحس..

عندما وجدتني لم تتكبد عناءً كثيرًا في البحث عن أهل لي، كانت شُمّيّسة بالأساس تتمنى الحصول على ابن، وأيضًا لم يكن من العجيب في حينا وجود أطفال ألقي بهم في الأزقة أو على قارعة الطريق، والحق يقال.. لو كان لي أم بحق لما استطاعت أن تعطيني عشرًا واحدًا من ما أعطته لي شُمّيّسة.. كانت شُمّيّسة كالمصباح المنير في مدينة كل من فيها شموع اكتمل احتراقها، فباتت النور الوحيد بهذا المكان المعتم، ربتني، شدت على ساعدي، أمسكت بيديّ وقدميّ حتى أقف لأول مرة.. لكن ذلك لم يكن يمنعني أن أسأل: "أين والديّ الحقيقيان؟".. ربما كان سؤالي سخيفًا، ربما كان مؤلمًا ولكنني لم أكن أكف عن التلفظ به، ولم تكن شُمّيّسة تقوى على الرد فكانت تداري عجزها عن الإجابة بالحديث عن شيء آخر، شيء ترسخ في عقلي للحظتي تلك، هذا الشيء كان، بيت القصيد..

من شرفة منزلنا الصغيرة يجزم الناظر أنه لا شيء غيره في مرمى الرؤية، في مهابة كبيرة يتوسط الحي بأكمله حتى إنه لا توجد نافذة بالحي لا تطل عليه، كنت أراه منذ تعلمت كيف أحضر كرسيًا أصعد فوقه بصعوبة شديدة لأكون في مستوى الشرفة... أنظر إليه وكأنه خلاص لكل مأزق، وحل لكل مشكلة.

كنت أعرف عنه أنه بيت كبير عظيم يتوسط حينا، ولم أكن أفكر في أكثر من هذا. وفي يوم أتى مريض من مرضى أمي لتلقي العلاج بوصفاتها العشبية، وعندما أحس الهواء في صدره يجري من جديد بعدما كان مسدودًا، قام فأخذ يمطرها بالشكر والدعاء، دعا لها بطول عمرها وبطول عمري، ودعا بمباركة والدها ودعا له، وقبل يدها، ثم أخرج من جيبه ثمن العلاج وخرج.

-كيف يدعو لوالدكِ وهو لا يعرفه؟!

-هو يقصد أبي، أبا بيت القصيد.

-هل هناك أبٌ لبيت القصيد؟!

-ليس هذا ما قصده، إنه يدعو لأبي، أبي بلادنا الذي أنجبنا وأنجبه، إنه يسكن هناك، في بيت القصيد.

نظرت متمعنًا في الشرفة لبضع دقائق، قلت:

-أمي شُمَيّسة، من بنى بيت القصيد؟

-والدك.. وإخوانه.

-والدي.. أين هو، هل أستطيع أن أراه؟

-صغيري.. بين كل ضِياع هذا الحي هناك الكثير من الأبناء لأبيك، بعضهم مجموع بضيعتنا والبعض الآخر مسافر لضِياع أخرى أو حتى خارج الحي، ربما ليس لديه الوقت للقائهم جميعًا؛ فهو مشغول بشيء أكثر أهمية، ما كان هذا الحي لتقوم له قائمة لولا وجوده وإخوته.

-وهل أبي أنجب كل أهالي ضيعتنا فقط أم بقية أهل الحي؟

-الذين ينتمون لوالدي ووالدك أهل ضيعتنا فقط، أما بقية الضِياع ينتمون لبقية الآباء.

-وهل هم كُثر؟

-انظر.. سأحكي لك القصة التي قصَّتها علي جدتي منذ خمسة وخمسين عامًا.

-لديكِ ذاكرة قوية.

ابتسمت وهي تمسح فوق شعري ثم بدأت تقص علي القصة الأثيرة، القصة التي لا تُنسى:

-جدتي قالت لي: قبل زمن بعيد، كانت أراضي هذا الحي فارغة تمامًا وكان لها من كل منظر ضيعة، بعض الضِياع كانت غناءً مليئة بالثمر وبعضها كانت صحراء قاحلة، والبعض مشمس والبعض غائم وغير ذلك، ولم يكن هناك من يسكنها، حتى امتلكتها قبيلة كبيرة، على رأسها اثنان وعشرون رجلًا يتحدثون بلسان واحد ولهجات مختلفة فيما بينهم، وسكنوها؛ فأصبحت الأرض ملكًا لهم جميعًا بالتساوي، وأول ما بنوا بالحي كان ذلك البيت الكبير العظيم الذي يتوسط الحي بأكمله.

بحماس هتفت:

-بيت القصيد؟

وبروية العجوز أجابت:

-نعم، هكذا أسموه، ولقد اختاروا له موقعًا مميزًا للغاية فقد جعلوه بوسط الحي تمامًا، يراه أول بيت بجهة الشرق، وآخر بيت بجهة الغرب من الحي، وقد أسموه "بيت القصيد" لأنه بيتهم، وهو أكبر وأعظم بناء بالحي كله، وهم أصحاب الحي، فهم يقصدون بذلك أن هذا البيت هو الدليل الأساسي والجوهري على امتلاكهم الحي.

-وماذا بعد ذلك، أين هم الآن؟!

-انظر، على حد معرفتي فإنهم بعد ذلك قرروا جميعًا تقسيم الأرض على عددهم، فأصبحت اثنتين وعشرين ضيعة، ثم تزوجوا وأنجبوا الأبناء حتى امتلأت الضِياع بهم، وكبر الأبناء وأنجبوا أيضا حتى استقرت كل ضيعة بأبنائها، وأصبحت كل عشيرة منفصلة عن الأخرى، وهنا قرر الآباء الاثنان والعشرون المكوث بالمنزل العظيم المعروف ببيت القصيد.

-لماذا؟!

-لقد رأوا بذلك أنهم حققوا غايتهم، عمروا الأرض وأنجبوا الأبناء، وقد تعايش أبناؤهم في سلام وسكينة؛ فقرروا أخيرًا البقاء بالبيت حتى يتفرغوا لأعمال روحية، كالحكمة والتأمل في خلق الله البديع، والدعاء للحي أن يبعد الله عنه الشرور والفتن.

-هكذا وحسب؟!

-ماذا تقصد؟

-هل هم قرروا الابتعاد والاعتكاف في ذاك المنزل بعيدًا عن أبنائهم، ألن يأتوا يومًا للسؤال عن أحوالنا؟

-إنهم يرونك، يطلعون على ما بنفسك، حتى دقات قلبك لها وقع في آذانهم، صدقني سوف يحققون مرادك يومًا ما عندما يناسب الوقت.

-لماذا تجمعين أمي شُمَيّسة؟ أنا أريد أن يسمعني أبي فقط، أريد أن أراه، أريد أن أشتَمّ رائحته، أريده أن يقول لي أنني ابنه، وأنتمي إليه.

-اخلط النعناع بالحبة السوداء ثم أضف قطرة واحدة من ماء الزهور، وستشتم رائحته.

أما عن كونك تريد أن يسمعك وتراه فأعدك يا عزيزي أنه لا يوجد فرق، والدك، عمك أو بقية أعمامك، جميعهم تنتسب إليهم، صحيحٌ أن والدك هو الأقرب إليك، لكن تأكد أن جميعهم يعتبرونك ابنًا لهم.

يومها أطرقت، ولم أعقب، لكنني شعرت بعدم الفهم.

• • •

منذ خرجتُ إلى هذه الدنيا لم أعلم لي صديقًا غير رفيق، ورغم خلافاتنا الكثيرة فإننا سريعًا ما كنا نعود، تعودت منذ أن كنت طفلًا يلهو بين الصغار أن أستمع كلمات من نوع: "ملامحك تختلف عن ملامحي".. "لون البشرة هذا لا يمتلكه أي من أهل الضيعة".. "أعتقد أنك جئت إلى ضيعتنا عن طريق الخطأ".. وغيرها، وأنا بينهم كنت كالأبكم لا أستطيع الرد، لكن رفيقًا..

رفيق هو الوحيد الذي لم يخبرني يومًا أنني لا أشبهه، كان مسالمًا وبسيطًا، ولكنني تعلمت أثناء لهوي مع رفيق والأطفال شيئًا مهمًا . . أن القادم من الضيعة المجاورة لا يختلف كثيرًا عن القادم من الحي المجاور . . كلاهما غرباء، كلاهما له معاملة تختلف تمامًا عن معاملة الشخص الذي ينتمي لتلك الضيعة التي نقطنها، كانت قواعد وقوانين كثيرة، وأنا لم أكن تلميذاً نجيبًا، لكنني على الأقل كنت أعرف كيف أتصنع الفهم، حتى أتى ذلك اليوم الذي أدركت وأدرك الجميع فيه . . أنني حقًا لا أفهم شيئًا .

كان يومي الأول بالمدرسة، أتذكره جيدًا وأتذكر أيضاً كمَ النصائح التي لقنتني إياها أمي شُميّسة في ذلك اليوم، حملت حقيبتي الصغيرة فوق ظهري خاوية ثم انطلقت وهي بجانبي نحو المدرسة في أول يوم لي، تمسك بيدي وتتحرك برشاقة طفلة في الخامسة، وابتسامتها بملء فيها حتى بدت التجاعيد واضحة على أطراف فمها، لم تكن تهتم، فقط كانت سعيدة، سعيدة بفتاها الذي كبر .

لم تترك يدي إلا أمام المدرسة، ابتسمت لي وهي تلوح من بعيد، بينما كنت أقبض على المزلاج الحديدي للباب، حتى فتحته ودخلت .

كشعور أي طفل في أول يوم له، يدخل لا يعي ما حوله، في خوف وذعر يستقبل الوجوه الجديدة، ويحتاج لكثير من الوقت حتى يفهم الحدث. الجميع يلهو ويتحرك من حولي بعشوائية شديدة، وكل ما فعلته هو أن أويت إلى مقعد خشبي يرتكز تحت شجرة وارفة، وضعت حقيبتي وجلست أنتظر ما يمكن أن يحدث بعد ذلك .

بعد مدة، صدح جرسٌ ما بصوتٍ عالٍ، والجمع كان لا يزال يلهو بنفس العشوائية، لكنني وجدتهم يتحركون نحو صفوف منظمة وقد هدأت حركتهم وقل صياحهم، حملت الحقيبة وقمت أتبين مكاني بينهم، استوقفني رجل لا تختلف ملامحه عن ملامح أمي شُميّسة وهو يقول في بشاشة:

–ماذا تفعل أيها الصغير، هل أنت بالصف الأول؟

أومأت إيجابًا فقط حينما تذكرت كلمة أمي شُميّسة وهي تقول: "مبارك يا صغيري والحمد لله الذي أحياني حتى رأيتك شابًا بصفك الأول" .

-إذاً مكانك هنا .

أمسك بيدي وجذبني نحو أحد الصفوف فوقفت بآخره، ثم بدأت حركتهم تتجه نحو غرف داخل المدرسة وكنت خلفهم، كان هناك الكثير من الطاولات والكراسي المصفوفة وفق نظام معين، اتخذت من بينهم مقعدًا قصيًا بآخر الصف، تلك كانت عادتي دائمًا ، أحب أن أبتعد عن كل ما لا أعرفه، حتى ولو انتحيت ولم يراني أحد ، سلكت ذلك الطريق كثيرًا في حياتي، ولكنني الآن لم أعد أفضله .

مرت الساعات تجر بعضها البعض برتابة شديدة، كان هناك أشخاص يدخلون ويقولون كثيرًا من الكلمات، ويملأون اللوح الأسود المثبت فوق الحائط بتاريخه الموشوم بخط الرقعة أعلى اللوح: **(الأول من كانون الثاني لعام ألفين وواحد وتسعين بعد ميلاد يسوع الناصري، الموافق للعاشر من رجب لعام ألف وخمسمائة وأربعة عشر بعد هجرة محمد بن عبد الله)** . وفي بقية اللوح يدخلون واحدًا تلو الآخر فيملأونه حتى لو ببعض الخطوط والألعاب الترفيهية لنا . لكنني لم أكن أهتم، حتى دخل . . كان في مثل عمرنا ، في طولي أو أقصر قليلاً ، بريء الملامح كان، بوجه أبيض مستدير وأنف دقيق وعينين عسليتين وشعر أشقر، منذ دخل علم الجميع أنه قادم من ضيعة أخرى حتى قبل أن يستمعوا لتعريف المعلم الذي جاء مصطحبًا إياه، قائلًا بصورة ممتعضة تشوبها الرتابة:

-يا أطفال، هذا زميلكم الجديد ، وهو قادم من ضيعة مجاورة لضيعتنا ، أريدكم أن تعاملوه باحترام وأن يصادقه الجميع، هل يستمع الجميع لما أقول؟

هز الجميع رؤوسهم في تململ، كانوا أبرياء مسالمين في تلك اللحظة، في تلك اللحظة فقط !

خرج الرجل ودخل الفتى، اتخذ مكاناً بالمجموعة أقصى يمين الصف بموقع لا يختلف عن موقعي، وكأنه كان يعلم ما سيحدث .

صدح الجرس من جديد ودخل علينا رجل أمرنا بالخروج وقال إن هذا هو "وقت الراحة المدرسية"؛ فخرجت مجموعة، وكنت أنا أيضاً أهم بذلك، لولا أنني استمعت لأصوات آتية من أقصى يمين الغرفة، كان يجلس بمكانه وهم ملتفون من حوله .

قال أولهم وهو يضحك ضحكة بلهاء:

-هل جميع أهل ضيعتك بمثل مظهرك هذا؟! هل جميعهم نساء بشعور شقراء وعيون كحيلة؟!

فأكمل صديقه مشمئزًا:

-أو طريقته في الحديث، يا الله.. إنه مثير للشفقة!

وقال آخر:

-مسكين.. لو كنت تنتمي لأبي لكنت الآن رجلًا يستطيع الرد.

وقال آخر وقد بدا أنه زعيمهم:

-أنصحك أن تكون مسالمًا معنا وبعيدًا عن مرمى بصري؛ فأنا أشعر بالتقزز من الملونين أمثالك، لا تحاول التنمر فأنا أعرف غرور أصحاب البشرة البيضاء أمثالكم، حسنًا!

لو قلت أن هناك بعد الصدمة شيئًا، لكان ذلك الشعور الذي انتابني لحظتها، ما زلت أذكر وقفتهم حوله، تحولهم في لحظة من صغار أبرياء إلى مردة مشاكسين، يتحدثون معه بلهجة لا تناسبهم ولا تناسبه، لم أسمع صوته يرد بحرف واحد، خرج الجميع بعد أن ألقوا كل ما بجعبتهم عليه، استهزأوا وصرخوا بوجهه وقالوا الكثير ثم بعد أن رحلوا وجدته كما هو، يهم بإخراج إفطاره من حقيبته وعلى وجهه شبح ابتسامة ساخرة، لم أشعر بصغره وطفولته في تلك اللحظة، لم يبكِ ولم يثُر، لم ينزوِ بمكانٍ ما يتجرع مرارة كلماتهم، ولم يبدُ فوق ملامحه أنه يخطط لرد ما فعلوه في وقت آخر، بدا كبيرًا حقًا في تلك اللحظة، تقدمت نحوه بخطوات متعثرة ولا أدري لِمَ فعلت وماذا سوف أقول، وددت فقط لو أستطيع أن أعتذر له، لكنني حقيقةً كنت أريد أن أعرف شيئًا آخر..

-آسف، دعك منهم إنهم حمقى، لا تبالِ بهم.. أرجو ألا تكون هذه هي وجهة نظرك في كل من في البلدة، إنهم فقط حمقى.

هم بالقيام وهو يبتسم لي مجاملًا ويقول:

-ليست هناك مشكلة، لم أهتم لما يقولونه أصلًا.

-حقًا! اعتقدت أنك ربما تكون.. مستاء من ما حدث.

-أتعرف؟ حضرت هنا مع أبي بسبب وظيفته، وقد قال لي جملة واستوعبتها تمامًا، بما أنني غريب.. فعلي الاحتمال.

أشرت بعدم الفهم وأنا أقول بلهجة بدت بلهاء جدًا بالنسبة له:

-ماذا تقول؟ غريب! يا صديقي إننا هنا جميعًا في حي واحد، إننا ننتمي جميعًا بالنهاية لأصل واحد، ألا تفهم؟!

ربت على كفتي وقال مبتسمًا:

-بل أنت من لا يفهم، لكن أعدك، قريبًا ستفهم.

• • •

رن الجرس مرة أخرى والأصوات من حولي تتعالى بضجيج، لم يكن غيري ساكنًا، حملت حقيبتي وظللت ألتف حول نفسي، أركل الرمل والحجارة بلا معنى، كانت كلماته تتردد داخل أذني، وكنت مؤمنًا جدًا أنني على صواب وهو على خطأ، لكنني أردت أن أعرف ماذا قصد بـ"قريبًا ستفهم".. يكون الأمر عندما لا تفهم أشبه بمتاهة كبيرة، لقد كنت في متاهة.

لم أهتم وقتها بالتحذير والتنبيه الذي قالته لي أمي شُمَيّسة حول أهمية عدم الحركة من أمام باب المدرسة حتى حضورها، مشيت فقط بلا هدى، إن أمكنني القول فسوف أقول إن حياتي قبل تلك الكلمات شيء وحياتي بعدها شيء آخر، ربما عليّ أن ألعن اللحظة التي التقينا بها، وربما علي أن أمجدها.

صوت ما تحرك داخلي حتى استجابت له قدمي، كنت في سجال، بيني وبينه، ولهذا قررت اللجوء للحكم للبت بما هو صحيح. تحركت نحو بيت القصيد، ربما الفكرة تبدو مجنونة ولكنها بدت لي في لحظتها عين الصواب، ولم يكن بعيدًا فتمييزه سهل من بين المباني، كان قريبًا من مقهى العم ياسين الذي يمتلك مذياع الضيعة الذي ينقل لنا الأخبار دومًا أولًا بأول، كان المنزل قريبًا جدًا من ضيعتنا ومن بقية الضِياع ولكن مقهى العم ياسين التابع لضيعتنا جعلنا أكثر تميزًا.

كنت أقدم يميني وشمالي تعرقلها، كنت أعرف على ماذا أنا مقدم.

وقفت أمام الباب الأمامي، كان مصفدًا من الخارج وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على أن من بالداخل محبوسون! ولكنني لم أهتم كعادتي، طرقت الباب ثلاث طرقات على استحياء، ببطء وهدوء، فلم يجبني أحد، فطرقته ثانيًا ثلاث طرقات أعلى صوتاً دون إجابة، وكانت الثالثة حين انتبه الجميع ثلاث طرقات عاليات بعزم ما أمتلك من قوى، ثلاث طرقات كفيلات بأن أكسب كثيرًا من السباب.

كل من كان يجلس أمام المقهى يومها نعتني بشيء مختلف، سواء إن كان من ضيعتنا أم من أخرى، فقد قال أحد الجالسين أمام مقهى العم ياسين:

-ماذا تفعل أيها الصغير؟! إنه يحاول الدخول لبيت القصيد!

ورد آخر غاضبًا:

-ابتعد وإلا جئتك ألقنك درسًا لن تنساه، ألم يعلمك والداك حرمة المنازل، لا سيما منزل بيت القصيد، أمجنون أنت؟!

فأكمل آخر مستنكرًا:

-إنه ولد شُمَيّسة العجوز، أخبر الهرمة إن كانت غير قادرة على تربيتك أن تتركك لمن هم أكثر عقلًا، إن كنت اليوم بهذا السن تحاول دخول بيت القصيد، ماذا ستفعل غدًا؟!

لم أدرِ ماذا حدث يومها غير أنني هرولت سريعًا، كان أحدهم يهم بالقيام لكسر عنقي كما قال، أخذت بالعدو سريعًا دون فهم لأي شيء، لم أفهم لماذا أعدو ولماذا سيكسر عنقي، ولماذا علي أن أخبر شُمَيّسة أنها هرمة ولم تفلح في تربيتي، ولماذا، ولماذا، ولماذا، لقد كان هناك الكثير من التساؤلات التي لم تجب ذلك اليوم، وأنا لا أذكر إلا أنني بعد ذلك استمعت لصوتها يرن في أذني مختلطًا ببكائها، هرولت نحوي شُمَيّسة وهي تحتضنني بشوق وكأن غيابي عنها دام لقرون.

-صغيري، أين كنت؟ ألم أقل لك أن لا تتحرك بعيدًا عن المدرسة حتى آتيك، لماذا فعلت هذا، لماذا خالفت قولي؟

• • •

وصلنا المنزل، وبدأت أقص عليها ما حدث، كانت تعبيرات وجهها وأنا أقص جميعها تدل على الرفض، كنت أعلم أنها ستغضب ومع ذلك لم أستطع أن أمنع نفسي من ما فعلت، عندما انتهيت قالت:

-كم مرة حذرتك أن لا تفعل ذلك، ألم أقل لك أن هذا المنزل له حرمته و. . .

-ولكنني كنت أريد أن أعرف الحقيقة يا أمي.

-أي حقيقة؟! إنه طفل، وهم أطفال، وكل هذا محض طفولة ليس أكثر، وأنت أيضًا طفل، لقد خذلتني. .

-أمي. . أنا لا أقصد، أنا فقط تألمت لحديثه، أنت لم تريْ كيف تجمعوا حوله وهم يهذون بكثير من الترهات، أمي لماذا ضيعتنا بهذا السوء، لماذا يسخرون من أي شخص لا ينتمي لضيعتنا ويعاملونه بهذا السوء دون أي ذنب؟!

أمي شُميّسة لم تستطع الإجابة يومها، لكنها قبل أن تصمت قالت بنزق:

-ليست ضيعتنا فقط.

• • •

مرت الأيام عليّ كثيرة، لكنها كانت رتيبة، ما يحدث أمس يتكرر اليوم، والغد لا يختلف في شيء عن اليوم، لم يتغير سوى صورتي في أعين الموجودين بالحي، صرت أرى أن صلتي بهم تتضاءل يومًا بعد يوم، ولم أظل على ودٍ سوى مع أمي شُميّسة ورفيق وصاحب مقهى الحي العم ياسين، حتى أصدقاء الطفولة صرت أراهم يتفككون من حولي وتذوب صداقتنا في الهواء. بالبداية. . لم أكن أدري السبب، تساءلت كثيرًا دون جواب، كنت أكبر وذلك يعني أن كلمتي صارت لها قيمة عن ذي قبل، لكن على العكس كنت أرى الجميع ينفلت من حولي رويدًا رويدًا، حتى جاءني الرد الصريح في بداية عامي الدراسي السادس من صديق لي في العام السابق، عندما سألته عن سبب نفوره وهروبه مني:

-انظر، بصراحة لقد طلب مني أبي أن أبتعد عنك.

-لماذا، ماذا فعلت؟

-يقول أنك ربما تشكل خطرًا عليّ في المستقبل، أفكارك وحديثك، يقول أنك غير طموح، كما أنك كثيرًا ما تجادل في عاداتنا وتقاليدنا، وهو ما لا يفضله والدي أبدًا.

-كيف! كيف ومتى حدث ذلك؟!

-مثلًا.. عندما كنت بصفك الأول وحاولت دخول بيت القصيد، أليس ذلك جنونًا؟ أنت تعتدي على حقوق غيرك، وغيرك هؤلاء هم أهم من بالحي، أنت لا تدري كم اللعنات التي قد تصاب بها الضيعة كلها بسببك، ألست غبيًا في ذلك؟ كما أنك دائمًا ما تتحدث بودٍ سريعًا إلى الغرباء من خارج الضيعة، ألا تذكر يوم أن استهزأت بفكرة البقاء في بيت القصيد وقلت أنها فكرة غير مجدية؟ اعذرني ولكنني أرى أنك كثيرًا ما تخطئ وتتحدث فيما لا يعنيك كما أنك تتعدى حدودك بفظاظة.

هكذا انتهت أغلب صداقاتي، لم يكن رفيق مقتنعًا بما أقول لذا فضل أن يبقى صديقي، بل على العكس، لقد كان يناقشني وكثيرًا ما كان ينتهي نقاشنا بالاحتداد، لكنه على الأقل لم يتركني، لم يقل لي يومًا أنت تشكل خطرًا على مستقبلي.

لم يكن ذلك الفتى وحده من سخر أو ابتعد بسبب انتقادي لبعض قوانين الحي التي أراها معقدة، بعضهم كان يكتفي بابتسامة ساخرة، والبعض الآخر كان يرد بقوة، والبعض كان يرد بوقاحة.

لم يكن هناك من يدافع عني أكثر من أمي شُميّسة، دافعت عني حتى وهي لا ترضى بما أقول، كانت بعض الوقت تقول لجاراتها اللواتي سَخِرن واستنكرن أقوالي: "اتركوه، إنه ما زال طفلًا"، والبعض الآخر ترد بعناد صارخة في وجه كل من يحاول سبي أو انتقادي: "إنه ولدي، حر فيما يقول، لستم أنتم من سوف تمنعونه من الكلام". كانت تكبر يومًا بعد يوم حتى إنها صارت تستخدم عصًا تستند عليها في أيٍ مكان، كانت كبيرة، ولكنني سببت لها الكثير من المتاعب، وبمرور الأيام صار منزلنا منبوذًا نوعًا ما، حتى الجارات العجائز صديقات أمي شُميّسة قرر أغلبهن قطع كل الروابط بينها وبينهم، كنت أسمع سيرتنا تردد بالمنازل على سبيل السخرية وإطلاق النكات على منزل العجوز وولدها المعاق. معاق! نعم هكذا أسموني لمجرد أنني لم أرضَ

بقواعدهم أو لنقل أنني لم أستسِغها، كان الجميع موقنًا وقتها أن شُمَيّسة العجوز تأوي بمنزلها ولدًا ليس من دمها وهو مريض بإعاقة ذهنية أو به مس من شيطان!

أمضيت أيامي الدراسية في عزلةٍ تامة، كان رفيق يكبرني بعامين لذا لم يتسنَ لنا فرصة الاشتراك بنفس الصف، كنت دائمًا الكسول الذي يتخذ من آخر مقعدٍ بالصف مقرًا له، وبالطبع لن يشاركني المقعد آخر، كنت بعيدًا حتى عن مجال الرؤية، حتى أتت لبيبة، الصديقة دائمًا.

لُبيّبة كانت بنفس عمري، وقد انتقلت مع والديها من ضيعتها إلى ضيعتنا بحثًا عن الرزق، كانت ضيعة لُبيّبة قريبة من ضيعة الفتى صاحب العينين العسليتين الذي التقيت به في صفي الأول، غير أنها بدت أكثر جمالًا، وأكثر رونقًا، كانت لُبيّبة تمتلك وجهًا أبيضَ مليحًا وشعرًا أسودَ فاحمًا وعينين زرقاوين، عندما رأيتها أول مرة سُحرت بها، كنت أرى في ملامحها أمي شُمَيّسة بعفتها وقوتها والثقة التي تملأ عينيها، كنت أتمنى دائمًا أن أحدثها، ولم يكن ذلك ليحدث أبدًا، فأنا منذ أمد فقدت قدرتي على فتح أي مجال للحديث، أصبحت أفضل أن أنزوي بمكان قصي حتى لا أهان لمجرد الرغبة في مجاذبة أطراف الحديث، وحتى لا ينعتني أحدهم بالأخرق.

ظللت أطالعها لفترة طويلة من بعيد، كانت كلما التقت عيناي بعينيها تبتسم دون فهم، أما أنا فقد كنت أزج بنظراتي تحت قدميّ خوفًا، كنت أخاف أن تأتيني يومًا بنظرة غاضبة وهي تصرخ بوجهي: "لماذا تحملق فيّ هكذا أيها الأحمق؟!"؛ لذا كنت أفضل دائمًا أن أظل أشاهدها من وراء حجاب، لم أكن أدري لِمَ أنا مشدوه بها لتلك الدرجة، عندما كان المعلم يلقي سؤالًا وترفع هي يدها لتجاوب، كنت أحب أن أرى بسمتها الواثقة وهي تضيق عينيها الجميلتين فرحًا عندما يخبرها أن إجابتها صحيحة، أتذكر عندما كنت أراها خلسةً بعد المدرسة تحمل حقيبتها وتتجه نحو منزلها، تلك المرة ضللت الطريق وأنا أتبعها، كنت طفلًا، ولم أكن أشعر بفؤادي يخفق عندما أراها، كل ما بالأمر أنني أحسست في وجودها الراحة، حتى وإن كانت هي لا تعلم بوجودي من حولها، ولكنني كنت سعيدًا لمجرد رؤيتها. ولو أن ذاكرتي صعقت لما أمكنني أن أنسى نظرتها وهي تتقدم نحوي ذات يوم، عندما خرج الجميع من الصف وقت الراحة إلا هي، أتت نحوي بخطواتٍ هادئة وهي تقول بود واثق:

-حسنًا، دعني أخمن، كانت لك أخت تشبهني كثيرًا وهي الآن مسافرة، أليس كذلك؟

نظرت نحوها في بلاهة وقلة فهم، طالبًا منها أن تكرر الجملة . .

-أراك تطالعني دائمًا ، تضحك على ضحكي وتحزن على بكائي، حتى إنك لاحقتني يومًا بعد المدرسة، ماذا يعني كل هذا ؟ من وجهة نظري البسيطة، أشعر أن لك قريبة تشبهني وهي الآن غائبة لذا تطالع ملامحها في وجهي .

قلت بتلقائية:

-لا أعرف أحدًا يمتلك ملامح كملامحك، أنت تبدين أجمل من أي فتاة لاقيتها من قبل .

توردت وجنتاها وابتسمت تشكرني على مجاملتي اللطيفة، لم أكن أجامل ولم أكن أغازل، يومها . . أنا حقًا كنت أقول الصدق .

-حسنًا ، وماذا بعد ذلك؟

قالتها بلهجة مرحة، ولكنني استوعبت أنها تطلب مني بلباقةٍ نهايةً لتلك النظرات الغريبة، هممت بالرد لكنها باغتتني:

-أراك تجلس دائمًا وحدك، أليس لديك أصدقاء ؟ !

-كلا . . عدا واحد فقط، لا يدرس بهذه المدرسة .

-لماذا ؟ !

-وما فائدة السؤال . . طالما أن إجابته خاوية !

ابتسمت بهدوء ثم قالت بمرح:

-حسنًا ، لا تتصنع علي دور الحكيم، ولكنني لا أمانع أن نصبح أصدقاء ، ما رأيك؟

لا أعلم كيف بدا مظهري يومها ، لكنني بالتأكيد بدوت غاية في السعادة، سعادة وصلت لأنْ رسمت الضحكة فوق وجهها البريء .

• • •

كثير من زملائنا كانوا يستفسرون عن علاقة هذا الأخرق بتلك الحسناء، لماذا يذهبان معًا بعد انتهاء اليوم الدراسي، لماذا صارت تجاوره المقعد وتبادله الأحاديث في الحصص الفارغة،

ولماذا ترافقه نهاية كل يوم، لماذا ولماذا ولماذا؟! كنت أرى الجميع يحسدني على صديقتي الجديدة، لبيبة. منذ بداية صداقتنا شخصت لبيّبة حالتي أفضل من أكثر الأطباء بضيعتنا مهارة، قالت أنني وحيد وحكيم في آن واحد، قالت أنني أمتلك موهبة الصداقة، وعندما سألتها بعجب عن ماهية موهبة الصداقة تلك، قالت أنني أستطيع أن أكون صديقًا كما لا يستطيع غيري أن يكون، وأنني قادر على الحب والتسامح والغفران، قالت أنني أحتاج فقط من يفهمني، عندما استمعت لآرائي حول بيت القصيد والآباء الاثنين والعشرين، شعرت باستيائها من قولي لكنها قالت بهدوء:

–أنا أومن بحرية الرأي.

كان ذلك في بداية صداقتنا، ثم بعد أن توطدت علاقتنا وأصبحت هي ورفيق صديقين أيضًا أجمعهما أنا، صارت آراؤها أكثر جدية، أخبرتني يومًا أن أفكاري تلك قد تهدمني في مجتمع لا يؤمن بحرية الرأي، قالت إن الحي لا يرضى بأفكار تشكك في عقائد يوقنون بها، وإنهم يتخذون الأمور وراثة من الجد للأب ومن الأب للحفيد كابرًا عن كابر، وأن ذلك الذي أقوله يبدو لهم حقًا قولًا أخرق، وعندما سألتها عن رأيها هي، أجابت:

–أنت صديقي لذا فشهادتي مجروحة، ولكنني لو أردت أن أقول الحق فسأقول إن أفكارك وأقوالك مفعمة بالحرية والحياة، آراء تتحدث بديمقراطية ولا ترضى بالمجهول الغامض، لكن في حينا هذا لا يعترفون ولا يحبون أكثر من الغامض، بل يصل الأمر لتقديسه.

–لكن ذلك الغامض يبدو غير صحيح، هل يعقل وجود بشر خالدين كما تقول الجدة رافدة التي تسكن أقصى الضيعة؟! هل تصدقي ذلك؟ إنها تقول أنهم خالدون! حسنًا، إن كانوا كذلك، انظري معي للماديات، كيف يأكلون ويشربون وهم محبوسون بذلك المنزل اللعين، وأمر آخر.. عندما سألت أمي شُميّسة قالت أنهم يسمعونني حتى دون رؤيتي، كيف هذا؟! أيعقل! هذا أمر، وأمر آخر أن الجميع هنا يشعرون بالبغضاء تجاه بعضهم البعض، هذا أمر مثير للاشمئزاز.. هل تصدقين أنهم يقولون أن القادمين من ضيعتك أو الضِياع المجاورة مسوخ بيضاء، وأن أنسابكم لا تنتمي للحي جميعها؟!

كان ردها بهدوء:

-انظر، يجب أن توجد العداوة في أي مكان يجتمع فيه أكثر من بشري واحد، إنه منذ الأزل، ألا تعرف قصة قابيل وهابيل؟ لمجرد أنه يريد شيئًا حصل عليه أخوه، قتله، هكذا أيضًا هنا، من يشعر أن شخصًا يمتلك شيئًا لا يمتلكه يعيبه، أتعرف؟ في ضيعتي يقولون عن ضيعتكم أنكم مسوخ سمراء.

قالت الأخيرة على وجه الدعابة، لكنني لم أشعر بذلك.

• • •

اثنان وعشرون ضيعة، لاثنين وعشرين أبًا، باثنين وعشرين مشكلة، لم أدرِ يومًا لماذا أشغل بالي بكل هذه الترهات وهي أمور - كما تقول أمي شُميّسة، وكما يقول رفيق ولبيبة - لا تعنيني أصلًا. كبرت وكبرت لُبيّبة حتى صرنا بصفنا الثامن، أنا كما أنا وهي كما هي، لكن أمرًا ما تغير، ربما كبرت معي تساؤلاتي العجيبة من وجهة نظر الجميع.. ولكنني بقيت كما أنا، لم أتغير.

كنت كثيرًا ما ألتقي بلُبيّبة ورفيق عند حافة البحيرة على أطراف الضيعة نتجاذب أطراف الحديث، كنا نتحدث في أمور عدة، المدرسة والأصدقاء والحي، ذات يوم أخبرني رفيق بعصبية وغضب عن قصة انتشرت بين أهالي الحي منذ يومين، عن مجموعة من الشباب سافروا ليلة قبل أمس خفية خارج الحي إلى حي مجاور، وقد عادوا أمس مطرودين شر طردة. أنهى حديثة وهو يتمتم بغيظ: "حقراء".

لم أستطع الصمت أو اللامبالاة، فتهكمت:

-لِمَ أنت حزين لتلك الدرجة، ماذا فعلوا لينالوا كل هذا الكره وهذا الكم من اللعنات؟!

صاح بغض:

-ما بك؟! هل يعجبك ما فعلوه؟ على كل حال لقد استحقوا ما حصلوا عليه، لقد طردوا من هناك وهم الآن منبوذون هنا.

كنت أوليه ظهري تجاه البحيرة، وأنا أستمع لما يقول في عدم اقتناع، ولُبيّبة تجلس على طرف

البحيرة تحيك شيئًا ما (كانت تلك هوايتها) دون التدخل بما نقول، استدرت نحوه ناقمًا وأنا أصيح:

-ما بك أنت؟ هل ترى الحياة هنا بغاية الجمال ليكون الخروج عنها خيانة وخطأً لا يغتفر، ألا ترى الكره الذي يملأ تلك البلدة؟ إنني أشعر أن هواء هذا الحي محمل بلفحات جهنمية تجعل الجميع هنا بتلك الصورة، الكل في الكل حاصل للكل يا رفيق، الكل هنا يتمنى أن يفعل كما فعل هؤلاء الشباب، لكنهم يتصنعون الشرف والوطنية.

كان يحدجني بنظرات ضيق بينما أكملت:

-أنت فقط هنا يا رفيق، ما زلت لا تفهم، تخيل، حتى أنا فهمت وأنت لا.

هم بالرد لولا أن أسكتتنا لُبيّبة بإشارة من يدها وهي تقول:

-هلا صمتُّما وأتى أحدكما ليساعدني.

• • •

صباح اليوم التالي كان صباحًا باهتًا ينبئ بشتاء ساخط، السماء كانت ملبدة بسحابات سوداء محملة بالكثير، كانت رؤيتها تشيع في النفس رجفة، حتى البرد الذي يسري في أوصالي ويتمركز بين أطراف أصابعي لا يحرك بداخلي نفس الرجفة التي يحدثها المنظر، كنت أقف أمام الشرفة في صمت، في مواجهة تامة له. كان منزلنا بسيطًا نسبيًا، مكونًا من دور واحد وسطح؛ لذا فقط ظهر بيت القصيد عظيمًا جدًا وأنا أطالعه من أسفل إلى أعلى، كنت أنظر له تلك المرة نظرة جافة ساخطة، لم تعد تلك النظرة المستعظمة تنمو داخلي كلما رأيته، لم أعد أشعر بالفخر والحماية كلما رفعت عيني لأراه، لم يعد بيت القصيد الجنة التي أراها في أحلامي وأتيم بها. بل لم يعد أكثر من منزل أراه فأستنكر وجوده، لا أعلم لِمَ كل هذا الكره الذي كان يعتمل في قلبي لهذا المنزل، ربما لأنني أدركت أنه تركني في عز شدتي، ربما لأنه لم يسمعني ويأتي لنجدتي، لم يأت هذا الذي يسمي نفسه بأبي ليحمل عني المعاناة التي أعيشها، لم ينهض ويفزع لولده الذي يناديه الكل ها هنا في أرضه بـ"الأخرق".

كان وجهي منذ فترة قد اكتسى بمسحة باردة لا تحمل أي شعور، ربما علي أن أشكر أهل

ضيعتي الكرام الذين علموني كيف يكون الجفاف، لقد صنعوا مني شخصًا آخر. . بالغ في ملابس طفل. يومها . . وبينما أنا هكذا أمام الشرفة، وعلى حين غرة. . أتاني صوتها المتقطع، وجدت وقعه في أذنيّ من بعيد، كانت تسعل بقوة وكأن صدرها سينشق إلى نصفين، هرولت سريعًا نحو غرفتها، كانت تستلقي على الأرض ويداها مطروحتان إلى جانبها في إهمال، وعيناها تنظر في اتجاه آخر، كانت تسعل بقوة وجسدها النحيل يتلوى وينتفض كلما سعلت، كنت مذعورًا . . لأول مرة أعرف ما يعني الخوف حقًا .

هرولت نحوها أعدل من نومتها، حاولت حملها إلى السرير ولكن هزالي لم يسعفني، خرجت نحو حجرة المطبخ وأنا أبحث عن كوب ماء وقد نسيت أن خزان المياه فارغًا منذ أمس، عندما قالت أمي أنها سوف تملأه اليوم، شعرت للحظة بالضياع، كانت تفعل كل شيء، ولوهلة صعد في مخيلتي صورة لوجهها الشاحب الأزرق منذ دقائق، تحركت في تشتت حتى وجدت زجاجة بها القليل من الماء، حملتها وصببتها بكأس وأنا أشعر أنني وجدت كنزًا، هرولت نحو غرفتها، كان سعالها قد خف وهدأ قليلًا عندما عدلت من جلستها، شربت كأس الماء حتى انتهت، نظرت لي تطلب المزيد، ثم تراجعت وقد تذكرت أن خزان المياه فارغ، حمدت الله وقد بدا وجهها أقل شحوبًا واللون الأزرق يخف تدريجيًا:

-الخزان فارغ أليس كذلك؟ اعذرني يا ولدي لقد نسيت أن أملأه، سأقوم بفعل ذلك الآن.

همت بالقيام وأنا أدفعها لتجلس، كان وجهي هو ما أصبح شاحبًا أزرق، لم أكن قد رأيت أمي بهذا الشكل من قبل، كان قلبي يخفق وأنا أشعر بالخوف والفزع على شخص ما لأول مرة بحياتي، كان مجرد المرض أو السعال الذي يصيب أمي يحدث بداخلي حمى، فأنا لم أعتد يومًا أن تفارقني، كانت معي منذ نعومة أظافري، متواجدة في كل ذكرى أمتلكها، متواجدة حتى بأحلامي، حتى بكوابيسي. . كانت دائمًا ما تأتي لتخلصني من الشر، ثم إذا ما صحوت فزعًا كانت هي أول من يهرول نحوي، تحتضنني في حنان، تبكي حتى دون أن أشكو لها ألمي، لم تكن أمي شُميّسة مجرد امراة التقطتني من الشارع وربتني وعطفت عليّ، كانت حياتي، وعمري الذي يفنى بفنائها ويتعرقل عندما تصاب بأي أذى.

-لا تتحركي يا أمي إنك متعبة، هل ما زلت تشعرين بألم في صدرك؟ هل ما زال هناك سعال؟ أمي ما كان هذا . . لماذا تسعلين بتلك القوة؟ !

-لا بأس يا صغيري، لِمَ أنت خائف؟ قريبًا سأتعافى، إنه مجرد سعال، أنت تعرف . . أصبحت أمك الآن هرمة، ربما ينذر ذلك بأنني سأموت قريبًا .

كانت دموعي تنساب مني بلا حياء، لم تستأذني ككل مرة في الانزلاق على وجنتي أم لا، فقط تحولت كل مخاوفي وتوقعاتي السيئة والمشاعر المتضاربة بداخلي لحظتها إلى ماء مالح يملأ وجنتيّ وأنفي، لم تكن كلماتها هينة، كانت تحسب أن موتها أمر سهل لمجرد أنها هرمة، لم تكن تعلم أن موتها هذا هو أصعب ما يمكنني لقاءه يومًا ما . . لم تكن تعلم أن لحظتها تقلقني أكثر من لحظتي أنا .

-لا تقولي هذا يا أمي، أنت لن تموتي، الله يعلم كم أنتِ طيبة، يعلم أنك لم تؤذِ أحدًا قط، يعلم أنك تحبين الجميع وتعطفين على الجميع، يعلم كم أحتاج وجودك بجانبي وأنك الشيء الوحيد الجيد في هذا الحي بل في الحياة برمتها، الله لن يأخذك مني لأنه يعلم أنك لم تخطئي قط، أنت تستحقين الخلود أكثر من أولئك الذين يبيتون بهذا المنزل الكبير، يعيشون النعيم كما لم يعِشه أحد .

كانت تبكي على بكائي دون حديث، حتى بدأت الدموع تسلك منحنيات وعرة في تجاعيدها، كفكفت دموعي قبل دموعها، كنت طفلًا جدًا في تلك اللحظة، يتعلق بآخر شيء له قيمة في حياته، كنت أتحدث بجدية عن موضوع الخلود والآباء الماكثين بداخل البيت العظيم يومها مع كوني كنت كافرًا بكل هذا، صمتت كل آرائي وأفكاري عندما تعلق الأمر بها، كنت أود أن تصبح أسطورة الخلود حقيقة تشمل أمي ولا سواها، كانت شغفي الوحيد، تعلقي بها منذ الصغر جعلها حقًا كالأسطورة التي لا تمحى، مرت أمامي مشاهد مقطعة تجمعني بها، مرت كالبرق لكنني تذكرتها جميعًا، مجرد النظر في وجهها يذكرني بذلك الوجه الذي كان أقل عجزًا . . الوجه الذي حمل ابتسامة ملائكية منذ دهر وهي تمسك بيدي وتقودني إلى المدرسة، كانت أمي جاهلة، لكنها أدركت أهمية العلم، كانت تود أن يصبح ولدها كل شيء حسن في هذا الوجود، تذكرت اليوم الذي مر منذ عام تقريبًا، وهي تتحامل فوق عكازها بعصبية لتخرج أمام ساحة

المنزل، ومن الشرفة الداخلية تقف بهامة مرفوعة، تزعق وتصرخ كصبية في العشرين لجارتها أم ماجد، تلك التي سمعتها أمي يومًا وهي تهذي بجانب جاراتها النمامات عني وعن أمي، قلن يومها أن أمي صارت أقرب للقبر من أي شيء آخر، تحدثن باستنكار عن طول عمرها، ورمينها بالسحر همسًا وهن يتضاحكن، كانت أمي قد فقدت جزءًا من بصرها وأصبحت تتحرك بشق الأنفس، لكنها حتى هذا اليوم كانت تتمتع بأذنين من فولاذ، تستمع لكل شيء من حجرتها الصغيرة سميكة الجدران، سمعتهن وصمتت.

كنت يومها أجلس بجانبها، فبدت بسمة صغيرة تحتل زاوية فمها وهي تخبرني عن أم ماجد التي رأتها أمس وهي تجلس في ساحة المنزل الخارجية، وقد اقتحمت المرأة المنزل في عشم غير مبرر وهي تتكئ على ركبتيها لتكون في مستوى أمي التي افترشت الأرض، قبلت يديّ أمي "السيدة شُميّسة سيدة الحي" كما تكنيها دائمًا، كانت أم ماجد عجوزاً أيضاً ولكنها كانت تصغر أمي بعشرة أعوام، كانت خبيثة تخفي أشياء وتظهر عكسها.

ظل حديثهن ما يقارب نصف ساعة عن أمي، حتى حولت أم ماجد أسهم الحديث فوق رأسي، وهي تتحدث عن المعتوه ولدها (تقصدني أنا) الذي يهذي كل يوم بكثير من الترهات والأحاديث المكذوبة حول الحي وأهل الحي، هنا قامت أمي وجسدها ينتفض، كان الغضب قد استحوذ على جزء لا بأس به من وجهها، قامت واقفة أمام الشرفة وهي تنظر لهن من أعلى، صرخت فيهن حتى فزعن؛ فقامت النسوة تاركات صاحبتهن أم ماجد وحدها تقف مذعورة وهي تفرك أصابعها ببعضها البعض، خائفة وكأنها تخشى أن تنزل أمي إليها لتضربها!

-اسمعي أيتها المهرطقة الخرفة، تحدثي عني كما تشائين، لكن ولدي لا، أتسمعين؟ إن علمت أنكِ تحدثتِ عن ولدي مرة أخرى بسوء سأفصل رأس الأفعى تلك عن عنقك الماجد يا أم ماجد، لقد أنذرتك.. أنتِ تعلمين من هي شُميّسة، فاحذريها إن كنت باقية على رأسك ولسانك.

ثم خرجت وأغلقت باب الشرفة بعنف، لم أرَ أمي غاضبة كيومها، كنت أتابع الأمر من النافذة الصغيرة في غرفتي، وقفت أم ماجد لأمي تستمع لما قالت، وبعد أن دخلت أمي، ظلت

دقيقتين تقريبًا مترقبة، ثم دخلت منزلها تغلق الباب في هدوء .

مرت تلك الذكرى سريعًا . . أم ماجد وأمي والنسوة وضحكاتهن . . وأنا أطالع وجه أمي الذي بات أكبر وأعجز من ذي قبل، لكنه ما زال يحمل نفس القوة والشموخ، العينين الثاقبتين . . والأذنين الفولاذيتين .

رن الجرس على غير العادة، ذلك الجرس المهجور منذ أعوام، من الذي تذكره، أشارت لي أمي في عجب:

–انظر من الطارق .

قمت متوجسًا ، فمن الذي سيزور شُميّسة وولدها الآن؟ لا سيما في هذا الصباح الملبد ! ربما عابر سبيل، ربما تائه، ربما مسافر وصل الحي الآن ولا يجد من يأويه . فتحت الباب، كانت لبيبة! بثياب المدرسة التي تعرضت لقليل من البلل، وضفيرتها البكر، كان وجهها ناصع البياض قد اكتسى بحمرة خفيفة تركزت في أنفها، خمنت أنها ربما أتت تحتمي من المطر، أشرت لها بالانتظار دقيقة لكي أحضر المظلة، أشارت لي بالتوقف:

–انتظر، انتظر، لم آتِ لهذا .

–ماذا هناك؟

–جئت أخبرك بأمر ما ، أعلم أنك لن تأتي المدرسة اليوم، وأمي لن تسمح لي بالخروج اليوم بسبب الأعمال المنزلية؛ لذا جئت أخبرك .

قلت متوجسًا :

–بماذا تخبرينني ؟ !

–رفيق . .

–ما به؟

–حدث أمس عندما كنا عند البحيرة بعض أعمال الشغب من شباب بعمر رفيق في شارع جانبي، كانوا يلهون، وقد كسروا عددًا من أعمدة الإنارة وقاموا بمضايقة بعض الفتيات

المارات، كما أنهم ألقوا الحجارة على النوافذ والشرفات فحطموها، وكانت الدنيا مساءً فلم يستطع السكان تبين ملامحهم، لكنهم قالوا أنهم فتيان تبدو أعمارهم بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة؛ فأمر شيخ الضيعة بإحضار المشتبه بهم، وهم ثمانية ومن بينهم رفيق. . قالوا أنه يمكن تبرئة أيٍ منهم عندما يشهد معه اثنان بذلك.

هتفت بحماس:

-يمكن أن يشهد كلانا.

-لا يجوز ذلك. . أنت تعرف السيرة المتداولة في الضيعة بكونك تهذي وما شابه ذلك من الحديث الفارغ، لكنه معترف به، وأنا فتاة، كما أنني لست من أهل الضيعة فلا يحق لي الشهادة.

أحسست بتوجس لبضع لحظات:

-وماذا سيحدث لمن تثبت عليه التهمة؟

بخيبة أجابت:

-سيحتجز سبعة أشهر، هذا ما قاله أبي عندما كان قريبًا من بيت شيخ الضيعة.

-ماذا؟!

كان وجهي قد اكتسى بلون أزرق على أثر ما حدث لأمي قبل قليل. . أما وقد ألقت لُبيّبة لي بهذا الخبر فقد بدا وكأن الأزرق تحول إلى أزرق داكن!

شعرت لوهلة أنني أختنق بمرور اللحظات وقد رأت لُبيّبة ذلك بوضوح، قالت بذعر:

-ما بك؟ اجلس قليلًا.

دخلت المنزل، جلست قرابة الباب مفترشًا الأرض، وقفت بجانبي في حنو، جاءنا صوت أمي تقول:

-ماذا هناك يا ولدي؟

-لا شيء يا أمي، إنها لُبيّبة جاءت تحتمي من المطر.

قالت لبيبة بخفوت:

-لا بأس، رفيق معروف بأخلاقه بين أرجاء البلدة، بالتأكيد سيستبعد سريعًا .

-أرجو ذلك يا لبيبة . . إذا فقدت رفيقًا أو فقدتك، فهذا يعني لي الضياع تمامًا .

ابتسمت مشفقة ثم قالت:

-والآن علي الذهاب .

-انتظري، ما زالت تمطر، سآتي لأوصلك .

-لماذا لا تأتي معي بدلًا من إيصالي فقط؟ إلى متى ستظل متغيبًا، أيام غيابك صارت أكثر من أيام حضورك بأضعاف، أنت تخسر الكثير .

ارتديت سترتي سريعًا، حملت المظلة وأمسكت بذراعها أقودها للخارج:

-أنا أخسر يا لُبيّبة عندما أحضر، لم أعد أحتمل ذلك المكان، ثم إن العلم ليس كتبًا فقط، أنا أتعلم كل يوم درسًا جديدًا بفضل هذا الحي .

ابتسمت دون حديث وهي تتحرك بجانبي، كان صمتها وابتسامتها دليلًا على الاعتراف .

• • •

كانت تتحرك بجانبي تمامًا، شبة ملاصقة لي، ولم يكن لذلك سبب سوى المظلة، تمشينا في صمت، كان الرذاذ يهطل زخات متتالية وأنف لُبيّبة ورؤوس أصابعها تزداد في الاحمرار، كان المطر يبلل شعرها الفاحم، لبرهة وجدت نفسي أطالعها دون خجل، ماذا لو لم يكن ذلك الملاك في حياتي، كنت دائمًا أرى لُبيّبة كشيء وسط، لم أكن أراها تصلح كحبيبة لي، كنت أراها فوق ذلك، ولم أكن أشعر تجاهها مشاعر الأخوة، فقط كنت سعيدًا لوجودها في حياتي، كانت كلماتها، الأوشحة التي تعدها وتهديها لي ولرفيق، تجعلي أتشبث بها، لكنني كنت أعلم أن ما بداخلها لرفيق يختلف عن ما بداخلها لي، كنت أشعر ذلك فقط، ولكن ما أكد لي هذا الأمر كان في بداية هذا الشتاء . . قالت أنها تفكر في صنع ثلاث أوشحة لكل منا ولكنها تحتار في اللون، أتتنا تسأل إن كنا نفضل الفضي أم الأبيض، قلت الأبيض وقال رفيق:

-الأسود أفضل .

لم تعقب، وبعد يومين أتتنا تحمل ثلاثة أوشحة من خيط صوفي أسود .

• • •

أوصلتها حتى باب المدرسة، وقبل أن تعبر الباب همست بجانب أذني:

–الرابعة عصرًا نلتقي عند البحيرة، سأحاول إنهاء الفروض المنزلية ومتطلبات أمي قبل الرابعة حتى نلتقي، يجب علينا أن نفكر في شيء بخصوص رفيق.

أومأت إيجابًا فقط، وأنا أراها تودعني ببسمتها الوديعة قبل أن تتلاشى تمامًا .

• • •

تبددت السحب سريعًا مع بُزوغ الشمس، وكانت ألوان الطيف قد بدأت تلون السحاب بينما كنت أتهادى في الرجوع، لبيّبة ورفيق كانا أكثر ما يشغلني، تخيلتهما لبرهة عاشقيْن، وكعادتي كنت أشطح بخيالي أشواطًا بعيدة، كانا سيبدوان جميليْن إذا ما حدث ذلك، رغم أن لُبيّبة لم تكمل عامها الرابع عشر بعد، لكنها كانت تصلح لهذا الدور حقًا، كان للُبيّبة قلب مُتسِع، ولم يكن ليملأه سوى رفيق، رفيق وحده، لكن يا ترى ماذا يلاقي الآن؟!

• • •

الرابعة عصرًا عند البحيرة، وقفت أنتظر لُبيّبة كما كان اتفاقنا بالصباح، سرحت بخيالي قليلًا أتذكر رفيقًا، أتذكر جموحه معي عندما كنا نتناقش في أمور هذا الحي، أتراه يكون قد اقتنع الآن؟ أخذوه ظلمًا، وشهادتي مرفوضة لمجرد أنني خالفت البعض من قولهم، ولُبيّبة لن تستطيع ذلك فقط لأنها ليست من أهل الضيعة. راح خيالي يتخيل مسرحًا ويرسم القصة، ماذا لو أن أحدهم اتُهم في جريمة قتل مثلًا، ولا يوجد شهود نفي إلا واحدًا ليس من أهل الضيعة، ماذا لو كان هذا الرجل بريئًا والآخر صادقًا، ماذا لو تحالفت الظروف مع الشيطان ضد هذا البريء. ماذا لو؟!

أمسكت برأسي أمنعها من تخيل المشهد التالي، كان سيكون ساحة واسعة يقف فيها هذا البريء مطأطئ الرأس ومن فوقه المقصلة.. وتمر لحظة صمت قبل أن يفنى من الوجود.

أفاقني صوت لُبيّبة البعيد، كنت أراها تهرول نحوي في سعادة، من ذا الذي بجانبها؟ رفيق!

كانا يشبكان أصابعهما ببعضها البعض وهما يهرولان بمرح طفولي، كانا سعيدين للغاية وأنا كنت دهشًا للغاية، ترى كيف أتى رفيق، هل هرب؟!

أقبل رفيق نحوي يضمني بسعادة ولُبيّبة تقف في الخلف تنظر بإجلال، وقفت للحظة صامتاً قبل أن أقول:

-حمدًا لله على سلامتك، كيف خرجت؟

-أخرجوني أنا واثنين آخرين، قالوا أننا غير مشكوك بنا، وتركونا.

-كيف؟ لا أفهم، هل وجدتم شهودًا على أنكم لستم من فعل ذلك؟

قاطعتني لُبيّبة متعجلة:

-وما جدوى هذا الحديث الآن؟! رفيق خرج، علينا الاحتفال فقط.

لم أتمالك أعصابي، صحت فيها:

-دقيقة يا لبيبة، هل تركوكم تخرجون هكذا يا رفيق؟ إذاً فهم قد وجدوا الفاعل الحقيقي.. أليس كذلك؟

قلتها بتوجس، كنت أتمنى أن يقول لي نعم، أتمنى أن يخالف توقعي السيئ، اقتنعت لبضع ثوانٍ أنني فقط "متشكك" زيادة عن اللازم، ليأتي جوابه مخيبًا أملي.

مال على أذني ليقول وهو يغمز بعينه ضاحكاً:

-لا، ولكننا كنا ثمانية، كان من ضمنهم أنا واثنان آخران أخرجونا مباشرة لأننا من أبناء الضيعة وذوونا معروفون، وتبقى خمسة، أربعة منهم ليسوا من الضيعة، والخامس شاب معروف بأعماله المشينة دائمًا، حتى إنه يشرب الخمر علنًا، إذاً فيجب أن يكون الفاعل بينهم.

حاولت تمالك ما بقي لي من أعصاب، وقلت بروية مصطنعة:

-لماذا يجب أن يكون من بينهم يا رفيق؟

-هذا الأخير فاسد بلا شك، يشرب الخمر جهرًا ويغازل الفتيات على قارعة الطريق بلا خجل، إذاً فلا شك أن يكون الفاعل، أما الأربعة الآخرون، فالضيعة ليست ضيعتهم،

يكسرون مصابيحها، يغازلون ويضايقون فتياتها، يزعجون أهلها، الأمر ليس أمرهم، بالتأكيد اشترك بعضهم مع ذلك الفتى في هذا العمل.

-هل تقصد أن هذه هي المعايير التي حملت رجال الأمن بالضيعة، وشيخها والأهالي، على إخراج أربعة مراهقين من منازلهم في منتصف الليل، فقط لأنهم ليسوا من أهل الضيعة؟

تجهم قليلاً قبل أن يهز كتفيه في عدم فهم، وهو يقول:

-نعم، وما في ذلك!

-أنت تمزح أليس كذلك؟

-لا، بالتأكيد.

-أنا لا أصدق.

-ماذا بالأمر؟ لقد أخرجوني أنا أيضاً من منزلي من بين والديّ وإخوتي في منتصف الليل.

صحت محتجًا:

-لكنهم تركوك صباحًا لمجرد أنك من البلدة!

بدت ملامح الحزن تكسو وجهه، قبل أن يجلس على حافة البحيرة ويقول بوهن:

-هذه هي المقابلة التي تلقى صديقك بها بعد خروجه من أزمته؟ شكرًا لك!

صمت لثوانٍ ثم أتبع ساخرًا وهو يطرق كفًا فوق كف:

-لم أكن أتخيل كل هذا الاحتفاء من صديقي الوحيد.

كانت لُبيّبة تقف خلفنا، بحزن نظرت نحو عينيِ مباشرة، أشحت ببصري بعيدًا عنها وأنا أتحرك نحو رفيق، ربت على كتفه فأزاح كفي مستنكفًا.

-رفيق، اسمعني قبل أن تصدر الأحكام عبثًا.

-لن أسمع، لقد كنت معك أمس وقت حدوث الأمر كله، المفروض أن تكون فرحًا لنجاتي وبراءتي أكثر من أمي وأبي.

-يا رفيق الأمر لا علاقة له بك، أنا أقصد، أعني أنهم قبضوا على هؤلاء الفتية أيضًا، ربما يحتجز أحدهم ظلمًا، فخروجكم كان مبرره الوحيد أنكم من أبناء الضيعة ولم يُرَ على أحدكم فعلًا مشينًا على الملأ، وهم أيضًا ماعدا ذلك الفتى الآخر، أقصد أنهم قد يعاقبون فقط، لأنهم ليسوا من ذات بلدتنا، ربما يكون بينهم الفاعل، وربما يكون بينهم بريء مثلك، سيعاقب ظلمًا لأن القدر ألقى به في بلدة غريبة عنه.

صمت للحظات، لمست في عينيه تصديقًا، لكن سرعان ما أخفاه وهو يشيح ببصره عني ويقول في علو:

-ولكن كل هذا ليس من شأنك، لو كنت صديقي حقًا لما شغلتك كل تلك الترهات والأحاديث الهاوية عن تهنئتي وفرحتك بنجاتي.

أشار نحو لُبيّبة وهو يقول:

-انظر إلى لبيبة، صديقتي أيضًا، ورغم أن بين المتهمين شابًا من بلدتها وابن أبيها ولهما نفس النسب، فإنها لم تفكر إلا بتهنئة صديقها.

وقفت في مواجهة لكليهما، كانت لُبيّبة ما زالت تقف حيث كانت بلا حراك، تترقب في صمت، وكان هو قد اِلتف لي يرى ماذا أنا بفاعل.

آنذاك، تجرأت لأول مرة، كانت كلماته قد أفقدتني السيطرة على عقلي ولساني، صحت في كليهما:

-لأنها تحبك، وأنت كذلك، فلم تفكر في شيء سوى عودتك، نجاتك تهمني يا رفيق كما تهمني نجاة الأبرياء منهم أيضًا.

وقف كلاهما مذهولًا، ينظران لي نظرات غاضبة وكأن كلًا منهما أودعني سرًا وأنا قد خنت الأمانة، لم يكونا على علم بأن إعجاب أي منهما مميز عن الشمس التي تشرق كل يوم، كانا حانقين ولكنني لم أمهلهما فرصة التكذيب أو النفي، عدوت بعيدًا كفرس جامح، فكرت لو أن ذلك قد يقطع رباط صداقتي بهما، خفت وكدت أرجع أو أقف، لكن جموحي وكبريائي لم يمهلاني، ظللت أسرع الخطى كمن يسابق الريح والزمن، سبقت الريح.. لكن الزمن يبقى في طريقي، صراع غير متكافئ.

آخر ما سمعته عصر هذا اليوم أصواتًا تفسر بصعوبة لبعد المسافة، لكنها كانت مألوفةً لدي:

–لقد جن بالتأكيد .

–سيهلك نفسه .

يبدو أنهما لم يتطرقا لحديثي عن قصة الحب، كانا خجولين .

• • •

مضت ساعتان منذ عودتي، أمي أكدت منذ أن وقعت عيناها عليّ فور دخولي أنه لا بد من أن شيئًا قد جرى، حاولت أن أتوارى بعيدًا عنها ، أن أختفي، كنت أعلم أن أمي قادرة على قياس أغواري أكثر من أي مخلوق كان، حتى أنا . لم أكن أرضى أن يفتضح أمري هكذا سريعًا ، ارتقيت إلى غرفتي وأنا أفكر ماذا سأفعل بالأيام القادمة، هل سأقضيها بجانب أمي ولا شيء آخر؟ بالتأكيد سأمل، إذًا لا بد من الذهاب للمدرسة من جديد لقتل أوقات الفراغ الموحشة، سألاقي لبيبة، سيكون ذلك صعبًا بعدما فضحت أمرها أمام رفيق، أتراها تسبني في أول يوم تراني به، أتراها تسلط علي من يضربني؟ لا، لُبيّبة فتاة طيبة وشريفة، لكن أجزم أنها لن تخالطني بعد ذلك أبدًا . ورفيق. . أهكذا تنتهي صداقة عشرة أعوام، أأعود وحيدًا من جديد، أقضي الأوقات بين الغرفة الكئيبة والجارات العجائز وأحاديثهن التي يحسبنها مخفية وهي تأتيني في غرفتي دون رِغبة مني بذلك؟ ربما تأخذني قدماي يومًا نحو البحيرة، هل سألقاهما هناك؟ ! سيتحدث كل منهما للآخر ويتجاهلانني تمامًا ، هل سأصبر على كل هذا؟ ربما يدعوني ذلك للانتحار، وحتى إذا انتحرت ستأتي أمي إلى قبري تبكي كل صباح ومساء، لن يكون بجانبي سوى صوت نواحها ، ألن يأتيا لفعل أي شيء بجانبي حتى بعد موتي؟

كنت طفلًا ، وخيالي فوق أن يتخيله عقل بشر، أشطح كثيرًا وبعيدًا ، وأصنع مملكة من لا شيء بمجرد حلم، وأهدمها في لحظة واحدة إذا أتتني فكرة لمملكة أجمل. كذلك أيضًا ، انتحرت وسمعت نواح أمي. . وأنا ما زلت فوق سريري بجانبها ، حية هي وحيٌ أنا ، في منزلنا العتيق القابع بآخر زاوية شارع في ضيعتنا الأعتق .

مرت ثوانٍ فقط، قبل أن أسمع جرس الباب مرة ثانية في يوم واحد ، يا الله، إنها معجزة!

قمت أتهادى، وأنا أفكر في نفس عابر السبيل الذي قد ضل الطريق، ولم يجد سوى منزلي البائس ليطرق بابه. جذبت الباب في ملل، لأجدهما أمامي، كليهما. لم يمهلني رفيق، جذبني سريعًا وهو يضمني في عناق دافئ قوي هامسًا في أذني:

-لا أستطيع تخيل حياتي بدونك أيها الأحمق.

كانت لُبيّبة تقف قريبًا، كانت تلك أسعد ما مر من لحظات قصيرة في حياتي، لأول مرة، أشعر أن أحدهم يهتم لأمر غيابي من حضوري، سوى أمي.

قالت لُبيّبة:

-لن تهون على قلوبنا ولو فعلت أنت، أنت ثمين كماسة أثرية، لا يمكننا الاستغناء عنك.

غمزها رفيق وهو يقول مداعبًا:

-أتغازلينه على الملأ هكذا؟ انتظري حتى أذهب.

كان رفيق يدرك أن لُبيّبة تحدث أخاها، لو كان يحسب غير ذلك لما عدها كمداعبة، كان رفيق يحب، ولكنه لم يكن يقوى على الاعتراف.

• • •

الصيف ضيعت اللبن. حكمة قالها القدماء.. يستنكرون بها الذي أضاع بنزقه أو غفوته شخصًا عزيزًا مخلصًا له، كانوا يحذرون القادمين من بعدهم من ذل الفقد، أرادوا أن يغرسوا بنا الحفاظ على أحبابنا حتى لو كنا نختلف معهم في كثير من الأمور والآراء. كانوا يريدون أن يقولوا: مهما حدث لا تتخلَ عن حبيب أو صديق لك، حتى لا يأتي اليوم، الذي تدرك فيه أن الصيف ضيعت اللبن.

مرّت الأيام تجر بعضها بعضًا للرحيل، كنت مكتفيًا ذاتيًا بما أمتلك، أمي ولُبيّبة هما اللتان أحتاج إلى وجودهما في حياتي من النساء، ورفيق أبي الذي لم أعد أريد لقاءه؛ فأنا استكفيت برفيق عنه، وصديقي، وابني إذا ما أردت أن أراه كذلك. كان دائمًا ما يشغلني أمري، هل سأكمل حياتي على هذا النحو، ماذا لو حكمت الأيام بفراق أيٍ منهم، هل سأحتمل ذلك؟

سألت هذا السؤال لنفسي قبل عام، وجاءني الرد سريعًا، أسرع مما تمنيت.

كنت في عامي الخامس عشر عندما بدأت أشعر بأن لُبيّبة لم تعد كما كانت، كانت لقاءاتنا تتم جميعها عند البحيرة، نلتقي بالأسبوع ثلاث مرات على الأقل، تحدث ببراءة اللقاء الأول في حدود عالمنا الصغير، أنا وهي ورفيق، أيامنا صارت أجمل بعدما تعمدنا جميعًا إقصاء حواراتنا عن الحي وأهله حتى لا نقع في نفس بؤرة الصدام. كنا جميعًا نتغير، بدأت ملامح مراهقتي تملأ وجهي وجسدي وصوتي، وهي كذلك، كان رفيق قد مر بتلك المرحلة منذ فترة، ولكننا جميعًا لم نكن نعير ذلك اهتمامًا، رغم بلوغ لبيّبة وعلامات الأنوثة التي أعطتها رونقًا مختلفًا، فإننا بقينا لا نرى فيها أجمل من وجهها الملائكي، كانت لُبيّبة تكبر يومًا بعد يوم، أصبحت ناهدًا بصوت أنثوي ساحر، وجسد ممشوق ووجه كبدر منير يهز قلوب الفتيان، لكن ليس نحن. لم أزل أراها طفلة، طفلتي الجميلة، ورفيق أيضًا، كان يحب، لكن حبه لها جعله يرسخ نظرته الطاهرة إليها.

كان من السهل جدًا تمييز التهرب الذي تتعمده كلما أردنا أن نحدد وقتًا نلتقي فيه عند البحيرة، سابقًا كنا نلتقي بالأسبوع ثلاث مرات أو أربعٍ. أصبحت لا تكاد تأتي بالأسبوعين أو الثلاثة مرة واحدة، حتى عندما تأتي تقضي وقتًا متعجلًا لا يشعر أحد بالاستمتاع فيه، ثم ترحل كما أتت، متسرعة، كان رفيق يقضي وقتًا كئيبًا تلك الأيام التي تأتي وتذهب فيها على عجل أكثر من الأيام التي لم تكن تأتي فيها أصلًا، سألته يومًا فلم يجب، كان يدرك ما خفي عني.

تعمدت يومًا أن أذهب إلى المدرسة لأراها وأسألها، كنت متغيبًا منذ زمن، حتى إن دخولي كان خلسة. انتظرت حتى بدأ وقت الراحة ليكون دخولي سهلًا. يومها رأيتها تجلس تحت شجرة، وحيدة وحزينة، تعد حبات الحصى هنا وهناك في ملل، جلست بجانبها دون سلام، كانت تنظر لي نظرة غير مصدقة، دهِشة، سألتني على عجل:

–ما أتى بك، وكيف دخلت؟

–لا شأن لك في هذا، جئت فقط لأسألك، وسأرحل سريعًا، ما الذي جرى لك، لماذا صرتِ تتعمدين التهرب منا، لماذا صرتِ ترفضين أي لقاء، ماذا جد بالأمر؟ أنت كما أنت وأنا كما أنا ورفيق كما هو، ما الذي جد لتهربي من مجالسنا ونزهاتنا، هل أزعجناك في شيء؟

أطرقت في يأس، قبل أن تقول:

-أنت لا تفهم شيئًا .

صحت فيها :

-إذاً أريدك أن توضحي لي ما خفي عني .

كانت حكيمة جدًا وهي تقص على مسامعي كلامها ، قالت أن السبب يكمن في والديها ، لقد قالا أنها لم تعد تصلح لألعاب الأطفال تلك، وأنها كبرت وأصبحت امرأة لا يجوز لها مواعدة شابين يافعين في عمري وعمر رفيق، قالت أن أمها صاحت بها وهي تقول: "ماذا سيقول عني الناس عندما يعرفون أن ابنتي الشابة الزاهرة تجالس شابين مراهقين قد نبت الشعر في وجهيهما وأنا راضية؟!" . . ثم أضافت ما هو أهم، قالت: " . .شابين غريبين في ضيعة غريبة سيتحدث فيها الناس بلا رحمة في عرض ابنتي، ولن يهتموا لما تقولينه عن أحاديث الطفولة الساذجة تلك" .

أضافت لُبيّبة وكأنها تغلق بابًا من ذكرياتها بلا تمهل:

-كانت أيامًا جميلة تلك التي قضيناها سويًا ، أقسم أنني لن أنساها أبدًا .

تلك المرة كنت أنا من أطرقت، لم أعرف كيف أجاوب، فقط أخذتْ مخيلتي تندب سوء حظي الذي يجعل الأيام تسرق مني أعزائي، وها قد بدأنا .

اندفعت قائلًا دون تفكير:

-ستظلين أختي يا لُبيّبة ولو رفضت أمك ورفض أبوك، ستظلين كذلك .

قمت سريعًا دون أن أنبس بحرف آخر، كنت أوليها ظهري وأنا أتحرك نحو البوابة الخلفية لسور مدرستها ، ولكنني شعرت بنظرات الخيبة في عينيها تشيعني من بعيد ، شعرت ذلك حتى دون أن أراها .

• • •

صدقت لُبيّبة وكذبت أنا ، كانت حقًا أيامًا جميلة لا يمكن أن ينساها أيٌ منا ، حاولت كثيرًا أن أعيدها دون جدوى، حاولت حتى إنني ذهبت إلى منزلها استعطف والدتها أن تتراجع عن

قرارها، أخبرتها مرارًا أن لُبيّبة ما هي إلا أختٌ لي، رجوتها ألا تحرمني إياها، أخبرتها عن يتمي وأن الأب الذي أعرفه لي هو ذلك القابع ببيت القصيد ولا سواه، أخبرتها كم أن ابنتها عزيزة لدي، لكن كلماتي لم تشفع لي وانتهى الأمر عند هذا الحد.

كان رفيق متأثرًا لغيابها أكثر مني، حتى إنه هجر البحيرة وكف عن الذهاب إليها، ولم يعد يجلس هناك سواي، كان يريد نسيان تلك الذكريات، نسيان أن قلبه تخضب بحب لُبيّبة، نسيان الطفلة التي نمت وترعرعت أمام عينيه. أما أنا فعلى عكسه.. كنت أريد ألا أنسى أيًا من تلك الذكريات، كنت أريد أن تظل حاضرة في ذهني، تُسلي وحشتي التي عادت من جديد. أدركت وقتئذ أن الصيف ضيعت اللبن، الصيف لا أنا.

• • •

من بعد ذلك، مرت الأيام خاويةً حقًا، يتنافس المِلل والفتور على شغل النسبة الأعظم فيها، لم يكن هناك شيء يهم، ولشهور مضت بعد غياب لُبيّبة غاب معها كل شيء اعتدناه، متنفسي الوحيد كانت البحيرة، كلما وجدت بداخلي شجنًا لما فات، أزورها، أتذكر الأيام الخوالي، والأحاديث البريئة، المزاح والمرح، وعندما أفطن إلى أنني لو فكرت في كل هذا اليوم قد أجلس غدًا لأجده قديمًا، أدخر بعض الذكريات لليوم الذي يليه. أما عن رفيق فقد بدا شاحبًا جدًا بالآونة الأخيرة، قد زاد جسده نحولًا على نحوله، واتخذت سحنته مظهرًا خاليًا من الألوان فاترًا، بالبداية كان قد صار قليل الكلام كثير التعرق، يرتدي سترة داكنة اللون ويلف حول عنقه شالًا صوفيًا أسود في أغلب الأحوال، لم يكن يذهب لأي مكان، كنت آتيه منزله، أجالسه بغرفته ما يزيد عن ساعتين أو ثلاث بلا حديث، يحدق بي أحيانًا ثم يعود ليطرق بنظرة خالية، وإذا ما استأذنت في القيام جذبني وهو يتوسل أن أبقى قليلا. كان لرفيق إخوة وأخوات كثر، إذا آتيته في الساعة الرابعة، يدخل أخوه الأكبر يلقي التحية ويهم بالخروج وقبل أن يغلق الباب يهمس في استنكار:

–يا صديق أخي فلتنظر في أمر صديقك، لقد تغير بين ليلة وضحاها، ألا تعرف لذلك سببًا؟

كان يقول آخر جملة وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة ويخرج دون أن ينتظر الإجابة.

ثم عندما يحل الليل وتبدأ الساعة السادسة، تدخل أخته الصغرى، تلقي التحية في خجل مصطنع، ثم تجلس فوق سرير أخيها مربعة قدميها، وتسألني في بلاهة:

-أين صديقتكم الثالثة يا عم، لماذا لم تعد تأتي هي الأخرى؟ أأنتم في خصام؟! أهذا سبب حزن شقيقي رفيق؟

كانت أسئلة كثيرة تلك التي يسألها إخوة رفيق، ولم تكن تلك بيئة صالحة ليشفى من هزاله.

كان جلوسي معه يومًا بعد يوم في صمت يحسن من حالته المزرية، ولم أكن أفهم كيف، فقط أعلم أنه يتغير بمرور الوقت. بالبداية كان الصمت ولا منافس له يعم جلستنا، ثم بمرور يوم أو يومين، صار يطلق تنهيدات طويلة بين الفينة والأخرى، ثم بعد ذلك، صار يتذكر أنني أجلس بجانبه كل ساعة أو اثنتين، يسألني عن أحوالي وأخبار أمي ثم يعود للصمت. وبمرور أسبوعين على هذا أتاني يومًا إلى منزلي صباحًا قبل شروق الشمس، طلب أن نتجول في أسقاع الضيعة كما نشاء. أخبرته بدون نية لأي شيء:

-أنذهب للبحيرة؟

صاح بعنف:

-لا، سنذهب لأي مكان آخر.

لم أعقب، ظللنا نسير قرابة الساعة بلا هدى بين الشوارع والأزقة، كانت الشمس قد أطاحت بنورها فوق المنازل والشرفات، سألته التوقف قليلا، كان كالقطار يتحرك بلا هوداة، طلبت منه الوقوف قليلًا للراحة، فزفر متململًا في ضيق عندما وقفنا عند مقهى "الوطن" لصاحبه السيد ياسين الذي أهداني كوبًا من الماء، لم يحتمل رفيق أن أكمل شربه، فنزعه من فوق فمي وهو يقول:

-هذا يكفي، شكرًا لك عمي ياسين.

قال ذلك وهو يجذبني من معصمي بعيدًا، وعلى شفتيّ ما زالت آثار الماء!

مشينا ما يقارب نصف ساعة حتى وصلنا إلى منزله، وهناك افترقنا، لكن قبل أن أذهب، توقف أمامي قليلا وهو يقول بامتنان:

-لا أعرف كيف أشكرك، صدقني أنت أفضل صديق عرفته وسأعرفه ما حييت.

قال ذلك وهو يضمني في عناق قوي، ولأول مرة منذ أن راحتٍ لُبيّبة قرأت في عينيه وشفتيه ابتسامة أو ربما هو شبح لها، على أية حال، أدركت يومها أن رفيقًا بدأ يسلك طريقه للتعافي.

بمرور الأيام، اتسعت ابتسامة رفيق.. وقل تعرقه. بدأ يجاريني بالحديث، يستجيب إذا ما دعوته للتنزه، كان يغفل قليلاً، ويتجاهل الحديث أحيانًا، ومرات أخرى كان يستمر بالحديث لساعات في أقوال قد يكون أكثرها لا يهم كلانا، كنت بتلك الفترة أقضي أغلب أوقاتي بجانبه ومعه، مرت فترة حتى عاد كل شيء كما كان، إلا أن رفيقًا ظل على هجرانه للبحيرة.

• • •

على أثر ما حدث، صارت البحيرة خالصة لي، حتى إنني كنت أتعجب إذا ما رأيت أحدًا جاء يجلس بجانبها، كانت الجهة التي نجتمع فيها من البحيرة في مكان معزول نوعًا ما، في آخر الطرف الشمالي للبحيرة، وهي الوجهة الأكثر بعدًا وانعزالًا لمن جاءوا متنزهين؛ لذا فقد كانت أقل زيارةً وزحامًا، وعلى هذا الحال ظللت أحبها قبل اجتماعي بأصدقائي أمامها وبعد ذلك. حتى أتى ذاك اليوم الذي كرهتها فيه أنا الآخر وهجرتها معهم، أتذكر كل ما حدث ذاك اليوم، أتذكره كما أتذكر لحظتي تلك.

كنت كعادتي، آتي بعد أن تعجز الشمس ويقل نور شبابها، في الساعة الرابعة أو بعد ذلك، عندما تكون الضيعة في حالة صمت أشبه بمقبرة فارغة حتى من همسات أشباح الموتى.

جلست كعادتي صامتاً، والمكان يلفه الصمت من حولي ككل يوم، لكن في هذا اليوم تعكر الصمت سريعًا بمجيئهما، كان الصخب من حولهما عاليًا مع أنه لم يكن معهما أحد آخر، يمسك كلٌ منهما بقميص الآخر وهو يكيل له بين اللكمة والأخرى أقذع الأوصاف والشتائم، لم أدرِ من أين أتيا أو كيف، فقط أدركت حنقي على الأصوات التي سحقت مخيلتي وراحتي وأنا أشرد مع الماء الصافي. هممت بالقيام لفض ذاك النزاع، لكن دون جدوى، ألقى أحدهما بي بعيدًا عندما هممتٍ بإمساك ذراعه وأنا أكفه عن الآخر الذي أدمى وجهه، كانا بمثل عمري تقريبًا، أحدهما طويلٌ ببشرة سوداء وجسد ممشوق وهو الذي لكمني، والآخر على عكسه تمامًا، بدينٌ أقرب إلى

القصر منه إلى الطول، يتلقى اللكمات واحدة تلو الأخرى وكل ما يفعله كيل الشتائم والألفاظ الحقيرة لخصمه ولي!

كان ذاك الأسمر يلقي بجسده فوق الآخر، ويقيد يديه يمنعه من الحركة، بينما شعرت أن الآخر لم يعد له وجه، لم يكن هناك إلا دماء متناثرة وكدمات زرقاء وسوداء ترتكز بجانب عينيه، وبقايا أنف مكسور، وما زال يسب!

كانت شتائمه وألفاظه تزيد الحقد والحنق في عيني خصمه فتزيد لكماته وتزداد قوة، قام ذاك القصير بعد جهد جهيد، يجر جسده الثقيل بقوة ليقف على قدميه، وفي لحظة فقد كل منهما توازنه، ألقى كل منهما بالآخر في البحيرة، وعلى ما بدا، كان كلاهما يجهل السباحة.

لم أدرِ كيف حدث أو لماذا. اضطراب شديد بعد أن سقطا، كانت جُدّة النهر عالية والخروج منَها صعب الحصول، والفتى الأسود يعافر حتى لا يجذبه التيار بعيدًا، يمسك بأطراف العشب الوليد بين صخور الشاطئ المرتفعة، أو بالصخور نفسها، بينما تسببت الشحوم فوق جسد الآخر في جرفه بعيدًا. هرعت سريعًا وأنا ألقي نفسي بالماء بلا تفكير، تشتتت أفكاري للحظات بينهما، كان الأول يلهث وقد بدأت قواه تخور، وعيناه تزوغان والعرق ينتشر فوق جبينه، حاولت انتشاله لكن التيار كاد يجرفني ويجرفه، صرخت بما تبقى لي من صوت (كانت تلك عادتي.. يختنق صوتي إذا ما ضاق صدري بشعور الأزمة)، لم يجبني أحد، ولم يكن هناك أحد ليجيبني، لم يكن هناك غير ثلاث فتيات يتابعن الموقف من الشط الآخر للبحيرة ضاحكات على الشابين المتناحرين، ثم بسقوطهما بالماء، هرعن بعيدًا وهن يصرخن بعويل.

حاولت حمله فبدا ثقيلًا على عكس جسده الرشيق، أمسكت بخاصرته وظهره أحاول دفعه إلى أعلى ليمسك بأي من الصخور البارزة من عضد الشاطئ المرتفع، كانت قواه قد نفدت تمامًا بعد أن استنزفها في حربه منذ قليل، صرخت ببضع كلمات لم يفهمها لكنها أفاقته، تشبث بطوق نجاته الأخير وهو يطبق بكلتا يديه على صخرة بارزة من جسد الشاطئ حتى استطاع رفع قدمه اليمنى.. تشبث زيادة، أمسكت بخاصرته أكثر وأنا أنوء به بما لي من عزم إلى أعلى، كنت أحس بنصف جسدي السفلي ينجرف مع التيار وأنا أتشبث بخاصرته وساقه، وهو

يتشبث بصخرة صغيرة يطبق عليها بيديه وعينيه وما له من قوى، صرخت فيه مرة أخرى وقد بدت الصخرة التي يتشبث بها تتحطم، رفعته مرة أخرى حتى استطاع إخراج كلتا قدميه من الماء، أصبحت أنا من يتشبث بالهواء بينما استطاع هو الخروج كليًا من الماء. أعطاني يده سريعًا وهو يجذبني، كنت أهوي، وكان يضغط فوق معصمي ليخرجني كما كنت أضغط على خاصرته وساقه لأخرجه منذ قليل، نجا كلانا بعد أن أخرجته وأخرجني، كان يلهث بشدة ويتقيأ الماء الذي ابتلعه عنوة منذ قليل، ثم وجدته يلقي بجسده منهكًا فوق الرمال التي لطخت وجهه وملابسه. وأنا، وقفت لبضع ثوانٍ، أتحسس وأمسك بركبتي في وضع الركوع، وأنفاسي المضطربة تخرج مختلطة برذاذ النهر، بالكادً استمعت لها أذني المبللة في حالة الضجيج والصخب التي تصدر عن موضع قلبي الذي كاد ينخلع من بين الضلوع، اعتدلت في وقفتي سريعًا، وفؤادي يوشك على التوقف عن حركته، عدوت سريعًا فوق الشاطئ، كان ذاك البدين أبعد من أن أستطيع اللحاق به سباحة، وعيني تلاحقه وقد بدا لا يعرف من أمر السباحة شيئًا. جرفته الماء عكس اتجاه جسده باتجاه الشلال العظيم الذي تنتهي عنده البحيرة ويهوي إلى صخور حادة الأطراف، كانت رأسي تمتلئ بكل توقع بائس قد يصيب ذلك الفتى، سابقت زمني وقواي الضائعة رهانًا على حياته، أصبحت على مقربة لا بأس بها منه، هممت بإلقاء نفسي وصوت الآخر الذي بدا قريبًا من أذني بتلك اللحظة يصرخ بي:

-ماذا ستفعل أيها المجنون؟! ستهلك نفسك!

"ستهلك نفسك".. جملة ترددت على مسامعي أكثر من اللازم، حتى اقتنعت أن هلاكي صار متوقعًا بأي وقت.. لم ألقِ له بالًا بل ألقيت بنفسي، ألقيت بنفسي لأجل حياة الآخر، لكن قدره لم يمهلني.

كانت ساعته قد حانت، انقلب جسده على وجهه ليغوص أنفه داخل الماء، اختنق أنفه وامتلأت رئتاه بالماء، شعرت به وأنا أقاوم التيار لكيلا يجرفني معه، كان ذاك أصعب ما شاهدته عيناي.. أو ستشهده.

أطبق فوق عنقه وهو يسعل داخل الماء، حاول التقلب لكن الماء كان يملك ويملأ وجهه، مد لي يده المنهكة، حاولت التشبث بها، أطبقت بيميني على حجر بارز من عضد الشاطئ،

وبيساري كنت أطبق على معصمه. كانت يمينه بيساري ويساره تطبق فوق عنقه المنتفخ بالماء تارة، وتارة أخرى تضرب الماء تحاول الوصول إلى ما تتشبث به. قدماه كانتا تعافران باحثتين عن شيء وتتحركان بعصبية، نظرت نحوه أدعوه أن يتصبر، التقت عيناي بعينيه لأقل من لحظة، عرفني فيها فتوسع بؤبؤاه وتهلل وجهه وهو يتشبث بيدي التي أمسكت بمعصمه، كنت قد تعرفت عليه، لكنني لم أجد وقتًا لأفتش في ذاكرتي عنه، علمت أنني رأيته قبل ذلك، لكنني لم أعرف أين. كان هذا قبل بضع ثوانٍ من سكونه عن كل شيء.

كانت حركته وتشنجاته العصبية، ارتعاشات يمينه الباردة بين يدي قد سكنت هي الأخرى، تركت يده دون قصد وأنا أبحث بقلب ملتاعٍ وعينين مذعورتين عن حجر أتشبث به غير الذي تهشم. وعندما وجدت الحجر وجدت أيضا أنني فقدت الفتى، كان آخر ما شاهدته عيناي من أثر ذاك الفتى جفنين متسعين كشفا عن بؤبؤين زائغين وأنف وفم داميين وعنق منتفخ بالماء، وجلدٍ أزرق، وذراعين وقدمين يحملهم الماء نحو المجهول.. آخر ما رأته عيناي تلك اللحظة كان مراهقًا سمينًا ميتًا.

• • •

عندما أفقت، لم أرَ أمامي غير خيالات مشوهة، ظننت للحظة أنه حلم، تحركت يدي تائهة متثاقلة تبحث عن وجهي، التقت أناملي بصدغي بعد جهد، كان هناك شيء يغطيه، رمال أو تراب، لم أعرف، لكن خدره وسريان الرجفة فيه أربكني. حاولت جاهدًا رفع الجفن المثقل بالألم.. كدت أفشل لكن يدًا أمسكت بكتفي أفاقتني، وأصوات تداخلت داخل أذني لبكاء ونحيب، وصوت آخر كان قريبًا يصيح بي:

–انهض.

كان عقلي حاضرًا يستمع لكل شيء، وجسدي نديًا وأنفاسي الحارة تعكس برودة سرت في عظامي، أقنعت نفسي لثوانٍ أنه الوسن أو ربما الجاثوم. لعنت الشياطين التي تتلاعب بي بهذا الوضع الصعب.. خرجت مني آهٌ ممتدة وصحبها الأنين متتابعًا، سعلت بدون قصد، وعلى غفلة تتابعت طرقات مؤلمة فوق معدتي والصوت الخشن ما زال يردد:

-انهض يا فتى.

لعنت الشياطين مرة أخرى، كان صوتي المختزل يستجديهم ليرحلوا، وبداخلي اضطرابات وهواجس تطلق اللعنات على صانعي هذا العبث، تصرخ فيهم أن يكفوا ويبحثوا عن من هو أفضل حالًا ليلاعبونه ويلعبون به.. تحرك كفي بجهد وذراعي تجذبه لأسفل، تعثرت كفي بكف أخرى، كانت كفًا غليظة، تطرق بقوة فوق معدتي وصدري، والصوت الخشن ما زال يهدر:

-ليس به شيء، إنه يتلاعب بنا.

صاحت نفسي بداخلها: "من منا يتلاعب بالآخر؟!".

كان النحيب والعويل يزيدان، وتتزامن معهما كف تضرب بقدمي بغل، وكف أخرى لمست أناملها باطن قدمي وهي تكف الأخرى عني فتعالى مع النحيب سباب وتوعدات، ازداد صوت البكاء الذي بدا ينتمي لشخص آخر غير الشخص الذي يصدر عنه النحيب، وجفني بدأ يرتعش قبل أن يفتح نصف فتحة، فيعبر ضوء لقنديل أو مصباح مثبت فوق عينيّ، كانت السماء من أعلى قد تلونت بين الأحمر القاني وخيط العتمة الأول الذي يسري في اللوحة السرمدية زاحفًا ببطء، رأيت من بعيد خيالًا لشيء أسود يطير في الهواء، يسبقه شيء أصغر يطير في حركة مذعورة وتسبقهما الأصوات إلى أذني، الصوت الأول لغراب ينعق منتشيًا وكأنه على شفا الانتصار، والثاني لكروان وليد، يستنجد بالتياع، تزامن صوت الغراب مع الصوت الخشن يردد من جديد:

-أسيفيق صديقك، أم أنه سيتصنع أمامنا الموت كثيرًا؟

والصوت الناحب توقف قليلًا ليقول:

-ليته يموت كما أمات ولدي، ليتك تتعذب كما عذبتما ولدي يا ابن الساحرة.

قال الصوت كلمته الأخيرة بغل دفين لم أعلم له سببًا!

•••

أفقت، وليتني لم أفِق، جاهدت لأجلس فوق الحصى والرمال المقابلة للشط، كنت أخيرًا قد استطعت أن أفتح جفني لأرى أمامي، لكن الليل كان قد حل، والجو أصبح عتمة، إلا من مصباح

صغير وبعض أعمدة الإنارة البعيدة. كان الفتى الأسود يقف أمامي وهو يبكي كطفل وقع بمأزق وتاه عن والدته في آن واحد، وامرأة كانت تجلس قريبة مني، أحسست أني رأيتها من قبل لكنني لم أتذكر أين، كانت تلطم خديها وتحمل الحصى والتراب لتنهال به فوق رأسها وملابسها ونحيبها يعلو بين آن وآخر، والفتيات الثلاث جلسن على مقربة مني، والفتى السمين تحمله المرأة الناحبة على حجرها وهي تبكي وتئن وتسخط بحرقة، وأناس كثر من حولي، ميزت من بينهم واحدًا، كان صوته مألوفًا لدى أذني:

-أقسم لك يا سيدي أننا لم نقتله، لقد سقط كلانا ثم نجوت أنا، أما هو فقد جرفه التيار ولم نستطع إخراجه.

-اخرس.

بإشارة من يده، أسكت رجل ضخم الجثة يقف بجانبي مباشرة الفتى الأسود الذي وقف يتوسل إليه.

-أنت يا فتى.

قالها وهو يشير لي، لم أستوعب الأمر بداية إلا حين طرق بيده فوق منكبي بشيء من نفاد الصبر، استدرت له أهز رأسي.

-تكلم، ماذا تعرف، كيف مات هذا الفتى، لماذا قتلته أنت وصديقك؟!

تكلم بدلًا عني صوت رقيق، قائلًا باندفاع:

-لا لا لم يقتله، هذا ليس صحيحًا.

ردت كالبرق المرأة الناحبة لتقول بغل:

-اخرسي يا كاذبة، أهو صديقك؟ أم عشيق لك حتى تدافعين عنه، لماذا تكذبين، هه، لماذا؟

تدخل ضخم الجثة ليفض النزاع بين الفتاة والمرأة، كانت العتمة تمنعني من تذكر ملامح المرأة التي أخذت تكيل لي سبابًا ولعنات باسمي بين حين وآخر، كانت تعرفني وأنا كذلك، لكن ذاكرتي المثقلة بماء النهر ما زالت ترفض التعرف عليها، أمر الرجل رجاله بحملي وبالمثل أمرهم أن يسوقوا

الفتى الآخر معي بعيدًا، ثم أتى رجال آخرون، يتمتمون بأذكار ومعوذات، قاموا بحمل الجسد الميت بجهد نحو عربة الموتى، كانت المرأة تهرول لتتلمس ملابسه وجسده وتبكي بكاءً حارًا وهي تحمل الرمال فوق غطاء شعرها الممزق وملابسها التي أصبحت رثة. كانت الفتاة، التي دافعت عني منذ قليل تتصدر صديقتيها اللتين وقفتا بعيدًا تتابعا الأمر خوفًا بأنفاس متهدجة مسموعة، أشار لهن الرجل بالرحيل على أن يأتوه غدًا بالمغفر ليكمل ـ كما قال ـ التحقيقات ويأخذ الأقوال التي لم يستطع سماعها اليوم، وبالخلف كان يقف الكثير من الناس، يبدو أن وجودهم لم يكن له لزوم لذا فقد صرفهم تابعو هذا الرجل الذي بدا مهمًا، حاولت أن أحملق به، كنت أجزم أنني أعرفه هو الآخر، لكن بدا لي أن ذاكرتي سقطت مني عندما كنت باليم.

قضيت ليلتي محتجزًا في غرفة مظلمة لم يكن بها غيري سوى الفتى الأسود، ظل يبكي حتى خارت قواه تمامًا، وبعد أن هده التعب وأخذ منه مبلغا عظيمًا وبدأ يسكن، كنت أنا قد أفقت من غيبوبة اليقظة التي كانت قد أصابتني، لم أتركه تلك الليلة قبل أن أعرف كل شيء، أخبرني أن اسمه لقمان، وأنه غريب عن الضيعة، لكنه ولد بها ويسكنها مع والديه منذ زمن بعيد، وأخبرني أيضاً أننا متهمان بالاشتراك في قتل الفتى، الذي خرج من الماء بجسد متخشب فاقدًا لكل معاني الحياة، قال أنني كدت أغرق أنا الآخر، لكنني خرجت بالوقت المناسب قبل أن يأتيني عزرائيل ويقبض روحي كما قبضها من صديقه.

قال بوهن:

-احمد ربك، لقد كان عزرائيل قريبًا منك جدًا.

تجاهلت دعابته، كان رأسي ثقيلًا مما لا يسمح لي بالتجاوب مع كل الحديث، الغث منه والسمين، كنت حتى الآن، أشك بأنه حلم أو حتى كابوس، من الذي قُتل؟ ومن الذي قتله؟ ولماذا أنا هنا؟ إذاً هو حلم، الأحلام فقط تضم الأحاديث التي لا تستوعبها الحقيقة.

سألته إن كان هو من أنقذني، فأجاب:

-عندما ذهبت لتنقذه كُنت متعبًا جدًا.. غفوت واسنًا للحظات قبل أن أستمع لجلبة آتية من بعيد فاشرأبت عنقي لأرى ما الأمر، وجدت الكثير من الرجال والأطفال يهرولون

نحونا، تسبقهم ثلاث فتيات يُشِرن نحوي بلهفة، تفقدني الرجال، فأخبرتهم عنك وعن ماجد، لمّا ذهبوا وجدوك متيبسًا تطبق بكفيك على حجر، فحملوك وأخرجوك، أما هو فقد وجدوه عالقاً من ملابسه في حجر بارز عند منحدر النهر، كان ميتاً.

صمتُّ وأنا أسترجع وجهه الشاحب ولونه الأزرق، وآخر نظرة بعينيه لي قبل أن يسكن عن كل شيء.

قال بحرقة وقد عادت تشنجاته تعتريه من جديد:

–أخبرتك أن تتوقف، ماجد لا يستطيع السباحة، كنت ستهلك نفسك على أثره.

رن الاسم في أذني كصاعقة رعد، كقذيفة في حرب، وقع وكأن أذني لن تسمع بعده شيئًا، خفت أن يكون توقعي صحيحًا، استنجدت ودعوت كثيرًا أن يخالف الحقَ ما جال بعقلي وخاطري، صحت بنفسي أن تصمد قليلاً، حاولت أن أستجمع كل شجاعة لدي لتهزم الهواجس والضلالات التي تنخر في عقلي وفؤادي، قلت له:

–من ماجد هذا؟

–صديقي الذي مات.

–المرأة.. التي كانت تبكي وتنتحب، أهي أمه؟

–نعم، أم ماجد، هل تعرفهما؟

كانت كلماته كسهم أطلقه من فمه إلى صدري عبر أذني، لم أعد أحتمل، أحسست بالعرق الذي تفصد على جبيني ينهال سريعًا، وشعرت بثقل صدغي يعود من جديد، حتى الرجفة عادت من جديد، كاد أن يغشى علي من جديد، إلا أن صوته عاد يناجيني بخيبة:

–ماذا سنفعل الآن؟ لقد رمتنا أمه بتهمة قتل ولدها وأننا دبرنا لرميه بالماء ونحن نعلم بأنه لا يجيد السباحة.

لاحت أمام عيني غشاوة سوداء سرعان ما محت كل ما حولها وبجانبها وخلفها، حتى صرت لا أرى إلا ضبابًا في ضباب، واسودَّت الغرفة المعتمة ظلامًا على ظلامها الدامس، حينذاك عاد صوته المنكوب يصيح من جديد:

-لعنك الله يا ماجد، ميتاً كنت أو حيًا . . لا تخلف وراءك إلا المشقة والتعب.

-ماذا تقصد؟

-لو حفظ لسانه لما مات تلك الميتة المهينة، ولما وضعنا بهذا الوضع الحرج.

-كان سيموت هذا اليوم شاء أم أبى، موتةً كريمةً أو وضيعة، كان سيموت، لكن أنت، لم يضعنا أحد في هذا الموقف سواك، أنت من جئت تضربه وتلكمه، وأنا من سأحاسب على خطأ اقترفتماه، هذا ليس عدلاً.

صاح محتجًا:

-نعم ليس عدلاً، يموت هو وأعاقب أنا على خطأ هو من حملني على فعله.

لم أكن بوضع يسمح لي بالاستماع إلى أوجاع الآخرين، فما كان يتملكني من ألم وثقل يسري في أوصالي، وخدر يغلف عقلي، وتخبط أدور في فلكه منذ ساعات طويلة يجعلني أكتفي بما أنا فيه اكتفاءً ذاتيًا، لكن على كل حال، كنت أحتاج أن أفهم ما يدور حولي، بعدما تأكدت أن كل هذا العته والتخريف، للأسف. . لم يكن حلمًا ولا حتى كابوسًا.

-لا تكثر من أحاديثك المبهمة، هات ما عندك دون مواربة.

سرد يومها أشياءً كثيرة، عن عائلته وضيعته وعلاقته بماجد، قال أنه من أعز أصدقائه، لكنه حسبما قال "شاب أرعن" ولسانه لا يكف عن ترديد الحديث الفارغ، لكن أهم ما قال ليلتها كان:

-بالأمس اتفقنا أن يأتيني ماجد للمنزل لنذهب سويًا ونلتقي ببقية الأصدقاء عند البحيرة، وبالفعل أتى وفتحت له الباب أختي الكبرى، وأختي كما تعرف، بالتأكيد مثلي (أشار إلى لون بشرته). أكمل: أتيته سريعًا وذهبت معه حتى التقينا ببقية أصدقائنا عند البحيرة، وهناك، ظل يحدثهم بسخرية عن أخت لقمان السوداء كالفحم وراح يستهزئ بلونها وبشرتها، حاولت كظم غيظي واكتفيت بنهره وسبه ليسكت، لكنه تمادى حين راح يصف تفاصيل جسدها، ومع أنها كانت ترتدي جلبابًا واسعًا فإنه ظل يتحدث ويصف، وهو يظهر نظرة اشتهاء بعينيه ويعتقد أن كل هذا مزاح! لطمته وأنا أصيح فيه أن يخرس،

لم يراعِ صداقتنا ولا نخوتي، واعتقد أنني سأخنث أو أعتبر الأمر كدعابة، ولا أعلم من أين واتته الجرأة لفعل ذلك. وأتبع يسرد بقية ما حدث: هرول لبضعة أمتار بعيدًا عني، والجميع من خلفي يضحكون ويضحك معهم، على شرف أختي، صرخت فيه محذرًا لآخر مرة، صفعته لعله مخمور لكنه بدلًا من الصمت قال:

-أتصفعني؟! أهذا جزائي أنا الذي أحاول التحسين من صورة العبدة أختك؟! حسنًا لا عليك، يبدو أنكم تنوون تأهيلها لمهمتها الأسمى والأفضل في الحياة، خادمة بالتأكيد ككل أهل ضيعتك السود، قوم فقر، أتعلم؟ سمعت أسطورة تقول أن الله نزع النور من وجوهكم وترككم هكذا لفقركم وتكاسلكم، لكن خسارة، كنت أنوي أن أقدم لأختك فرصة لعمل أفضل من خادمة، عمل أفضل يستحقه جسدها الفائر.

ضحك مليًا على أثر كلمته الأخيرة وأضحك الجميع، حتى الذين لا يعرفوننا ضحكوا، أما أنا فلم أتحدث، هرولت نحوه، وجرى أمامي كجرذة علمت أن ساعتها حانت، لكن جسده الثقيل لم يمهد له أن يسرع الخطى، كنا قد وصلنا إلى نحو شبه مهجور من الشاطئ، ولم يكن هناك إلا أنت، لم أشعر بنفسي وأنا أسدد له اللكمات إلا حينما سقط كلانا بالماء، ليأتيني بعد قليل محمولًا بين الأيدي على النحو الذي تستحقه الجثث والأجسام الخاوية من الحياة.

صمتُّ تمامًا وأنا أستمع له يحكي، كان لسان حالي يقول: "وما ذنبي أنا؟ ما دخلي بهذا ولماذا أعاقب عليه؟!". لكنني تنهدت بقلة حيلة:

-أنت رجل يا لقمان، لكنك لا تنتمي لاسمك، رجل لكنك لست حكيمًا.

-عليك أن تضيف، ومهدد بالإعدام، لكن إذا كنت أنا كذلك، ماذا تكون أنت؟

-أنا؟ قليل الحظ، يمكن أن تتخذه كاسم وصفة وكنية ووصمة ستظل ملصقة بي ما حييت.

-حسنًا أيها القليل الحظ، أما أنا فقد خارت قواي تمامًا ولم أعد أستطيع الصراخ لتبرئة نفسي، لكن أنت، لماذا أراك مستسلمًا لهذا الحد؟!

-ليس استسلامًا، ولكنني أخبرتك.. أنا قليل الحظ، ويبدو أنني اقتنعت وسلمت لصفتي البائسة مثلي، يمكنك أن تسميه ملل، أو اعتياد.

قال أخيرًا بشك:

-حسنًا، ولماذا نعتتك أم ماجد بابن الساحرة؟

-هه، لا أعرف، ربما لديها اعتقاد بأمر ما، هذا يخصها.

-يخصها، أتعلم؟ لقد اقتنعت تمامًا الآن أنك قليل الحظ.

ضحك كل منا ضحكات متقطعة متفرقة، لكنها بالتأكيد لم تسهم في التخفيف عنّا حمل الغد الذي بدأ فجره يتسلل عبر قضبان النافذة البعيدة، في أعلى الغرفة بسياجها الخانقة.

• • •

في رحلتنا تلك، قضيت أنا ولقمان ما يقارب الشهر، شهر كامل نامت وصحوت فيه الضيعة على حكايتنا وسيرتنا، انتشر الخبر كما ينتشر الجراد في المراعي اليانعة، وكأن أهل البلدة كانوا في جوع إلى موضوع يتبادلونه ويلوكونه في أفواههم وبين ألسنتهم ثم وجدوا غايتهم أخيرًا. استمر الحبس لكلينا فترة والتحقيقات جارية. ثم بنهاية الشهر، مثلنا بساحة الحكم في منزل الشيخ، وبحضور قاضي الضيعة وشيخها، قامت المحاكمة، وقد أتى الطبيب الذي ألقى الأمر بدفن ماجد بعد التأكد من وفاته وأربعة من أصدقاء ماجد ولقمان، والثلاث فتيات الشاهدات، ورجلان آخران، وأم ماجد، ورفيق، وأمي..

بعباءتها السوداء، وعكازها المتشقق الذي تستند عليه بيمينها وعلى كتف رفيق بيسارها، أتت طبيبتي شُمّيسة..

لم أكن أحتاج لجهد لأعرف كم ذرفت هاتان المقلتان الداميتان دموعًا وعبرات محملة بالكثير من الهموم والوهن، وزاد من شجني وشقائي صوتها المسجون وهي تحاول أن تبث فيّ الأمل الذي لا تشعر هي بوجوده:

-لا تخف يا ولدي، إن شاء الله خيرًا، الله يا ولدي لا يظلم أبدًا، هو وحده.. لا يظلم أبدًا.

قالت كلمتها وأشاحت بعيدًا، كانت نظرتها وهي تلقي على مسامعي كلماتها أقرب إلى الضعف، لكنها جاهدت لتسلي وحشتي، ارتكنت أمي بعد ذلك إلى زاوية بعيدة من ساحة

الحكم، وبجانبها جلس رفيق. . بدا صامتاً وشاحبًا ونحيلًا عن آخر مرة رأيته فيها، لم يتحرك فيه إلا عيناه اللتان حاولتا جاهدتين البقاء معي وطمأنتي، أما أنا فلم أتحدث. . ولم أطمئن.

ثم أتت أم لقمان، وأتى أبوه وأختاه، بكى الجميع فور رؤيتهم له مصفدًا بالأغلال في يديه، وبكى هو على بكائهم، ثم دخلت أم ماجد، حدجتني ولقمان بنظرات متوعدة ببؤبؤين ثابتين كزجاج مشقوق، وكان وجهها الذي اكتسى بلون أصفر، والسواد الذي توشحت به والنحول الذي أمسك بها، والرعشة التي أصابت جفنيها ليتحركا في اللحظة الواحدة عدة مرات، قد أعطوها مظهرًا كهياكل الموتى، كانت تبدو مخيفة.

بقينا حوالي نصف ساعة قبل دخول القاضي والشيخ اللذين أمرا بخروج الجميع عدا الشهود، خرجت أسرة لقمان، وخرجت أمي تستند على منكب رفيق، ثم أخيرًا خرجت أم ماجد، كانت تتلفت حول نفسها كالمسكونة، وكنت أستمع لصوت أسنانها التي تصطك بينما أقف أمام كرسي القاضي، وتقف هي عند الباب.

وخرج الجميع، ألقيت بنظرة إلى الخلف، كانت هناك جماعات كثيرة أمام الساحة في الخارج، البعض أتى للمشاهدة فقط، والبعض من عائلة ماجد وأقارب أمه، أتوا ليهتفوا بالقصاص، والبعض أتى يحمله الفضول لمعرفة مصير الشابين القاتلين.

ثم أمر القاضي بأن يغلق باب الساحة، وبدأت المحاكمة.

-ما اسمك يا فتى؟

-لقمان.

-وأنت؟

-. . . . . .

-يا فتى! أأصم أنت؟! سألتك ما اسمك.

-قليل الحظ.

ضجت الساحة بأصوات الضاحكين هنا وهناك، حتى لقمان الذي كان يبكي ضحك، قبل أن يطرق القاضي ليأمر الجميع بالخرس.

-عندما أسألك، أجب كما تجب الإجابة، أنت هنا لتحاكم في جريمة قتل، لا تجعلني أسقط جم غضبي فوق رأسك لتصبح جريمتين.

-سيدي، اسمي أمامك، لا داعي للسؤال عنه، إن شئت فاسألني عن شيء أهم.

-ولماذا لا تجاوب مباشرة، أهناك ما يمنع؟

-يقولون سيدي أن القضاة والشيوخ، هم الأبناء الأكثر صلاحًا لأبيهم، وأنهم يملكون الحيز الأكبر في قلبه ومن دعائه، ويقول آخرون أن لكم نجمة تضيء في سماء ضيعتكم في ليل المحاق، هذه النجمة تمثل تميزكم بيننا، أليس كذلك؟

ورد مفتخرًا بتعظيمي السخيف:

-نعم صحيح.

-حسنًا، أنت تملك كل هذا سيدي، ألا يتطلب ذلك بعض الرفق، بشاب بريء مهدد بالمثول أمام المقصلة؟!

زفر وقد بدا عليه نفاد صبره، ثم نظر لي مباشرة بتوعد، وقال:

-سنرى إن كنت بريئًا كما تقول، أم أن المقصلة ستكون نهايتك.

بقينا أمامه ما يقارب الساعة، استمع فيها لشهادة الثلاث فتيات اللاتي نطقن بشهادة واحدة، وهي أنهن لقين شابين يتعاركان، وشاب يحاول فض النزاع، وأدت حركاتهما الغاضبة إلى سقوطهما بالماء، وأن آخر ما رأينه هو نزولي بالماء لإنقاذهما، والشاب السمين (يقصدن ماجدًا) يجرفه التيار بعيدًا، وأنهن هرعن بعد ذلك يطلبن المساعدة.

ثم أتت شهادة أصدقاء لقمان وماجد، وقف الأول ليقول أن ماجدًا تحدث بأقبح الحديث في حق عِرض أخت لقمان، وأن ماجدًا هو من استفز لقمان ليبدأ بضربه، والثاني والثالث أجابا بنفس الحديث غير أن الثالث أضاف: كان مزاحًا ثقيلًا من ماجد، ولم يتحمله لقمان. أما الرابع فقد أجاب بالنفي عن هذا كله وقال أن ماجدًا لم يصف أخت لقمان بشيء غير سواد بشرتها، وحينما سأل القاضي الأصدقاء الثلاثة الآخرين عن رأيهم في شهادة صديقهم، أجابوا إجابة واحدة بصوت واحد: "إنه ابن خالة ماجد".

استمع القاضي أيضًا لشهادة الرجلين اللذين كانا أول من أتى على أثر صراخ الفتيات وهما من أخرجاني وماجدًا من الماء.

-عندما أتينا كان الشاب الأسود قد خرج من الماء، وينام قرابة الشط، لكنه أشار من بعيد لنا دون حديث، هرعنا نحو إشارته، وعندما ذهبنا وجدنا هذا الشاب متيبسًا وهو يطبق بيديه على حجر وفي شبه إغماءة (وأشارا نحوي).. وأما الآخر فقد كان معلقًا عند منحدر الشلال من ملابسه على حجر بارز، أخرجنا كليهما، ووجدنا صعوبة في إخراج الآخر لأن جسده كان ثقيلًا بالماء فوق ثقله وحده، وعندما أخرجناهما كان الأول ما زال حيًا والثاني كان صدره ممتلئًا بالماء وقد بدا أنه قد اختنق فمات.

أنهى القاضي سماع شهادة الرجلين ثم اتجه إلى الطبيب ولم يسأله سوى سؤال واحد:

-الضربات التي تلقاها الفتى، قبل سقوطه بالماء، هل كان لها سبب في موته؟

فأجاب الآخر من فوره:

-بالطبع لا سيدي، لقد كانت كل اللكمات في وجهه، كإن أنفه مكسورًا وتنتشر الكثير من الكدمات حول عينيه وفمه، لكن الفتى قد جاءنا ميتًا من أثر الماء الذي أغرق صدره حتى عبأ رئتيه.

خرج القاضي مع مستشاريه لدقائق، ونحن ما زلنا بأصفادنا نقف أمام كرسيه، مرت لحظات صمت قبل أن يأمر بفتح الباب، ليستمع الجميع إلى الحكم، ثم جلس فوق كرسيه، وحكم قائلًا:

-بسم الله، نحكم بعدله وقسطه، حكمنا ببراءة المتهم الأول، والحكم على المتهم الثاني، بشهر واحد بتهمة التسبب في عاهة مستديمة للمجني عليه، وبراءة كليهما من تهمة القتل.

وضجت الساحة بالصياح، فور نطقه بالحكم أقبل الحراس يفكون أصفادي ويأخذون لقمان، كان يبتسم ويضحك وهو يودعني، وكانت ابتساماته وفرحته وزغاريد أمي المميزة بالخارج، وهتاف رفيق باسمي، كله يدفعني إلى الابتسام.

خرجت من الساحة لأجد أمي تقبل نحوي سعيًا كطفلة العشرة أعوام، احتضنتني مليًا ودموعها تسيل فوق كتفي، ورفيق يربت على صدري بحنو، هممت بالرحيل معهما، قبل أن يأتيني صوت كفحيح الأفاعي:

—يا ابن الساحرة، هل سحرت أمك القاضي ليبرئك من دم ولدي؟

كانت تقف عن يميني ويفصلني عنها عدة أمتار، قالت كلمتها ولم تنتظر جوابًا من أحد قبلٍ أن تلقي بالحجر الذي كانت تخفيه بين يديها مباشرة نحو رأسي، آخر ما رأيته ذاك اليوم كان لونا أحمر قانيًا يزحف على رموشي ويخضبها، وآخر ما سمعته صوتها يجلجل فرحًا، كان يشبه ذلك الصوت الذي سمعته يومها، للغراب المنتشي بفرحة الصيد الصغير.

• • •

طوال حياتي الماضية، كنت أدور في فلك صراع لا يهدأ، بيني وبيني، صراع تتناوب فيه الهواجس والضلالات على إزعاجي وتكدير صفوي إن صفوت، وبين حنايا ذاتي حاولت جاهدًا البحث عن معنى لوجودي.. سألت نفسي مرارًا، لكن الإجابة كانت شبحًا يقلقني ويفزع روحي دائمًا، أأكون ولد زنا؟!

هل التخبط الذي أعيشه سببه أصلي المجهول؟ كانت إجابات أمي شُميّسة حول الأب الذي تنتهي عنده كل الأنساب إجابة لا ترضيني، فأنا أعلم أن انتمائي له كان لمجرد شكلي الذي لا يختلف عن أغلب أهل البلدة، ولهجتي المكتسبة منهم ساعدتني في الغوص بينهم حتى صاروا يلقبوني بألقابهم، كنت أريد أن أعرف وأرى والدًا حقيقيًا وأمًا حقيقية هما سببي وجودي، أتراها أمي التي ولدتني علمت مصيبتي، علمت أن الجميع سيحسبوني مجذوبًا، وينبذوني لمجردٍ أن آرائي تختلف عن آرائهم، أتراها أمي قد ماتت يوم مخاضها وتركتني وحدي، أتراها حقًا ساحرة؟! تلك الحقيقية كانت مشعوذةً تتنبأ بأمور الغد فعلمت أنني فتى سيورثها الكثير من المتاعب، فأوكلت إلى والدي مهمة الإلقاء بي في ذلك الزقاق الذي وجدتني فيه أمي شُميّسة؟ أم ترى الأرض هي من أنجبتني من عضدها وتربتها؟ أتراني أكبر مع هذا الحي عامًا بعد عام؟ أم أنني لست أكثر من صعلوك ولد حرام، الجميع له قيمة عنه بينما سلة المهملات مثواه الأخير؟

تلك كانت هواجسي التي نسجت كوابيسًا رافقتني طوال فترة غيابي، كنت أفيق كل حين، أتحسس آثار الندبة التي ربطت عليها أمي رباطًا جيدًا على جبيني، أفيق بين فينة وأخرى لأجد

من يجلس بجانبي إما يطببني أو يطالع فيٍ، أو يتحدث بكلام لا أستطيع سماعه أو حتى قراءته، أفقت مرة لأجد أمي وأخرى لأجد رفيقا، وثالثة لأجد لبيبة!

اقتنعت أنها الأحلام وأضغاثها تراودني من جديد، لكنها تلك المرة كانت هواجسًا ذات معنى، هواجسًا محببة لدى قلبي تسليه في وحدته الموحشة.

بعد فترة لا أتذكرها أفقت وتعافيت، كان رفيق دائم الزيارة لي، يحدثني ليسلي فراغي، كانت فرحة عارمة تلك التي فاضت بها أعينهم يوم تحدثت معهم وأخبرتهم أنني صرت واعيًا لما حولي، تهلل وجه أمي وأنار كبدر شاب، وضحك رفيق كما لم أره يضحك من قبل، وزاد حديثه الذي كان منقطعًا، زاد حد الثرثرة.

كان يأتيني كثيرًا يحاول الحديث عن أي شيء، ولا أدري إن كان يحاول تسليتي أم يحاول تسلية نفسه، لكنني كنت سعيدًا بوجوده على كل حال، ذات مرة، أخبرته بدهشة:

-تخيل، حلمت بلبيبة عندما كنت بغيبوبتي!

أخذته رجفة وارتبك قبل أن يحاول التماسك ليقول:

-كيف حلمت بها؟

-رأيتها تجلس هنا بجانبي على السرير وأنا نائم، كانت تبتسم.

-لم يكن حلمًا.

-ماذا؟!

أخبرني رفيق أن لُبيّبة أتت حقاً عندما كنت مريضاً، وجلست بجانبي، لكن زيارتها لم تطُل ولم تتكرر، قال أن والدتها جاءت متعجلة، وجلست مع والدتي بالخارج ما يقارب العشر دقائق، بينما أتت لُبيّبة هنا وألقت نظرة عليّ، ثم بعد قليل نادتها أمها ورحلت.

-لقد حدثتك.

-حدثتني؟! لا أذكر ما قالت.

-خسارة، لقد قالت الكثير.

-أتعرف ماذا قالت؟

-لا، ولكني استمعت لهمهمة بينما كنت أجلس بالخارج.

ثم قال بصوت خافِت:

-حسب تعليمات والدتك.

صمت قليلًا ثم أتبع:

-على كل حال، أنا أشكرك.

-على ماذا؟

أطرق وهو يقول بخجل:

-جعلتني أراها.

• • •

مرت عدة أيام، كنت قد تماثلت للشفاء، وزال عني التعب إلا أثر لدوار خفيف يأتي ويروح وحده، وبعدها بعدة أيام أتى ذاك اليوم النيساني الأثير، كان يمثل لي عيدًا ومأتمًا في آن واحد، كان ذاك اليوم يوم تحرري من قيود الضيعة وقوانينها الخرقاء، ومن أسري في حدود هذا الحي.

كان يومًا مشمسًا مزدهرًا، أشرقت فيه الشمس سريعًا عن ما سبقه من الأيام، وكنت لا أبارح غرفتي منذ عدة أيام، ولم أكن أعلم ما الذي حدث طوال فترة غيبوبتي بين أمي وأم ماجد ولم تكن عيني قد وقعت عليها منذ آخر مرة.

صحوت باكرًا عن كل يوم، قبل أن يبدأ الخيط الأصفر ضمَ حدود البلدة لنفوذه، ولبرهة، واتتني رغبة عارمة في رؤية أم ماجد، لا أعلم كيف ولماذا، فقط أحسست برغبة في رؤيتها، عندما تذكرتها ارتفعت أناملي تلقائيًا إلى الندبة البارزة، وأخذت أقلب رأسي وقد شعرت بالدوار يعود من جديد، قمت من فراشي متجهًا إلى الشرفة، حملقت مليًا في منزلها الذي بدا ضئيلًا من شرفتي، كان حزينًا.. والشمس تفرش نورها فوق كل السطوح والجدران إلا سطحه

وجدرانه، بدا وكأن المنزل قد انحنى بعد موت الفتى. ولم أعرف، لِمَ بدا بيت القصيد باهتًا وحزينًا هو الآخر، تساءلت في دهشة، أكان ماجد عزيزًا إلى هذا الحد؟!

أم أنها هلاوسي كالعادة؟!

بعد مدة، خرجت أم ماجد، كان زيها الأسود قد بدا رثًا قديمًا، لم أرَ وجهها، كانت تدور حول منزلها مولية ظهرها لي بحركة عشوائية بلا قصد، دخلتْ منزلها للحظة وخرجت بدلو من الماء أخذت تلقي منه وهي تدور حول المنزل، وفمها يتمتم بحديث لا يفهم. لمّا استدارت، رأيت وجهها، كان قد صار نحيلًا حتى إن عظام فكيها صارت ناتئة تكاد تخرج من جلدها، وفور أن وقعت عيناها في عينيّ، فزعت وتبرقطت وكأنها رأت شيطانًا في هيكل إنسي، كنت أسمع تهدج أنفاسها بينما يفصلني عنها مسافة كبيرة، وصدرها يعلو ويهبط في حالة من الهياج، وكأن شهيقها وزفيرها يتعاركان بالداخل. ظلت تزحف إلى الوراء وعيناها معلقتان بي، حتى ارتطم ظهرها بجدار المنزل، وجدته، أمسكت به وكأنها تستنجد، ظلت محاذية له وعيناها داخل عينيّ، حتى وصلت إلى باب منزلها، أشاحت عني لثوانٍ تنظر له وكأنه خلاص لمأزقها، ثم دخلت البيت هاربة من عزازيل الذي كان يلاحقها بنظراته. من داخل المنزل، أتاني صوتها كالعادة، ضحكت ضحكة منتشية بشيء ما، ثم تبعتها صرخة محترقة، وعاد النحيب من جديد!

• • •

مرت عدة ساعات قبل أن يأتي رفيق، جلس معي قرابة ساعة، كنت ساهمًا وصوته بالكاد يصلني، وصورة أم ماجد تأتي وتروح بي، كانت رؤيتي لها بأول النهار قد كدرت صفوي لبعض الوقت، لكنها حيرتني، كنت أجلس قرابة نافذتي، بينما رفيق يتحدث بالخلف، وصورتها وصوت الضحكة المقطوعة تحتل خيالي، وصورتها القديمة أيضًا، تحتل خيالي.

قبل شهر وعدة أيام، كانت كالكثير من النساء، نمامة ثرثارة ضاحكة على ما يلزم وما لا يلزم، صوتها يصلني بحديثها الذي لا ينتهي، تجلس أحيانًا أمام عتبة دارها وهي تمشط شعرها الكستنائي الطويل وتجدله ضفيرتين كطفلة، بذراعين شبه عاريتين كشفتا عن خمرية ساحرة، بيتها لم يخلُ يومًا من جلسات النساء والأحاديث الطويلة، والرجال طالبي يدها كانوا كثر برغم كونها عجوزًا بدأ الشعر الأبيض في غزو فروتها رغم الحناء التي تغمره بها دائمًا، لكن تصابيها وضحكاتها التي لا تنتهي جعل منها امرأة مثيرة يشتهيها ويطلبها من طلب من رجال الحي الذين تعدوا الأربعين.

كان ماجد صغيرها المدلل، بعد وفاة والده وأخته إثر حادث ثأر وقع الرجل والطفلة ضحيتين له عن طريق الخطأ. منذ أن كان في الرابعة وهي تعامله كما تعامل أرملة ابنها الوحيد، دللته كثيرًا ولم تكن تعاقبه أبدًا إذا ما فعل أي شيء، حتى إذا سبها تضحك ولا تعقب، اليوم صرت أراها جسدًا يتحرك يفتقر إلى الحياة، تتلفت وراءها في كل خطوة كالمجاذيب، تبكي أغلب الوقت بلا سبب، وإذا ما ضحكت تضحك ضحكات بلا معنى، كأن جسدها صار مسكونًا بالشياطين!

فكرت قليلًا في حالها، لو لم تدلل ماجدًا لما قال ما قاله للقمان، ولما اضطرا إلى الذهاب لطرف البحيرة ليموت أحدهما غريقًا، إذًا فالعيب فيها؟! ولكن لها أهلًا، ربما دللوها هي أيضًا، إذًا فالعيب فيهم؟!

عندما فكرت في ذلك، لا أدري لماذا تجمعت في ذاكرتي صور حسبتها متضادة، لكنها كانت متشابهة جدًا.

ماجد وأمه، الفتى الذي قال أننا لا نصلح أصدقاء لمجرد اختلافنا ببعض الآراء، الرجل الذي توعد بضربي حينما طرقت باب بيت القصيد، الصبية المشاكسون الذين تجمعوا حول

الفتى الأشقر عندما كنت بصفي الأول، كل من استنكر صداقتي بلبيبة، القاضي الذي أدان الفتية الأربعة وأخرج رفيقاً مع ثلاثة آخرين لمجرد أن هؤلاء من بلدتنا وهؤلاء لا ينتمون لها . ألا يوجد شبه بينهم جميعًا ؟ !

سألت نفسي، وبقيت أبحث عن إجابة لم أتكبد عناءً حتى أجدها . . جميعهم ينتمون لأصل واحد، الأب والأرض تشترك بين جميعهم. وبما أن الأرض هي من تنتمي إلى الأب إذاً فالعيب فيه، الشخص الذي يتباهى الجميع به في هذه الأرض، الشخص الذي يتباهى الجميع بنسبهم له، وبأنهم أبناء من دمه، هو ذاته الشخص الذي غرز صفاته بين الكثير منهم ممن يتباهون به، الكذب والاستخوان والكثير من الكره لأي شخص ينتمي لضيعة أخرى بينما النقيض تمامًا مع القادم من حي آخر، يمجدون هذا ويحترمونه ويرون الخير في من لا يتحدث بلسانهم بينما يكرهون هؤلاء ويحقدون عليهم، ذلك هو إذاً، الآن قد فهمت.

قلتها يومها وفي خيالي ترتقي صورة تجسدها أفكاري، صورة، لاثنين وعشرين أخًا، يقفون متراصين جنبًا إلى جنب في ضوء ساطع وأرض بيضاء ناصعة، واحد وعشرون منهم يعمهم النور، واحد أخير يقف منزويًا بآخر الصف، والنور منقطع قبل أن يصله، وجدت نفسي دون تفكير أشير نحوه، هذا هو!

الذي أنجب هؤلاء القوم يجب أن يكون ظالمًا مظلمًا، يجب أن يكون هذا الرجل.

يومها، لم أجد حرجًا في أن أكنيه بـ"ظالم ومظلم" . . رُغم أنه أبي، على الأقل أنا لم أرث صفاته، لم أكره يومًا دون سبب، لم أشعر أنني الأفضل وسائر الناس أقل وأحط شأنًا من معرفتي، لم أسخر يومًا من شخص لا يشابهني أو طريقته في الحديث تختلف عن طريقتي، لم أعش في جو المؤامرة، أو أدَّعي الفضل عنهم بتبريرات واهية. وفجأة وجدت نفسي دون إرادة مني أكرهه، نسبت له كل ضيق في حياتي، وحدتي، حتى أصلي المجهول الذي أتخبط بين حناياه حتى يومي

هذا، وجدت نفسي أحقد عليه لمجرد الحقد وكأن صفاته الكامنة فيّ قد أظهرت الحقد لأحقد عليه هو، بفعل منطق: "انقلب السحر على الساحر"!

كان رفيق ما زال يتحدث، وأنا في دوامة أخرى، بعيدًا عنه وعن المنزل وعن الضيعة، متحررًا من كل شيء، ومن أي قيد عشت فيه لمدة خمسة عشر عامًا ماضية.

وجدت نفسي بلا تفكير أقوم وأبدل ملابسي وسط حيرة تعتلي ملامح رفيق، سألني ماذا أفعل، ولم يصل لأذني سؤاله حتى أجاوبه، بدلت السروال والقميص، ثم أسرعت نحو المرآة، تفرست في ملامحي دقيقة قبل أن أنزع الرباط الذي يعلو الندبة في أعلى جبيني.

-ماذا تفعل؟! إنك لم تتماثل للشفاء بعد!

-اهتم لأمرك، أنا ذاهب، ابقَ مع أمي حتى أعود.

-أين ستذهب يا مجنون؟!

من خلفي، تركت رفيقًا لأسئلته وأمي لندائها ومضيت في طريقي كقطار لا يعرف للوقوف معنى.

• • •

من عند مقهى عم ياسين بدأت رحلتي، مشيت بداية منه بمحاذاة بيت القصيد، وأنا أتحاشى النظر إليه حتى تخطيت المقهى والبيت وسرت نحو أول ضيعة تجاور ضيعتنا من تلك الجهة، طاف في مخيلتي سؤال، لمن تكون تلك الضيعة ممن أعرف؟!

فوجدت إجابتي سريعًا، إنها ضيعة الفتى الأشقر الذي لاقيته بصفي الأول.

مضيت، كلتا اليدان بالجيبين، وعيناي زائغتان على كل شيء مما يحوطني، ورئتي تعبئ ذاتها

بهواء خالص نقي من الكراهية التي تشعل بلدتي، وابتسامة عريضة لم أستطع أن أخفيها تصل وجنتي ببعضهما البعض، كانت حواسي طامعة في التشرب بكل شيء هنا، أطفال يلهون هنا وهناك، وأغاني شرقية خلابة، ملابس زاهية، وشعور صفراء في أغلبها أرجوانية في بعضها وسوداء في أقلها، جلود بيضاء ناصعة، ووجوه تكسوها حمرة فاتنة، وشوارب عريضة صفراء وبنية، وجمال ونقاء يطفوا فوق الوجوه تميزهما عيناي. كانت أول مرة أخرج فيها عن حدود ضيعتي، ولم يكن كل ما رأيته هناك يفوق ما عندي جمالاً وبهاءً، ولكنني كنت أعيش حالة من التخبط والثورة، على كل شيء عشت فيه لأعوام طويلة، كنت في هذا الوقت "ثائرًا" بحق لأول مرة في حياتي.

"حد الأناطر، محبوبي ناطر، كسر الخواطر يا ولفي ما هان عليا . ."

كانت تلك أغنية تصدح من مذياع مقهى شعبي وقد جلس الكثيرون يستمعون فرحًا بالصوت الساحر الذي يلقي الكلمات. ارتكنت قليلاً بجانب المقهى واستندت بكتفي على جدار قريب له، بقيت أدندن الألحان وأردد الكلمات بنشوة واستمتاع لم أجربه في حياتي إلا ذلك اليوم فقط حتى انتهت الأغنية، وجاءت نشرة إخبارية قصيرة مفادها أن شيخ ضيعتنا وشيخ ضيعتهم سيتعاونان معًا للقيام ببعض المشروعات الزراعية التكافلية بين الضيعتين، بحيث يصدرون إلى بلدتنا ما هو متوفر بغزارة عندهم ونصدر لهم ما هو متوفر بغزارة عندنا.

كان خبرًا عاديًا بالنسبة لي، استمعت له واستدرت أكمل شق طريقي، لكن ما أوقفني كان صياح أحد الجالسين مستنكرًا غاضبًا وهو يهدر بضيق:

–يا إلهي، ألم يجدوا غير هؤلاء القوم ليشركونا معهم في عمل؟ إنهم لا يجلبون إلا المشقة والمتاعب، والشؤم والنحس أينما حلوا!

قال كلمته، وتبعها صياح الكثيرين من حوله مصدقين على حديثه، أما أنا، فبدون مقدمات وجدت قلبي ينقبض سريعًا ويسقط في هوّة سحيقة داخل عمقي، تهدجت أنفاسي من جديد، وابتسامتي العريضة فنت واهتدّت، وقدمي التي أبطأت لتتيح الفرصة لعيني لتستمتع بما يحوطها، أسرعت من جديد، كما كانت تسرع من قبل لتخرج عن بلدتي، وبقيت أحث الخطى، والزحام الخانق بعقلي ودماغي يعود من جديد، وكلمة واحدة بقى لساني لا ينفك عنها:

–لا تصدق، بالتأكيد ليس الجميع كذلك، بالتأكيد.

تحركت مسرعًا خلف كلماتي بلا هوادة ولا تفكير، لم أدرك ما حولي إلا حينما رأيت نفسي أقف في المنطقة شبه الخالية بين البلدتين، أسرعت نحو التي تليها، كانت تشبه سابقتها في أغلب الأشياء، جميلة وزاهية وتعج بالحياة، كان أغلب الأهالي فيها بعيون سمراء أو عسلية، وجلود أغلبها خمرية، وأطفالهم أشقياء بعيون مشاغبة وجميلة، سرت فيها عدة ساعات، أحسست فيها أن أملي يعود من جديد، وقد قضيت فيها وقتًا أطول انكسرت فيه الشمس واستعدت للرحيل، كدت أرحل بفكرتي عنها قبل أن أصدم في طريق رحيلي بشجار عنيف يجتمع الكثيرون حوله، كان الشجار أمام أحد محال الأطعمة الشعبية، وبدا كأن هناك رجلًا في الوسط يتلقى الكثير من اللكمات وآخرين من جماعة الآخر يكسرون الزجاج ويدمرون الأطعمة بينما يلقون الكثير من السباب واللعنات، وبعد مدة؛ وبعد أن قلبوا كل شيء ودمروه، وارتمى جسد الرجل فوق الأرض طريحًا يتأوه، قال سيدهم وهم يبتعدون عن المكان:

-هذا كل شيء، وهكذا نعاقب من يعتقد نفسه ذكيًا، خسئت، أكنت تحسب أنك ستأتي إلى ضيعتنا وتجني بأطعمتك الملعونة الذي لم نحصل عليه نحن في بلادنا ؟! على كل حال، كان هذا مجرد إنذار بسيط.

قال ما قاله بنبرة حاقدة تبعها الكثير من السباب.

ورحلوا، وانفض الناس، وتركوا الرجل طريحًا، وقلبي ممزعًا.

• • •

بالفجر، فتحت أمي الباب لتجد فتاها أمام عينيها، بعينين مخذولتين وقلب مدمر، وأفق محطم وقدمين متعبتين من أثر الرحلة الطويلة، رجع كمن أتى بخفي حنين، رجع خائبًا وقد عاد أسيرًا في سياج الحي الملعون بأكمله. يومها اعتقدت وأدركت أن الصورة بأكملها كانت مظلمة فوق رؤوس الاثنين والعشرين أخًا، وأن ضيعتنا ليست أسوأ ما في هذا الحي.

• • •

الهدوء الذي يسبق العاصفة

(أشياء فوق عقلك الصغير)

تشرين، ظهرًا (العام الذي يليه)

-اسمع يا ولدي، ستذهب أولاً لخالك مينا، ستجده ببهو المنزل، أنت تعرف طريق البيت بالتأكيد، أليس كذلك؟

حركت رأسي متململاً:

-نعم أمي، نعم.

-حسنًا، ثم سترتقي السلم الخشبي إلى الطابق الثاني، ستجد عمك بولس إما نائمًا أو يتلو الصلوات، إن كان يقرأ لا تقطع صلاته، وإن كان نائمًا اطرق بابه برفق، وسوف يصحو ويعطيك ما طلبت، لا تنسَ أن تبلغهم السلام مني، قل: "شُمَيّسة تلقى التحية على حفيدي عيسى الأولين، مينا وبولس".

-حسنًا يا أمي حسنًا، هكذا فقط؟

-لا لا يا ولدي، ما زال هناك أشياء أخرى، بعد أن تخرج من منزلهم، أغلق الباب برفق، ثم اتجه نحو منزل خالتك زهرة، ستجد والدتها رحيلاً في غرفتها التي تطل على الشمس مباشرة في الطابق الأول من الجهة الشرقية للمنزل، استأذن عمتك زهرة، ثم اصعد لجدتك رحيل، واطلب منها ما قلت لك.

-هكذا فقط أليس كذلك؟

-ليس بعد، هناك رافدة أيضاً و...

صحت منفعلاً:

-لا يا أمي رافدة لا، أرجوكِ، سأذهب للجميع إلا رافدة!

-لماذا يا ولدي، لماذا الجميع إلا رافدة؟!

-أرجوكِ يا أمي، ستطلب مني المكوث بجانبها عدة ساعات ولن تعطيني ما طلبتِ قبل أن تحكي لي من قصة آدم وحواء حتى لحظتنا هذه.

-وماذا في ذلك يا بني؟ إنها وحيدة كما تعرف، وليس لديها من يطرق بابها ويؤنس وحدتها غيري، وأنا صرت كبيرة وعجوزاً ولا أستطيع الخروج عن عتبة داري؛ لذا فهي تحدث فيك رائحتي، إنها تحبك يا بني.

-ومن قال أنني أكرهها؟ إنها فقط تعرقل يومي، يضيع اليوم وأنا أستمع لقصة التفاحة وآدم الذي طرد من الجنة وطاووس الملائكة الذي تحول إلى شيطان مريد للمرة السابعة عشرة، بسرد بطيء ووافٍ في كل مرة كأنها أول مرة.

-لا بأسٍ، اذهب لها واستمع لكل ما تقول حتى تجد من يسمعك عندما تشيخ وتصير عجوزا مثلي ومثلها، ولا تخرج من عندها إلا و. . .

-إلا عندما تجهد وتنام من كثرة الحديث، أليس كذلك؟

أجابت مبتسمة:

-بالضبط.

وأجبت ضاحكاً:

-لأجل عيون شُميّسة لا سواها.

هممت بالذهاب نحو الباب لأجلب طلبات أمي التي تحتاجها كل أسبوع لأجل عملها، كانت مهمة أمي كطبيبة شعبية يأتيها الناس من أقاصي الضيعة والحي كله بل ومن الأحياء المجاورة، تكلفني الكثير من الحركة والمشقة كي أحضر لها الأعشاب التي تزرعها لدى أصدقائها القدامى بنوعيات مختلفة حسب نوع التربة في حديقة منزل كل منهم أو التربة التي تلف منزله، وكنت أنا المكلف بقص الناضج من هذه الأعشاب أو الذهاب لأخذ البذور التي زرعت، لأجل عمل أمي كطبيبة. صاحت في قبل أن أغلق الباب:

-لا تنسَ خالتك شرقية وجدك عبد الواحد، اذهب لهم جميعًا قبل أن تذهب لرافدة.

-حسنًا يا أمي، بالتأكيد.

• • •

خرجت من المنزل، كان الجو ظهرًا والسماء مشمسة على عكس ما اعتدنا في تشرين، سرت في طريقي وأنا أصفّر وألج بين الطرقات، الضيعة ذلك اليوم تحديدًا كانت تعج بالحياة، وصهيل الفرس الذي اقتناه أحد الجيران يجعل الشارع كما لو كان ساحة حرب، خصوصًا مع وجود ذلك الحداد الذي يقطن بجانبه، وتخرج أصوات الحديد وصهد النيران من محله تجذب الأطفال للمثول أمامه، يتابعون بشغف الشظايا المتناثرة هنا وهناك، ويتضاحكون ويتفرقون سريعًا إذا ما أتت إحدى تلك الشظايا نحوهم، ثم يتجمعون مجددًا أمامه يتابعون بنفس الشغف ما كانوا يتابعونه.

-صباح الخير يا عم رزق، قل لِحصانك أن يهدأ قليلًا، إنني لا أستطيع النوم من صوته، ألا تطعمه؟!

قلتها مازحًا، فتضاحك، وقال:

-بلى وربي إنني أطعمه حتى تنتفخ وتمتلئ معدته وتفيض، حتى إنني أخشى عليه أن يصبح كزوجتي المترهلة بالداخل.

خفض صوته بالجملة الأخيرة، فعلا صوتي بالضحك:

-احذر من لسانك يا سيدي، إن النساء لهن آذان قوية، ولهن آذان داخل قلوبهن، مما يعني أنها ستسمعك أي ستسمعك حتى لو أخذت تخفض صوتك إلى أن يتلاشى.

-أترى ذلك؟

-بالتأكيد.

-إذاً فإن امرأتي أجمل نساء هذا العالم.

كان صوته عاليًا نوعًا ما، علا صوتي بالضحك بينما أقول له:

-ليس لهذا الحد، هكذا سيستمع لك الجميع فيطمعون فيها.

خفض صوته مرة أخرى وقال:

-إن رأوا مقاس الأحذية التي ترتديها أو رأوا القدم ذاتها التي تنتعل الحذاء، فسيعكفون عن طمعهم تمامًا.

ضحك وضحكت معه، ومضيت وأنا ما زلت أضحك، إلا أنني خفضت صوتي وبقيت هادئًا وأنا أمر بجانب منزلها، كانت بالداخل فحمدت الله أنها لن تراني، وحبست أنفاسي تمامًا، حتى لا تخرج ككل مرة، وتبكي، وتبكيني معها .

• • •

كان المنزل الأول في القائمة ليس ببعيد، وطريقه أسهل عليّ من طريق منزلنا، منزل الأخوين بولس ومينا أبناء السيد كيرلس الذي كان قسيسًا لكنيسة الضيعة، واللذين اختارا منذ أن بلغا وبدأت رجولتهما تظهر على جسميهما، طريق الرهبنة والتعبد، فسكنا منزل والدهما ولم يتزوج أيٌ منهما، لكنهما لم ينسيا أبدًا أصدقاء طفولتهما وكانت أمي إحدى أهم تلك الصداقات لهما وللكثيرين من شيوخ وعجائز الحي.

وصلت المنزل سريعًا، كانت علامات التهالك واضحة جدًا على المبنى من الخارج، وما إن وقعت عيناي عليه حتى تذكرت أمي وحديثها عن التوأمين، وتلقيبها لمينا بـ"خالي"، أما بولس فتقول عنه "عمي"، وحينما أسألها عن سبب ذلك، تقول:

-لا يمكنني أن أعتبر بولس خالًا لك.

-ولماذا ؟

فتطرق في خَفَر وهي تقول:

-لأنه كان يحبني عندما كنا في مثل عمرك، ولكن للكثير من الاعتبارات التي تعرفها أنت بالتأكيد، كان ذلك مستحيلًا، فاختار هو طريق الرهبنة كأخيه مينا بعدما كان يرفضه، وبقيت أنا عذراء حتى وجدتك وصرت أمًا .

غمزت لها ضاحكًا وقلت:

-إذًا أنتِ حتى الآن لا ترينه يصلح أخًا لك.

فتضرب كتفي برقة وهي تقول باسمة:

-اصمت يا شقي.

• • •

وقفت أمام البيت، كان من طابقين وقبو وغرفة فوق السطح، القبو يسكنه مينا والسطح يسكنه بولس، وما دون ذلك فارغ، ولا يلتقي كل منهما بالآخر يومًا كاملًا إلا في أيام الآحاد أو عندما يمرض أيٌّ منهما فيخرج الآخر من صومعته ليطبب أخاه ويبقى معه حتى يتعافى ثم يرجع بعد أن يتعافى، حتى أوقات الطعام تقضى أغلبها على الخبز الجاف والحليب أو الملح، فالخبز يصنعه بولس ويتركه ليجف فوق السطح، والملح واللبن يشتريهما مينا بصفة شبه أسبوعية.

دخلت المنزل كما اعتدت دائمًا من بوابته الكبيرة ثم نزولًا إلى القبو، طرقت باب الغرفة ثلاث طرقات هادئات:

-سيدي مينا، سيدي هل ما زلت نائمًا؟

أتاني صوته العجوز من بعيد وهو يقول:

-انتظر يا ولدي قليلًا.

بعد بضع دقائق فتح الباب لي، كان يستند فوق عكازه وقد بدت في عينيه آثار نعاس بالكاد ظهرت من بين رموشه الثلجية وعينيه المتعرجتين.

-أنت ولد شُميّسة، أليس كذلك؟

-نعم يا أبتِ.

-إذًا فادخل يا بني.

دخل غرفته وصحبته أنا، كانت ككل مرة، قديمة إلا أنها في غاية التنظيم، تفوح منها رائحة عطرية على الأغلب هي ريحان، كان مينا أكثر حركة من بولس؛ لذلك فقد اختار لنفسه القبو حتى يسهل عليه ذلك الخروج والدخول دون المشقة التي يتسبب فيها صعود السلم ونزوله؛ لذلك فقد كان يزرع بعض الخضروات والريحان وبعض الأعشاب لأمي - التي حسبما تقول هي: "تنبت أقوى في أرض حديقته" - كالبابونج والزنجبيل وأعواد القرفة.

جلس على طرف سريره وأنا قرابة الباب، كان يتفرس في بعين بالكاد تراني، وهو يضيق على عينيه ويحملق في، لم أسأله لِمَ يفعل ذلك، ولكنني سألته:

-سيدي هل العشب جاهز؟

فأجابني بسؤال لا علاقة له بسؤالي:

-أنت كبرت حقاً عن الشهر الماضي، لم أتصور أن شهرًا واحدًا كفيل بفعل هذا بك، هل بلغت بتلك السرعة؟!

قال ذلك وهو يشير نحو لحيتي التي بالكاد قد نمت، تحسستها تلقائيًا وأنا أبتسم. قلت:

-لا يا سيدي، الشهر الماضي عندما أتيتك كنت قد حلقتها لتوي، أما الآن فقد مضى على حلاقتي لها عدة أيام فقط.

ثم أضفت ضاحكاً وقد شعرت بالخجل حقاً:

-لقد بلغت منذ عامين تقريبًا.

-أوه! اعذرني أيها الشاب، ولكنني أحسست أنك صرت يافعًا عن الشهر الماضي، طولك أو صوتك أو وجهك، هناك شيء ما تغير، لكنني لا أدركه.

-الزمن سيدي ما تغير، الزمن ولا سواه.

ابتسم:

-سوف تصبح حكيمًا كأمك.

قال هذا وهو يتجه نحو صحن صغير فوق أحد رفوف مكتبته وقد جاهد لكي يحضره، هممت بمساعدته لكنه رفض بلباقة وقال:

-لا داعي يا ولدي، لا داعي.

أعطاني الصحن وهو يضيف:

-هذا كل شيء، يمكنك أن تذهب الآن، لكن عليك أن تبلغ أمك تحياتي.

قلت وأنا أذهب:

-هي أيضاً تبلغك التحيات سيد مينا.

كنت قد تلاشيت من أمامه، لكنه ناداني وقال وقد ظهر في صوته وكأنه ظفر بشيء ما:

-لقد علمت ما الذي تغير فيك.

-وما هو؟

-لقد استوعبت أخيرًا الحياة، ليس هذا الوجه ولا هذا الفتى الذي كان ولدًا لشُمّيسة منذ عام واحد فقط، هل أقول أنك نضجت؟

خفضت صوتي وأنا أقول:

-بل قل أنني أجاري الحياة عبثًا، يوم لي ويوم لها، أنت تعرف، لا يجوز أن تكسبني هي دائمًا، لا بد من بعض الحيل عندما تخوض حربًا، خصوصًا إذا كانت حربًا طويلة، كحربك مع الحياة.

ابتسم وودعني ببركات الرب، ولم يعقب على كلماتي، صعدت مباشرة بعد أن ألقيت بما كان في الصحن إلى حقيبتي، كانت السلالم في منزلهما وعِرة حقًا، عالية وضيقة وأغلبها مكسور كأن المنزل قد اقتطع من كوخ جبلي، ارتقيت إلى السطح، كانت الغرفة التي يقطنها بولس من الخارج تبدو كأنها مهجورة، وقفت أمام الباب الحديدي القصير، طرقته برفق:

-سيد بولس؟

علا صوته وهو يقول مرتلًا بخشوع:

-مبارك أنت أيها المسيح، يا سيدي يسوع. . .

يا من بك طلع النهار وزالت ظلمة الليل. .

يا نور الحق وشمس البر. .

يا من حللت في البيعة فاستنارت. .

وفي الأرض فابتهجت. .

يا من دنا منك الخطاة فتبرأوا. .

والضالون فاهتدوا. .

والعميان فأبصروا. .

مبارك أنت أيها المسيح، يا سيدي يسوع. .

يا من أيقظتنا هذا الصباح، ووهبتنا نهارًا نفرح به . .

وشمسًا تضيء لنا ، ونورًا يملأ أراضينا . .

نسألك أن تنير عقولنا وتهدي قلوبنا . .

وليكن لنا مطلع صباحك فاتحة كل شيء .

مبارك أنت يا أيها المسيح، يا ابن العذراء، مبارك في الأرض كما في السماء يا سيدي يسوع.

وقفت صامتًا أستمع لصوته الهادئ يناجي ربه، وأنا خاشع بمكاني بجانب الباب، عندما انتهى ناداني قائلا :

–ادخل يا ولدي لقد انتهيت .

حركت الباب، كان مشبكًا في القفل لكنه لم يكن مغلقًا ، أتى وفتح الباب، وهو يقول مُرحبًا :

–أهلًا بك يا بني أهلًا ، كيف حالك؟ وكيف حال أمك؟

–هي بخير، وأنا أيضًا .

–وهذا شيء محبب لدي، أحبه وأسال الرب أن يديمه .

كان بشوشًا جدًا وهو يلقي بكلماته، وقفنا في لحظات صمت وأنا أهز رأسي مبتسمًا، تفرس في ملامحي كأخيه، لكنه قال:

–أأقول أنك شابهت أمك؟ أم أن بصري يخونني؟

–ربما ، لكنني لست ابنها من الصلب على كل حال .

–لكنك تشابهها ، إنني أرى في عينيك بسمتها ، كانت تضحك في وجهك قبل أن تأتي، أليس كذلك؟

–هي تضحك في وجهي دائمًا ، وتحزن إذا ما حزنت، هي مرآة لي .

–بل أنت مرآة لها .

–كلٌ منا مرآة للآخر، لا يمكن أن يعرف أحد شخصًا كأمي ولا يكون مرآة له، ولا يعشقه .

-صدقت.

قالها وهو يشيح عني، ثم هم بالخروج من الغرفة. كان سطح المنزل يحتوي غرفة بولس التي أعدها كصومعة له، غير أنه كان يصنع مقابل غرفته حديقة صغيرة من الصفائح التي يزرع بداخلها أوراق الشاي الأخضر لأمي وبذور الحبة السوداء، وكان يجمع التربة الخاصة بزراعته تلك في الأوقات التي ينزل بها إلى أسفل وهو ما لا يحدث إلا لمامًا، لكي يزرع فيها الأعشاب التي أوكلت له أمي زراعتها وقد بدا سعيدًا وممتنًا لها أكثر من امتنانها له.

اتجه نحو الصفائح الحديدية، انحنى على صفائحه يجز الأوراق، كانت الصفائح قريبة إلى الأرض، ولكي يجزها وقف في وضع الركوع، وعلى ما بدا، كان ذلك يؤلمه.

-آلام المفاصل تورث ضيق النفس، كيف حال أمك معها؟

-تستخدم عكازاً.

-لعلها تبدو أكثر مهابة وهي تستند عليه.

-هل رأيتها؟

قال "أت" ولم يكمل الكلمة، كنت أعرف أنه ود أن يقول "أتمنى" لكنه بدلًا من ذلك، اعتدل وتوقف في مواجهة لي وقال بصوت لمست فيه حسرة:

-أتعرف؟ كنت أنا وأمك صديقين رائعين، عندما كنا بعمرك.

ابتسمت وأجبت:

-أعرف.

لم ينبس بحرف آخر، أكمل جز الأوراق في صمت وعندما انتهى أعطاني إياها.. هممت بالرحيل، لكنه استوقفني ودخل إلى غرفته، عاد بعد قليل بكيس صغير به مسحوق أحمر، وقال:

-أعطِ هذه لأمك.

لم يزِد، قلت وأنا أهم بالذهاب:

-أمي تبلغك السلام يا "ابن عيسى الأول".

ضحك حتى احمّر وجهه وهو يقول:

-هل علمتك شُمَيّسة كلمتها؟

ثم تدارك أمره سريعًا:

-أقصد والدتك.

قلت أداعبه وأنا أهم بالنزول:

-لا عليك.

• • •

وقفت أمام البوابة الخارجية لمنزل الأخوين بعدما أغلقتها برفق، كما أوصتني أمي، وانتظرت لدقائق أرتب أفكاري، فكرت في الذهاب للحاج عبد الواحد أولًا، لكنني تذكرت أن المنحل الخاص به بعيد عن طريقي، فعقدت العزم أن أذهب إلى شرقية أولًا.

كانت شرقية الصديقة الأقرب لأمي وكاتمة أسرارها، وعلى حد قول أمي فإن كلًا من خالتي شرقية وأمي والجدة رافدة والجدة رحيل، صديقات تجمعهن رابطة قوية منذ كن بعمري وحتى الآن. عندما تقول أمي ذلك، أتخيل صورة تجمعهن جميعًا، لو كُن كذلك، فستكون أمي فتاة.. بعيون عسلية وبشرة بلون الشمس، وشعر طاغٍ آسر كسيول ليلية، حكيمة حتى في مراهقتها، قليلة الكلام، لا تتحدث إلا للمهم، تضحك برقة قليلًا، لكنها دائمًا ما تبتسم، سريعة البديهة، رشيقة تجيد السباحة والعدو، ساحرة في كل وقت.

أما رافدة.. فستكون فتاة، ثرثارة، لديها أحلام أكبر من الزمن الذي ولدت به، تنتهي كل تلك الأحلام أمام شفا هوّة، بداخلها زوج وفتاتان أنجبتهما، طلقها الزوج بعدما قضى معها خمسة وثلاثين عامًا سحق فيها كل تلك الأحلام، وهاجرت الفتاتان، كلٌ منهما مع زوج لها، وبقيت رافدة، وحيدة، عجوز، لكنها ما زالت ثرثارة. أما رحيل، فهي الهادئة دائمًا، لا يمكن أن تقع بخلاف لأنها بالأصل لا تتحدث، إلا أنها كالأمواج، لا تعرف متى تهدأ، ومتى تغضب، ومتى تثور أو تفيض.

أما شرقية... فكبيرة كانت أو صغيرة، ستظل شرقية دائمًا..

كانت شرقية. . امرأة شرقية بحق، لها لون الشرقيات وطابعهن، شرقية كما لا يمكن لغيرها من النساء أن تكون. جميلة، شاخت سريعًا وكبرت قبل أوانها، كثيرًا ما تبكي لأقل سبب، تبكي حتى على الأشياء التي ماتت منذ أعوام، مشاعرها تثور بمجرد تذكيرها بزوجها المتوفى، أو موقف حدث معه، تبكي وتبكي وتروح تولول على أيامها معه، وأيامها من بعده، إذا ما جلستُ معها قليلاً، خرجت مكتئبًا بعدما أكون قد بكيت معها ما يزيد عن ساعة.

كانت شرقية بليغة، وتصف وصفًا أدبيًا دقيقًا لكل شيء، عندما تتحدث عن زوجها تقول كلمات كأنها رثاء أُنزل من السماء، وعندما تذكر ولدها الذي لم يعد يعودها منذ فترة، تقول حديثًا لا تلعن فيه، لكنه يفوق كل لعن وكل سب ببلاغته، كانت إذا ما جئتها وهممت بالرحيل تستعطفني للبقاء قليلاً، وإذا ما رأت مجرد ابتسامتي وأنا أعدها بالبقاء، تقبل يدي ورأسي وتمطرني وتسهب بوصفها البليغ كما لا يوصف الملائكة والصالحين.

كانت بسيطة، تكسب بأسهل الطرق، وتستغرق وقتًا طويلًا حتى تستطيع أن تكره تمامًا، أقل شيء كان يسعدها، وأقل شيء يكدر صفوها ويؤذي مشاعرها.

كالعادة، ثلاث طرقات خفيفات بالبداية. .

-جدتي شرقية، هذا أنا، هل استيقظتِ؟

-نعم يا بني نعم، أنا قادمة.

جاءتني راكضة، عندما فُتح الباب، ميزت الإشراق في ملامحها، كانت سعادتها بادية جدًا وهي تسرف في الترحيب بي لمجرد أنني أطرق بابها في الشهر مرة أو اثنتين على أقصى تقدير، ومع ذلك، في كل مرة، كانت تستقبلني كما لا يستقبل الفاتحون بعد الحروب والمعارك.

-أخيرًا أتيت، إنني أنتظرك منذ ثلاثة أيام.

-أنا أيضًا اشتقت لكِ، للعلم. . تبدين مشرقة وبهية هذا الصباح.

انحنت على جبيني تقبله، ثم قالت:

-بل عيناك هما المشرقتان، حفظك الله يا بني، إن أطال الله بعمري حتى يوم زفافك، سوف آتيك ولو على قدم واحدة، أهنئ السعيدة التي ستحظى بولدي.

صمتت قليلاً، وقالت بخيبة:

-أقصد ولد أختي.

-يمكنك أن تقولي ولدي. سيكون هذا شرف لي سيدتي.

أديت كلمتي الأخيرة أنحني لها بحركة مسرحية مازحًا، ضحكت هي على أثرها كثيرًا، كنت أُحب أن أرى ضحكتها البريئة. رفعت يدها تؤدي حركة مسرحية هي الأخرى، وهي تشير إلى الداخل وتنحني بصعوبة:

-بل هو شرف لي، تقدم إلى الداخل أيها السيد الصغير.

بقيت معها ما يقارب الساعة، تحدثت معها كثيرًا في أمور عدة، كانت شرقية هي الوحيدة بين أصدقاء أمي التي لم أكن أشعر أنني أفعل ذلك مجبورًا أو غير مهتم إذا ما جلست معها أحدثها فترة طويلة، كنت كلما أنتهي من كلمة أخبرها فيها عن نفسي أو أصدقائي يتهلل وجهها مبهورة وهي تقول "ما شاء الله"، سألتني عن أمي وأحوالها وقالت متحسرة أنها تتمنى حقًا أن تأتي لزيارتها لكن "السن" كما قالت يمنعها ويعرقلها. في وسط الجلسة، حكت من جديد عن ولدها الذي لم يعد يأتيها، وقد هجر المنزل الذي رباه، ثم قالت قبل أن تبدأ في وصلة من البكاء:

-لو كان والده حيًا، لما فعل بي كل هذا، إنني ضعيفة جدًا من دونه، كان سندي بتلك الحياة.

في كل مرة، كنت أستمع لها وأجعلها تخرج كل ما بداخلها، دون أن أسالها عن شيء في حياتها بغية مني في عدم التدخل في ذكرياتها وأسرارها، لكنني ذلك اليوم، لم أعرف لماذا أردت أن أجعلها تحكي وتسرد لي عن حياتها قديمًا، شعرت أنها بحاجة إلى من يسألها عن أسطورتها الخالدة التي لا تكف عن الحديث عنها، وهي زوجها. كانت تتعامل مع ذكراه على أنها منطقة محظورة يستحيل على أحد أن يمسها بسوء ولو بمجرد إيماءة طفيفة، وترجع كل ضرر يحدث لها إلى وفاته، كثيرًا ما كنت أراها تناجيه حتى وأنا بجانبها، ترجوه أن يعود، أو أن يأخذها معه، فإن حياتها بدونه لا معنى لها، ذاك اليوم، قلت لها بجراءة، دون أن أفكر في ردة فعلها:

-احكِ لي عن زوجك يا أمي شرقية.

تسمرت لحظات وسكنت حركتها، أرجعتُ السبب بالبداية إلى قولي، فهي لم تسمع مني من قبل طلبًا كهذا، دائمًا ما كنت أستمع دون إبداء رأيي حتى أرحل، تحولت نحوي وهي تقول دِهشة:

-ماذا قلت؟

ارتبكت قليلًا وقد أحسست أني أخطأت، خرج صوتي متهدجًا:

-قلت، احكِ لي عن زوجك.

نفت سريعًا:

-لا لا، ليس هذا، قلت شيئًا بعده.

اعتدلت في مواجهة لها وأنا أقول متعجبًا:

-يا أمي؟!

سكنت للحظات ثم اغرورقت عيناها بالدموع، قبل أن تقول:

-لا تعرف كم المدة التي مرت عليّ ولم أستمع فيها لتلك التعويذة السحرية.

-أمي! هل هذه هي التعويذة؟!

-نعم، إنها أجمل تعويذة خلقت في هذا العالم، تبقى خامدة وساكنة في أفق كل امرأة، حتى تنجب، فتصحو هذه التعويذة بكل ما فيها من مشاعر، ثم عندما يصل الأمر لما وصلت إليه مع ابني، تموت وتنفى وتدفن بداخلها، لكنها تترك أثرًا عميقًا بأعماقها، تترك ندبة كشق سكين غليظ، ندبة لا يمكن أن تطيب، أنت اليوم طرقت فوق تلك الندبة وأحييت الموتى بداخلي، بأمر الله.

صمتت وصمتُّ من هول بلاغتها التي تعكس الألم الدفين في أغوارها، لم أعرف ماذا أقول، لكنها باغتتني:

-أنتَ مُعجِز!

-وأنتِ معجزة!

-سأحكي لك عن زوجي.. يا بني.

حدثتني يومها كثيرًا عن هذا الرجل الذي لا تكف عن الحديث عنه، لكنها وللعجب، عندما استرسلت في قولها البليغ، لم تبكِ ككل مرة، بل على العكس كانت تبتسم وهي تحكي عن أيامه التي وصفتها بـ"النورانية" . قالت:

-ماضي. . كان الشيء عندما أحتاج أن يكونه! عندما تزوجني كنت في السابعة عشرة من عمري، وكان هو في العشرين، كان متعلمًا يدرس علوم الهندسة، وكنت أمية لا أفقه إلا قراءة القرآن، ولا أستطيع أن أكتب ولا حتى أن أقرأ الحروف مفردة، أخذ يعلمني ما يقارب العامين حتى صرت أكتب وأقرأ مثله بل وأسابقه في تحصيل العلوم، كنت أحسب نفسي فور تعلمي الكتابة والقراءة سأستطيع مسابقته في مجال الهندسة الذي يعشقه، فاختلست يومًا عندما كان نائمًا، كتبه، وبقيت أحملق فيها على أمل أنه عندما يصحو سأباريه بعلومه، عندما فتحت الكتاب وجدت طلاسمَ كثيرةً وعلاماتٍ وأرقامًا لم أفهمها، وعندما استيقظ، صرخت فيه منزعجة: "أتكذب عليّ يا ماضي؟ تقول أنك تتعلم الهندسة وأنت تدرس السحر!" بالتأكيد لم يفهم إلا عندما أشرت إلى كتبه وأريته الرموز والأرقام التي أسميتها أنا "طلاسم" .

وعندما فهم ما قصدت ضحك كثيرًا وهو لا يكاد يصدق ما أقول، كنت حانقة عليه، وزاد حنقي بعدما قام باحتضاني عنوة من الخلف وهو يقول: "أحبك يا مجنونة"، أما أنا فافترشت الأرض أمارس الملكة التي أجيدها أكثر في تلك الحياة، أخذت أبكي وأندب حظي الذي زوجني بساحر، يومها . . لم يصرخ فيّ أو حتى يسخر من جهلي، بل كل ما فعله أن دنا مني بهدوء بجانب الكتب التي ألقيت بها على الأرض، وهو يشرح لي بأناة أن تلك التي رأيتها هي رموز وأرقام هندسية حقًا واختصارات لكلمات طويلة، كان يتحدث معي جديًا بلا سخريةٍ، وعندما انتهى وجدت الحمرة طريقها إلى وجنتيّ خجلًا من جهلي ونزقي، إلا أنه لم يفعل شيئًا، بل إنه لم يكف عن الابتسام. . كان ماضي رجلًا كما لا يمكن لغيره أن يكون.

قالت الجملة الأخيرة بنظرة حالمة، وتوقفت لثوانٍ تسترجع ذكرياتها، ثم عادت لتقول بحماس:

-أتعرف أيضًا؟ لقد تأخرت عن الإنجاب سبع سنوات، سبع سنوات كاملات لم يقل لي يومًا لماذا لا تنجبين، كان يبحث معي عن العلاج ويأخذ من الأدوية قبل أن يعطيني، ويقول

دائمًا: "سيشفينا الله من عيوبنا ويرزقنا بابن قريبًا بإذن الله"، مع أنني كنت أعلم كما يعلم أن العيب كان مني لا منه.

وكثيرًا ما كانت تمر عليّ أيامٌ أمل فيها ويضيق صدري وأشعر بالظلم نحوه، حتى إنني جئته ذات يوم وقلت:

-ماضي، عليك أن تتزوج، لا يمكنني أن أظلمك أكثر من هذا.

استدار نحوي وهو يقول متعجبًا:

-ماذا تقولين، من ظلمني؟! ومن سيتزوج؟!

-أنا أظلمك، أنت رجل كامل لا عيب فيك، وأنا امرأة ناقصة، أنت تنجب وأنا عقيم، ولذلك ستتزوج بمن تستطيع أن تنجب لك طفلًا يحمل اسمك.

-انظري، حتى لا أكذبك القول، أنا متزوج من أربع.

-متزوج من أربع!

-نعم، وإحداهن تجلس أمامي.

-وأنت تقول ذلك، وما زلت تجلس أمامي!

-ماذا تقصدين؟

-أقصد أنني سأطبق فوق عنقك الآن.

هممت فعلًا بإحكام قبضتي على رقبته، كان يتنفس بصعوبة وهو يضحك (توقفت هنا لبضع ثوان وقالت: آه.. كم أشتاق لضحكته!) وأكملت: كان بإمكانه أن يفك قبضتي الضعيفة عن عنقه، لكنه اكتفى بنظرة طويلة داخل عينيّ جعلت أناملي ترتخي وحدها:

-كنت أعلم أنك لن تصبري حتى أموت.

-ماذا تريد أن أفعل بعدما اعترفت لي الآن أنك متزوج من ثلاث غيري؟

-أوَلم تقولي من قليل، تزوج، ها أنا أقول إنني تزوجت.

طرقت بقبضتي فوق كتفه وقلت:

-تزوج بعدما أقول لك، لا قبل ذلك، وليس من ورائي.

قلت ذلك وأنا مقبلة على وصلة من البكاء وهو يجذبني من معصمي نحوه، وقال هذا القول الذي علمني البلاغة التي تتحدث عنها:

-ما زلت مجنونة، وستظلين، يا مجنونة، الأولى التي حدثتك عنها هي تلك الرعناء المندفعة التي تصدق كل شيء دون أن تتحقق، وبسرعة البرق أطبقت فوق عنقي وكأنها مصدقة لما أقول! وأما الثانية، فهي شرقية الحمقاء، التي تطلب مني الزواج بأخرى لكي أنجب، ولا تعلم أنني حتى لو ظللت أنجب طوال عمري، لن يخلق الله ابنة أعشقها كما أعشقها، والثالثة، هي شرقية الباكية، التي تجفف دموعها في قميصي، وتهرع إلى صدري في كل وقت وحين، أما الرابعة فهي شرقية الجاهلة، التي تعلمت القراءة والكتابة لكنها ما زالت عاجزة عن قراءتي، ولا تعرف القدر الذي أحبها به، شرقية التلميذة التي تجلس أمامي تستقي علومها وكأني كوكبة من المعلومات تحوطها، وإذا ما أخطأت انكمشت على ذاتها تخاف أن أعاقبها، إذاً ها هن الأربعة، رعناء وحمقاء وباكية وجاهلة، وتطلبين مني التفكير بالنساء مرة أخرى؟! لقد زهدت النساء من بعد شرقية!

كانت تسرد الحديث بذاكرة قوية وتحفظه عن ظهر قلب، توقفت تمامًا وهي تنظر أمامها بعينين حالمتين تمامًا تنمو دمعتان في محجريهما، لم أعرف ماذا أقول، لكنني وجدت رغبة في أن أصفه قائلا:

-كان بليغًا.

-كان كل شيء حسن.

ملأت رئتيها بالهواء ثم زفرته بقوة تحاول منع الدموع التي تراوغها لتنزلق وتبدأ في الانهمار، استدارت نحوي وقالت:

-أتعرف؟ لقد مضى على وفاته خمسة عشر عامًا، لكنني أتذكر هذا اليوم جيدًا.

كنا بأيلول، والخريف يحطم أوراق الأشجار، وحديقة داري امتلأت بأوراق الشجر اليابسة، كان مريضًا بالسعال قبل ذلك اليوم، وكثيرًا ما كان صدره يؤلمه ويؤرق مضجعه، إلا أنه صحا هذا اليوم نشيطًا صحيحًا كأنه ما زال ذلك الشاب في العشرين. استيقظ كعادته فجرًا

واصطحب الولد وذهب للصلاة، كانت عادته بعد أن تقاعد، عندما يعود من الفجر يوقظني لأصلي ويذهب لقراءة القرآن أو ينام، لكنني عندما انتهيت من الصلاة ذلك اليوم فعل شيئًا آخر.

بعدما صليت قال لي:

-لا تنامي وتعالي.

مشيرًا إلى غرفة الجلوس، كان الولد قد نام، وظننته يريد أن يحدثني بشيء في أمره، لكنني حينما دخلت، وجدته يجلس مفترشًا الأرض تحت أحد المقاعد وهو يشير له قائلًا:

-اجلسي هنا.

جلست وأنا لا أفهم شيئًا، كان يجلس تحت قدميّ وبجانبه صحن تفوح منه رائحة الحناء، وبدأ يضع منه فوق أظافري وينقش قدمي، كنت أتضاحك، قلت:

-ماذا تفعل؟ لقد شاخت تلك القدم على هذا التدليل.

وقال:

-بل هي ذات القدم للفتاة صاحبة السبعة عشر عامًا يوم أن تزوجتها، كانت نفس الحناء تغطيها، لم يختلف شيء.

وأخذ يزخرفها بالحناء في الغرفة شبه المظلمة إلا من مصباح يتيم يضعه بجانبه، وعندما انتهى ترك الحناء تجف، ثم استند برأسه فوق ساقي وهو ما زال يجلس بالأسفل، دعوته ليجلس بجانبي لكنه قال أنه مستريح هكذا، تحدث يومها كثيرًا بنفس القول البليغ، عن ليلة زفافنا وعن شهور حملي ولحظة ولادتي، كان أغلب الحديث عني، وبعد أن مر ردح من الزمن قام وجاء بدلو من الماء ومنشفته وأخذ يزيل آثار الحناء بالماء ثم جففها برقة، حتى بقت الأشكال التي زخرفها زاهية وجميلة، ثم جففها تمامًا وأخذ ينظر لها مليًا وهو يقول بفرحة:

-يا الله! ما زال الجمال يكسوها.

قال كلمته وقام يحاول حملي، كنت نحيلة ولكنه كان شيخًا كبيرًا، جاهد ليوصلني لسريري بأمان، كنت أبتسم ابتسامة متسعة، وضعني على سريري وأخذ ينظر لي، وقال:

-مهما حدث، لا أريد لتلك الإشراقة أن تزول، تعدينني؟

قلت مبتهجة:

-أعدك.

لكنني عندما استيقظت قبل الظهر بعدة ساعات.. لم أستطع أن أفي بوعدي.

كانت النسوة ممن جئن لتعزيتي ينظرن إلى قدمي المزخرفة بالحناء ويتضاحكن ويتهامسن سرًا، بعضهن قلن أنني سعيدة لموته، وبعضهن قذفنني بأقذع الأوصاف، والبعض اكتفى بالسب أو الاستنكار. وانتشرت الشائعات والأقاويل المكذوبة، وأنا.. كنت أنظر لقدمي المخضبة بالحناء، وأبكي. كانت أمك هي وحدها من لم تقذفني أو تصدق الإشاعات من حولي، أتت وهي تحملك وكنت طفلًا ما زال عمرك يعد بالأشهر، وقالت دون أن تسألني: "صبغ قدميك بالحناء، أليس كذلك؟"

لا أعلم كيف علمت شُميّسة، لكن أمك كانت وما زالت بارعة في علم الفراسة، ارتميت ذلك اليوم بين أحضانها أبكي، وبقيت منذ ذلك اليوم أبكي، وأبكي، وأنتحب.

• • •

صمتت تمامًا، وبعد قليل دخلتْ وأحضرت من غرفتها كيسًا وقالت:

-هذا لوالدتك، أخبرها أنني اشتقت لها كثيرًا، ولا تتأخر ككل مرة في زيارتي.

كنت أعرف أنها اختزلت عباراتها داخل قلبها وحبست أنفاسها وهي تحكي لي، لتقضي وقتها العصيب وحدها، قمت وهممت بالرحيل، لكن شيئًا ما أوقفني، أحسست برغبة عارمة في أن أقول شيئًا، توقفت أمام الباب لبضع ثوانٍ، قلت:

-أتعرفين؟ سأقول لك شيئًا، لكن عليك الاحتفاظ به كسر، لقد كنت أستغرب بكاءك الدائم على زوجك، لكني اليوم فطنت إلى أنه يستحق منك عناء التفكير به في كل وقت، أنت محقة في قولك أنه كان رجلًا كما لا يمكن لغيره أن يكون.

قلت هذا.. وذهبت.

• • •

عندما خرجت من منزلها كان علي الاختيار بين أن أذهب لعبد الواحد أولًا أو للجدة رحيل، قبل الشوط الطويل الذي سيقطع مع رافدة إجباريًا. توجهت ومقصدي السيد عبد الواحد أو الحاج كما يجب أن يناديه الناس، كان عبد الواحد (كما أخبرتني رافدة وأوصتني ألا أقول أنها أفشت سر أمي لي) أحد الذين قاموا بخطبة أمي بعد قصتها الفاشلة مع بولس، وكان ذا قربى لها، ولكن أمي كانت بعد تلك الواقعة قد ترهبنت كما ترهبن بولس هو الآخر، ورفض كلٌ منهما الزواج بعدما أيقنا أن ارتباط كل منهما بالآخر أمر مستحيل الحدوث، لكن عبد الواحد كان يحب أمي حتى بعد زواجه، ورغم رفضها الزواج منه فإنه ظل يعودها ويزورها بعد وفاة والديها وحتى فترة طويلة في عمره، حتى بعد زواجه وإنجابه، والآن وقد أصبح عجوزًا في الثمانين لا يبخل عليها بعسله الطبيعي الذي تشتريه أمي منه، بل ويهديها شيئًا يسميه: "خلاصة روح الملكة". وهو يقول أنه أجمل شراب في أجمل خلية يمتلكها، يهديه لأمي مع مرسالها الذي هو أنا، ويسألني أن أخبرها أن هذا العسل لها وألا تطعم منه مرضاها، بل توفره كله لها والقليل للمرسال الصغير.

ذهبت له، كان منشغلًا، اشتريت العسل وبالطبع حاول كثيرًا ألا يرضى بأخذ المال، ولكنني حسب تعليمات أمي كان يجب أن أعطيه له، أخذه على مضض، وبالطبع لم ينسَ أن يهديني خلاصة روح الملكة، الذي لا يشربه إلا الملوك حقًا، كشُمَيّسة مثلًا.

في طريقي إلى رحيل، بقيت أفكر كثيرًا، كانت زيارتي لأصدقاء أمي القدامى تجعلني أتدخل أكثر في عمق تلك الشخصية الساحرة لي قبل أن تكون ساحرة للجميع، حديثي مع بولس يجعلني أتأكد أن مشاعره لها لم تغفل بعد، كما هو حال عبد الواحد، وإن كانوا يحبونها وقد تعدت السبعين، فكيف كانوا معها وهي ابنة الستة عشر أو العشرين. وكيف كانت هي، كيف كان بهاؤها ورونقها؟!

إن أمي لم تحدثني يومًا في عمق فترة شبابها ومراهقتها، دائمًا ما تتحدث عن الطفولة وتقطع الحديث قبل فترة البلوغ، وعلى حسب حديث رافدة التي أفشت لي أغلب أسرار أمي تقريبًا، فإن أمي لم ينقطع الخطاب عنها من عمر الستة عشر وحتى عمر الأربعين، إذًا كيف كانت تلك المرأة التي تجلس بجانبي بمنزلها العتيق، كيف كان السحر يكسوها؟ نعم أعرف عن جمالها الذي

بالكاد يظهر من بين التجاعيد، بالتأكيد كان أكثر رونقًا من قبل، أعرف أنها متفرسة وطبيبة وامرأة قوية شامخة في كل وقت، أعرف عن ذكائها الباهر وسرعة بديهتها، ولكن أهذا ما يجذب فيها كل هؤلاء الرجال الشرقيين قلبًا وقالبًا، أم أنها كانت مكسوة بسحر آخر فوق كل هذا السحر؟ إنه لأمر محير!

فكرت في هذا وأنا في طريقي لمنزل الجدة رحيل، وقفت أمام منزلها، طرقت الباب بخفة كالعادة، فانفتح أمامي وحده، كانت خالتي زهرة تجلس مفترشة لحصيرة صغيرة تضعها فوق السجاد النظيف وهي تكسر بعض الجزرات وتفعل شيئًا ما بقطع البطاطا المسلوقة بجانبها، ألقيت السلام فردت برحابة صدر، وقالت:

-جدتك رحيل نائمة الآن لكنها تركت لك هذا الكيس، وتخبرك أن توصل سلامها لأمك، وتسألك أن تأتيها غدًا بعد الثانية ظهرًا.

هممت بأخذ الكيس، وأنا ألقي السلام ثانية، لكنها أوقفتني وهي تقول بلهفة:

-انتظر، انتظر، رحيل تريد منك أن تشرح لها بعض المسائل الرياضية، هل هذا ممكن؟

-رحيل، ابنتك؟!

-نعم.

وقفت مرتبكًا، قلت:

-ولكنني غير بارع في الرياضيات، كما أن العام الدراسي قد انتهى!

-إنها تدرس للعام القادم، وتريد منك المساعدة، ليست بارعة في الرياضيات، وتقول أنك أكثر براعة منها.

هممت بالرد، لكن رحيلًا أتت من الداخل وهي تقول بلهفة:

-إنها ليست مسألة صعبة، ستفهمها بسرعة لأنها مرت عليك من قبل، أرجوك.

لم يكن أمامي غير الموافقة، وفعلت. أدخلتني غرفة لاستقبال الضيوف بمنزلهم تطل من الخارج على الصالة التي تجلس فيها أمها وهي تعد الطعام وتلقي بأذنها معنا والباب مفتوح. كان

هناك بعض الكتب على طاولة صغيرة، جلست وجلست بجانبي . . رحيل، التي لم تكمل عامها الرابع عشر بعد .

كانت رحيل علي أية حال فتاة يصعب التركيز إذا ما جلستُ معها، وخصوصًا إذا ما جلستُ معها وحدنا، كانت مشاغبة حقًا ولا تهدأ حركتها ولا يهدأ حديثها، تبتسم وتضحك كثيرًا على كل شيء، لها شعر طويل يصل حد ركبتيها يموج كأمواج نهرية هادئة، وأنف قصير حاد وفم مرسوم بريشة فنان، وعينان واسعتان كحيلتان بغير كحل، قصيرة نسبيًا ولها شيء طفيف من امتلاء الجسد يجعل قوامها رائعًا، لكنني كنت أخجل من النظر لها أو التفرس في ملامحها وشكلها .

جلست بجانبي، تستند بذقنها على كفها، وتستند بذراعها على ركبتها، وتنظر نحوي، لم أستطع منع نفسي من النظر لها قليلاً، كانت حقًا جذابة خاصة وهي تحملق فيّ ببسمة متسعة، وعينين مبهورتين، لا أعرف بماذا !

قلت مرتبكًا :

-أين المسائل يا رحيل؟

-مسائل ماذا ؟

-التي قلتي أنك تريدين أن أساعدك على فهمها !

-آه، لا، إنها ليست مسائل، إنه سؤال بفصل الأحياء في كتاب العلوم .

-لكن أمك قالت إنها رياضيات !

-أمي تسمي أي مادة علمية بالرياضيات .

زفرت في نفاد صبر، قلت:

-إذاً هاتي كتاب العلوم .

-دعني أراك قليلاً .

كانت كلمتها صادمة بالنسبة لي، نظرت لها معقود اللسان، لم أعرف كيف يمكنني الإجابة

على تلك الجنية الصغيرة ذات الثلاثة عشر عامًا والسبعة أشهر، وماذا تريد مني، ولماذا أنا دهِش بتلك الدرجة، ولماذا أشعر نحو نظراتها بالاختراق. .

-ماذا قلتِ؟

-أنت سمعت، اصمت الآن، أقول لك إنني أريد أن أسرح فيك قليلاً.

تنهدت كما يفعل من قلت حيلته، فباغتتني وقد عقدت حاجبيها:

-لماذا شعرك عسلي، ولحيتك بنية؟!

-هل هذا هو سؤال العلوم؟!

-لا تتصنع الذكاء علي، أنت تعرف لماذا أنت هنا.

-ولماذا أنا هنا إذاً؟!

-لأراك.

كانت رحيل ـ كما قلت ـ مشاغبة وحديثها محرج ومسكت، ولم تكن تخجل أن تقول لي في الأوقات التي نلتقي بها خارج منزلها أنها تحبني، بل إنني قلت لها يومًا أن ذلك لا يصلح لكونها صغيرة، وما تفكر به مجرد أحاديث طفولة فكان جوابها: "وقعت فيك ولا مفر لي منك، ولا مفر لك منيِ!" أما أنا فكنت أحاول اجتنابها بشتى الطرق، لم أكن أفضل على الإطلاق أن أقع بها، خاصة بكل هذا الجنون الذي يكسوها، فتصبح عشقي وشغفي ودنياي، ثم يأتي يومًا يحدث فيه كما حدث مع رفيق ولُبيّبة وأجلس أتحسر وأندب الأيام، لكنني يومها، لن أتعافى كما فعل رفيق، لن أستطيع. باغتتني من جديد:

-لماذا تصمت، ألا تعلم أن الصمت يمرض؟!

-ومن أين لك بتلك الحكمة يا سيدتي رحيل.

-من عينيك يا سيدي.

لا أعلم، ولكننيِ شعرت أنها تستهزئ بي، أمسكت بذراعها بقوة وقلت لها غاضبًا بصوت جاهدت ليكون خافتًا:

-أمك بالخارج، سأذهب أمامها وسأخرج غاضبًا وأتركك لها تستفسر منك عن سبب كل هذا، ولن تستطيعي أن تجاوبي، أين السؤال وإلا سأرحل.

خافت.. وأخرجت لي من بين كتبها كتاب العلوم على عجل، كان أحد كتب بلادنا البالية وكأن أوراقها تستهلك للمرة الألف، أعطته لي وهي تلقنني رقم الصفحة، كان السؤال الذي تحدثني عنه واضحًا جدًا، وعندما ألقيت نظرة على الصفحة وجدتها قد كتبت الإجابة في أسفل الصفحة، أعطيتها الكتاب ساخرًا وقمت.

-متى المرة القادمة التي ستأتي بها؟

-الشهر القادم، أو السنة القادمة، لو بإرادتي لن آتي أبدًا يا رحيل.

ابتسمت فقط وهي تقول:

-كاذب، ستأتي غدًا لجدتي، وسأراك.

لم أعقب، قامت تلقي علي السلام الأخير؛ فقام معها شعرها وانسدل الموج من كل حدب وصوب، أغمضت عيني تلقائيًا وأنا أمتنع عن رؤية مثل هذه الفتنة، وخرجت.

-هل شرحت لها المسألة يا بني، كانت صعبة أليس كذلك؟

هكذا استفسرت عمتي زهرة والدة رحيل، وكانت رحيل تقف عند الباب، وتنتظر إجابتي..

-صعبة جدًا يا عمتي، صعبة للغاية!

طرقت على صدرها في خوف وهي تقول:

-صعبة عليك! إذاً ماذا ستفعل ابنتي المسكينة في الاختبار إذا ما أتتها؟

-لن تأتي لها، ستأتي لي.

-ماذا؟!

-لا عليك، لقد استطاعت رحيل أن تحلها جيدًا، هي ذكية.

ضحكت رحيل وقالت:

-شكرًا لك.

ورحلت.

• • •

في الطريق إلى رافدة، حاصرتني رحيل بشعرها وعينيها وضحكاتها، كنت أستغرب السحر الذي توقعه رحيل علي في بعدها أكثر من حضورها، الشغب الذي تتصرف به، وعشوائيتها الغريبة، ونظراتها لي التي لم أجربها من أنثي قبلها كانت كفيلة بجلب لبي، حتى رغم أنني أتصنع دائمًا اللامبالاة إذا ما حضرت، ولكنني كنت أستشعر الخوف في نفسي، لم أدرِ أكان خوفًا أم عشقًا، لكنني أعلم أن حالة الاختفاء التي أتلبسها، إذا ما أسفرت عن حقيقتي سريعًا ما سينفض الكثيرون من حولي كما انفضوا من قبل، حتى رحيل؟! لا أعرف.

وصلت أمام بيت العجوز رافدة، أكبر المجموعة. كانت جميع صديقات أمي تتراوح أعمارهن بين السبعينات، إلا رافدة، صاحبة الثمانية والثمانين عامًا.

لم أكن أحتاج أن أطرق الباب؛ فمنزل رافدة لم يكن به باب أساسًا، أو ربما له، لو اعتبرنا اللوح المصنوع من جريد النخل هذا.. بابًا حقيقيًا، يسد شيئًا غير شمس الظهيرة الوهاجة والقطط العاجزة، ورغم أن البيت كان كبيرًا ومتسعًا، فإنه منذ اللحظة التي كسر فيها زوجها الباب بعد أن ألقى عليها يمين الطلاق، وهي زاهدة تمامًا في كل ما يخص أمور الدنيا، إلا الحديث.

-خالتي رافدة، هل أنت نائمة؟

تهلل صوتها قبل وجهها، سمعت صوت اتكائها على عصاها مقبلة نحوي في مشقة وهي تقول:

-ادخل يا ولدي، ادخل، لم أنم بعد.

دخلتُ، كانت تتكئ على عصاها في شيء من لغوب وكادت تقع، هممت نحوها أساندها:

-توقفي، توقفي، كنت ستسقطين.

-لقد سقطت منذ زمن! هذا ليس جديدًا يا بني.

جلست فوق كرسيها الخشبي المتهالك، وأنا بالقرب منها على كرسي يقابله، مثله تمامًا، قلت:

–هل لي بالأعشاب الخاصة بأمي، بعد إذنك؟

كنت كل مرة، آتي فيها إلىِ رافدة، أقول تلك الكلمة وأنا أعرف الجواب، لكن كنت أقولها على سبيل عدم اليأس، ربما حقًا تعطيني الأعشاب لأرحل في سلام.

–اجلس يا ولدي ِلمَ العجلة، دعني أحدثك قليلاً، ثم إن العجلة من فعل الشيطان، لا تجعل الشيطان حليفك، اجلس، اجلس سأحكي لك أشياء مفيدة تنفعك، أنتم الجيل الذي لا يعرف شيئًا، دعني أعرفك.

زفرت في قلة حيلة، وجلست:

–حسنًا يا جدتي، عرفيني إذاً ما لا أعرفه.

• • •

بقيت معها من الساعة الثالثة حتى السادسة، تكلمتُ عن الجنة والنار والفردوس، والآخرة والعقاب، قالت كلامًا تصف به يوم الحشر وبدا على وجهها التأثر والاقتناع والخوف، ثم أبحرت بي بعيدًا وهي تسرد لي قصة زواجها وصباها وإنجاب الفتاتين، كانت قصة، تُسمع كل مرة بنفس السرد ونفس الكلام، حتى بنفس السكنات والوقفات، والتأثر، ثم وصفت زوجها وجبروته، وأخذت تعيد لي سرد حكاية الباب المكسور، وزوجها الذي هجر ثم طلقها بعد ما يقارب العامين من هجره لها، أخبرتني عن ابنتيها المسافرتين للخارج، وأن أيًا منهما لا تكلف نفسها عناء المكالمة لوالدتها ولو كل سنة، بل اكتفت الصغرى بأن جاءت إلى أمها منذ ثلاث سنوات تطلب منها أن تأتي معها وتعيش بالخارج، وعندما قالت رافدة أنها لا تستطيع ترك منزلها وبلدتها، تركتها الفتاة ورحلت سريعًا، وكأنها أتت لتسمع الرفض لا الموافقة. ثم انطلقت رافدة في حديثها إلى بعد آخر، وهو الجانب الإيماني والروحاني في آخر حديثها، بعد أن انتهت من الجانب الإيماني الذي تبدأ به الحديث. بدأته بـ "أنا أصلي كل يوم ركعتين بعد الضحى، أدعو الله فيهما أن ينعم على أبي وبلاده بالراحة والسكينة، وأن يسقيه من شربة الخلود ويكسوه بالسندس الذي تصنعه الملائكة، ويعمر أراضيه وأملاكه، ويعين ملائكة لتحرس أولاده وبناته".

وأسألها أنا بطبيعة الحال، سؤالًا أعرف إجابته جيدًا، لكنه واجب:

–من أبوكِ الذي تقصدين؟

–هو الذي جئت منه وجاء مني، أبوك وأبي، في وريدي تسري دماؤه ولا سواه، أدافع عنه ولو كان مخطئًا حتى ضد أقرب أخٍ له، لأنه لم يعد لي سندٌ غير جدران مدينته.

–إذًا، لهذا أنت تدافعين عنه وتحببينه مقابل كل هذا العداء لغيره، أقصد، لو كان هناك خطأ نسب له، ستظلين على دفاعك غير المبرر؟

قالت:

–نعم سأدافع من باب "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا".

لم أحتمل الصمت، ونطقت ساخرًا:

–أعلمك أحد هذا الحديث أم أنك تجتهدين؟!

لم تجاوب وتمددت بجسدها القصير على أريكة مقابلة للكرسي الذي كانت تجلس عليه وقالت:

–تعال لي غدًا نكمل حديثنا، وسأخبرك بما قلت.

كنت أعلم أن هذه ليست إلا حيلة لأتشوق وأحضر لأسمع إجابتها غدًا، ولو أنني لا أعرف رافدة حق المعرفة لأتيت، ولكن لأن تلك الحيلة قديمة على من هم مثلي، فلن يكون هناك تشويق، خصوصًا وأنا عالم بتحيزها الشديد الغريب لأبيها ولأراضيه، ضد أي شخص وأي أرض. كانت رافدة، على عكسي تمامًا.

كانت قد تمددت تمامًا وأخذ جفناها وضع الراحة، قلت وأنا أهم بالقيام:

–شكرًا لك جدتي، هل لي بأعشاب أمي حتى أرحل؟

قالت بين تثاؤبها:

–لم تنضج بعد، تعال لي الأسبوع القادم.

–ماذا! أجلس معك منذ الصباح ثم تقولين لم تنضج بعد؟!

تململت في ضيق:

-نعم نعم، اذهب الآن، أريد أن أغفو قليلًا، أنت ثرثار وحديثك آلم رأسي!

وعلى هذا، رحل الثرثار، وبقت هي، وصوت أنفاسها العالي، شيعني للخارج، أو ربما شيع الثرثار!

• • •

مشيت الهوينى حتى المنزل، كانت مشاعر واضطرابات كثيرة تلك التي تختلج في نفسي وقتها، عن رافدة وعن رحيل، وعن شرقية. وعن بولس وعن أمي، كان كل منهم عجوزًا، وبمجرد سماع إحدى القصص التي يرويها أيٌ منهم لي، أشعر بأنه يروي لي ملحمة من قصص الأساطير القديمة، كنت بالنسبة للجميع بئرًا تفنى فيها الأسرار، يشكون لي همومهم ولا أبوح، أستمع بأذن مصغية وأتحدث بلسان كتوم، فإن أفشت لي رافدة أسرار أمي، لا أقول لأمي ولا أمنع رافدة حتى لا أتسبب لها بالإحراج. ولكنني بالتأكيد لم أكن آلة، تعرض أمامها الأمور ولا تفكر بها، كانت شرقية على سبيل المثال، أسطورة تتشابه في مخيلتي مع الملكة إيزيس، ولكنها كعادة الشرقيات، بالتأكيد لا تملك أن تجمع حطام زوجها ليعود حيًا من جديد، ورغم أن وفاءها لزوجها فاق وفاء إيزيس وقبيلة كاملة يحملون صفاتها وأسطورتها الرائجة، ولكن لأنها "شرقية" فإنها لا تملك من أمرها إلا الدموع لتذرفها فوق رفاته وذكراه الخالدة بداخلها. أما رافدة وأمي ورحيل، كلٌ منهن شكلت لي شيئًا، كانت الشخصيات والحكايات رغم اختلافها تتشابه، والحكايات التي أستمع لها من الخارج، تتشابه أيضًا، كنت أظن، أن اختلافهم له معنى، ولكن تلك القصص، جعلتني أشعر، أنهم يختلفون بلا اختلاف، ولكن لم يخطر لي أن أبوح بتلك الفكرة، لأن قصة "الخارج" تلك، لم يكن ليعرف بها . . سواي.

• • •

وقفت أمام أمي أعد أمامها أشواط الرحلة، التي انتهت بالسيدة رافدة صديقتها التي مضت تتحدث ثلاث ساعات ثم بالنهاية تقول لي اذهب يا ثرثار، ضحكت كثيرًا على أثر الكلمة، وعلى ضحكتها تذكرت بولس وكلمته، فأخرجت لها من بين الأعشاب الكيس الصغير الذي أهداه إليها بولس، وضعته أمام عينيها وقلت:

-نسيت أن أخبرك، تلك هدية من صديق طفولتك.

التقطت الكيس من بين يدي في لهفة وهي تفضه، ثم أخذت تشتَّم عبق الحناء بعينين نصف مفتوحتين، وبعد برهة من الانسجام الحالم، أفاقت وكشفت عن البؤبؤ المسحور، لا أدري لِمَ ابتسمتُ تلقائيًا وأنا أطالع عينيها، كانت قد أخرجت بعض المسحوق من الحناء الجافة ووضعته بين كفيها، وأخذت تفركه ثم تشتمه من جديد، وبعد قليل، أفاقت وأطلقت التنهيدة التي أعرفها جيدًا، تنهيدات أمي كن كثر، ولكنني.. كنت أستطيع أن أميز بعضهن عن بعض

-ما بكِ يا شُمَيّسة؟

قلت، وأنا أتخيل الجواب، فأجابت وقد زال الحلم وبقت الحناء في كفيها، وعيناها تهربان مني، وتغيبان بين ذراتها المتناثرة، وتشردان مع شذاها:

-إنها الحناء.

-بالتأكيد هي حناء، ولكن أي حناء تلك؟

قلت وأنا أتفرسها بنظرة مخترقة.. أمسكت بوجهي وهي ترفع عينيها إلي، طالعتني، وفعلت بالمثل، وقالت بصوت ينبئ بعبرات في الطريق:

-لو كانت تلك الحناء قد أتتني وأنت لست معي، وأنا لست في مثل عمري هذا.. لأتيت بولس واحتضنته، كما فعلت قبل ستين عامًا.

توقفت تلتقط أنفاسها، ولم أتحدث، في حين أتبعت وحدها:

-منذ ستين عامًا، التقيت وبولس لآخر مرة، كان الشتاء قد حل، والرذاذ يتداخل في شعري ويهطل فوق زي الراهب الذي ارتداه، كنا قد اقتنعنا بفناء الحب الذي لم يكتب له الحياة، فالتقينا حيث ولد، لدفن رفاته وتشييعه بوداع أخير، قرر يومها أنه سيرتدي زي الراهب ما تبقى له من عمر، وسيعتزل الناس والدنيا، ويتفرغ للعبادة، ويهب حياته ليسوع والعذراء. وأنا قلت بأنني سأعتزل الرجال أيضًا، وأهب حياتي لأعالج الفقراء والضعفاء بالطب النبوي الذي برعت فيه وامتهنته، كنا قبلها قد بكينا كثيرًا، لكننا وقتها لم نبكِ، وأخرج لي قبل الفراق مثل هذا الكيس الذي كان قد أهداه لي في يومنا الأول الذي اعترف

فيه بحبه لي، وهي حناء يصنعها بيديه ويخلطها بعطور عشبية ورحيق زهور، ثم يجففها بطريقته الخاصة ويهديها لي...

في هذا اليوم لم أشعر بجسدي إلا بين ذراعيه، ألقيت بنفسي واستقبلتني أنامله تعانق شعري، ويده الأخرى تحكم فوق ظهري وتجذبني بقوة لداخله، كنا أبناء السادسة عشرة، ولكن هذا العناق كان كبيرًا، أكبر من الكون الذي احتواه.

صمتت للحظة قبل أن تعلق عينيها بأعلى سقف الغرفة، وتقول بين زفيرها المهموم:

-إنني أشعر بأنفاسه تلفح شعري.

ابتسمت فقالت:

-رحمك الله يا بولس، لماذا تذكرني بمن دفن تحت التراب وفنى وانتهى!

ابتسمت مرة أخرى دون أن أنبس بحرف، فقالت:

-أتعرف، كان ممكنًا أن تكون تلك الهدية، هدية حبيبي، لولا وجودك يا صغير، لم يعد لي بعد أن أتيت حبيب، وكيف يكون لي حبيب بعدك يا شقي.

ضحكت تلك المرة؛ فضحكت على ضحكاتها، داعبت وجنتيّ مازحة، ثم أراحت رأسي في حجرها وهي تداعب صدغي بباطن كفها، سرحت قليلا معها، قبل أن أباغتها بالسؤال الذي أضحكها:

-صحيح، ما قصة الحناء مع جيلكم؟!

دغدغت لحيتي وهي تضيق عينيها ضحكًا، قبل أن تطلق تنهيدة الزمن الآتية من الأعوام السحيقة في أغوارها، وتقول:

-آه يا ولدي، الحناء.. إنها لغة من لغات الغرام في هذه الأمة.

-أي أمة، الضيعة؟ أم الجيل الذي تنتمين له؟

-بل الحي كله، بما مضى منه وما سيأتي، جميعنا هنا حالمون، نعشق كما نتنفس، قلوبنا الهشة تغلف هشاشتها الحناء، وتعبر عن مشاعرنا المتضاربة، وحديثنا الهارب، وتغطي

على أيدينا المنهكة، وشعورنا البيضاء، وجلودنا التي تسعفها شمس بلادنا الحارقة، وذاكرتنا الشرهة للتذكارات والهدايا ذات المعنى، كلها تكفيها الحناء.

-لأول مرة أسمعك تجمعين بخير، أنت اليوم لست شُميّسة التي كانت تقول عندما تسمع عن حادث سرقة بالضيعة: "جميع أهل الحي سارقون". وعندما يخرج طبيب بارع من أي ضيعة أخرى تقول: "بضيعتنا من هم أمهر وأفضل منه"!

باحت عيناها بحديث طويل، لكنها اكتفت بـ:

-ثمة أمور لا يجوز أن تبقى على حالها، عندما يكبر المرء يا بني يصل الأمر عند نهاية مضمار متعرج، يقضي فيه كما تقضي وحوش البرية بحثًا عن الفرائس، في صراع لا يقضى إلا بالوصول عند قمة الهرم في لحظة إجلال يلحقها سريعًا عجز. ثم ينحدر بأسرع مما صعد بكثير، حتى يسقط نحو الهاوية، هذه الهاوية هي الموت.

-وبعد؟!

-في لحظات الانحدار تلك وقبل السقوط الأخير.. يمكن للإنسان أن يسلك دربًا من ثلاثة، إما الحكمة وإما العته، أو الارتكاز في بحيرة راكدة، صامته كقبر، يقف فيها منتظرًا لحظة السقوط على أحر من الجمر، وأنت تعلم، لا يناسب شُميّسة الأخيران.

رفعت رأسي نحو وجنتها، قبلتها وأنا أهم بالقيام.

-شُميّسة خلقت لتكون حكيمة، شُميّسة خلقت من بين النور والنار، لا يناسبكِ أن ينحدر أصلك إلى مجرد حفنة من التراب، أليس صحيحًا؟

ضحكت طويلًا ثم قالت وهي تراني أهم بالوصول نحو الباب:

-حسنًا يا شاعري الصغير، إلى أين تنوي الذهاب الآن؟!

قلت قولًا بين المداعبة والحقيقة:

-سأذهب للمكان الذي آمل أن أجدني فيه، ربما يقودني القدر إن كان سعيدًا.. إلى أن أصبح مثلكِ يا شُميسة.. يا طبيبتي.

ابتسمت تودعني، وخرجت.

• • •

-ولدي، انتظر يا بني أرجوك.

وهنا قد بدأ القدر السعيد "حقًا" يلقي ببشارته منذ بداية الطريق!

جلست أم ماجد على عتبة دارها تعقد يديها فوق صدرها الذي صار مترهلًا، ليتماشى مع مظهرها الرث وألوانها الباهتة، بداية من العباءة السوداء التي شققتها لترقعها بعد ذلك وتمرغها في التراب لتستحق عن جدارة لقب "رثة"، وحتى معصميها النحيلين وشعرها المترب الذي غزاه الأبيض بعدما هجرته الحناء والعناية، ومقلتيها المحمرتين ببكائها الذي صار مؤخرًا أحد معالمها الشهيرة.

-توقف، بالله عليك يا ولدي توقف قليلًا، وأعدك، لن أعطلك.

قالت ذلك، وهي تحكم قبضتها فوق ساقي وتطالعني من أسفل لأعلى بنظرة أوجع قلبي أن أراها في عيني المرأة التي عرفت بقوتها وجبروتها، كانت نظرة ضعيفة، ضعيفة للغاية، بقدر ما كانت مرعبة.

دنوت منها، كان لسانها يقاطعها، وحروفها تخرج وتتراجع، أطبقت بيديها على كفي وعينها تستعطفني، أخذت وضع التأهب للحديث ثم بللت الشفاه الزرقاء، وهي تناجيني:

-قل، وأعدك بالكتمان.

اهتزت رأسي في أسف بحركة تلقائية، كان هذا الحديث يسمع ويقال بصيغة دورية، ولكنني لم أكن أقدر أن أمنعها عنه، وكيف وأنا العالم بما كانت وما صارت إليه تلك المرأة التي أصبحت تنادى بـ"المجذوبة" كما يسميها الملاعين من أطفال البلدة، الذين لم يتورعوا يومًا عن أن يلقوا بالحجارة عليها، ويلوثوا غطاء رأسها بالطين والحصى وهي تمشي بالشوارع والأزقة وتنادي ولدها.

-ماذا تريديني أن أقول يا أمي "فضية".

لم يكن نداؤها بـ"أم ماجد" ممكنًا في حالتها تلك؛ لذا فلقد اخترت نداءها باسمها الحقيقي كي لا أقلب مواجعها المشتعلة من جديد.

تلفتت كمن ستقول سرًا رهيبًا، ثم قالت بخفوت:

-لا تخشَ من شيء، أنا أعلم أنك نبيل وكم أنت شهم مغوار، أعلم أيضًا أنك تحملت إثمًا لم يكن عليك، لكن الله قد رزقك النجاة من المأزق سريعًا، أعلم كل هذا، لكنني أريدك أن تريح قلبي فقط.. أنت لم تقتل ولدي أليس كذلك؟

توقفت تتلفت من جديد، ثم عاودت بصوت ناحب:

-أنا كنت أعلم، لقد أخبرته ألا يصادق الغرباء، قلت له أن لا خير في أي من أبناء هذا الحي، أخبرته أن هذا الفتى يحقد عليه وسيغدر به يومًا، لكنه كان طيِّبًا وسليم النية زيادة عن اللازم.

زمت شفتيّ طوال حديثها كأنما أحبس لساني عن قول شيء قد لا يناسب حالتها أو يوقعني معها بخلاف لن ينتهي، لكنني اكتفيت بجواب، ككل مرة:

-وربي يا فضية لم يقتل ولدك أيٌ منا.. إنه القدر.

ومضيت وعينها تشيعني بنظرات تبدو للبعيد ولهى، لكنني كنت أراها.. باسرة.

• • •

بطريقي سرت، على كتفي حقيبتي التي يحسب الجميع دائمًا أن الأسرار تملأها، وقدماي تمشيان بشكل عشوائي، وعيني.. كعادتها عندما أطلق لها العنان، تتجول بلا رقيب.

أشجار، أطفال، نساء، أصوات الناس وأغنيات الطريق، أحلام في عيون المراهقين أمثالي تفضحها نظرتي المجردة من كل تفرس أو ذكاء، أروقة مشمسة وأزقة هادئة ونسمة طفيفة تلطف الأجواء.

من عند مقهى العم ياسين وقفت أتخير مساري، إلا أن صوتًا صغيرًا من الخلف، استوقفني:

-يا أنت، يا صديق لبيبة!

التفتُ سريعًا مع الاسم، كانت المنادية فتاة شقراء لم تتجاوز الخامسة، تقبل نحوي وتقبض في يمينها على شيء ما. قالت بلهفة وهي تحث الخطى إلي:

-أنت صديق أختي لبيبة، ألست كذلك؟

تفرست في ملامحها، كانت حقًا تشبه لبيبة، قلت:

-نعم، أين هي؟ وماذا تريدين؟!

-أرسلتني إليك بهذه الورقة، وقالت أن أبلغك السلام، إلى اللقاء.

قالتها وانصرفت تحشر ذاتها وسط الصغار.. تحاول اللهو معهم، بينما كان يبدو عليهم النفور من الفتاة لمجرد ملامحها، فضضتُ الورقة لأرى ما بها، كان:

"قابلني عند بحيرتنا غدًا في الميعاد القديم.. لا تتأخر ولا تحضر أحدًا معك، صديقتك لبيبة.."

كانت كلمات مقتضبة، لا توحي بخير أو شر، والفتاة وثبت بعيدًا تلحق الصبية قبل أن يتخذوا قرارًا بعزلها من اللعبة، وأنا طبقت الورقة وألقيتها بالحقيبة، وأكملت السير.

• • •

صمتي انكسر

ومناجاتي بالسحر

واللون الأصفر.. سافر

والرمادي حل.

قال إنه جاي وهجر..

واحد بكى والثاني مفقود.

وغيابه عنا.. صار ممدود.

وأنا طالعت النهر..

أبحث عن درب ضائع.

ما بين النهر وشجرة سدر.

فالشوق دفن قلبي بقبر..

والشوك في قدمي استقر

وترقرقت صرخة . .

فعلمت أن . . صمتي انكسر .

لا أعلم كيف للمرء أن يعشق كلمات لا يدري أين استمع لها ! كانت كلمات تلك الأغنية تتردد مني في لحظات شرودي، تتردد مني حتى وأنا لا أدري أن لساني يتلفظ بها ، ولكنها كانت تنطق بصوت أعلى وأجمل، وأنا هنا . . عند البحيرة .

كانت تلك البحيرة هي التي استبدلتها بنظيرتها في ضيعتنا ، والحقيقة أنها كانت أكثر جمالاً وهدوءًا؛ فقد كان يمكنني لأجلها أن أتحمل مشقة أسبوع كامل بلا ترفيه، أسبوع من العمل مع أمي شُميّسة، أو حتى بأوقات الدارسة فقط، لآتي إلى هنا بضع سويعات بسيطة تدركني فيها النشوة بلقاء الحبيبة الصامتة .

لذا فقد كانت وما زالت كاتمة أسراري، أتحدث معها عني ولا تبوح، أخبرها بأمر الأخرق الذي تناساه الناس، لكنه ما زال حيًا بداخلي، الفتى الذي عده الجميع في حسابات الموتى، ولم يترحموا عليه وعلى أيامه، الفتى الذي كان يسأل دائمًا ، الأحمق! يسأل رغم أن السؤال في بلادنا يعد أبشع الجرائم، لكنه كان يكبر بداخلي وينمو يومًا بعد يوم، صيفًا بعد شتاء . وأحدثها أيضًا عن ذلك الجديد ، الذي يرضى بقول الجميع ويرضى بأحاديثهم، ويهز رأسه إيجابًا وموافقةً ولو لم ينتبه لما يقال، لكن ما لا يعلمه أحد أن ذلك الذي يجلس معهم يمشي بأمر من الآخر الذي يحسبونه قد مات، وأن الأحاديث التي يرتضيها منهم يرتضيها من غيرهم ممن يقطن تلك الأرض بكل حدودها ، ولا يلقي لحديث أي منهم بالاً ، لا يعلمون أنه عندما ينزل بأي أرض يتحدث مع أهلها بلهجتهم كأنه منهم، لا يعلمون أنه حي في كل بلدة، وله بكل أرض اسم وصفة تتماشى مع أهلها ، لا يعلمون أن رضاه ورضوخه كان قناعًا مناسبًا يرتديه ليعيش الحياة التي يرتضيها دون اللمز والسباب الذي ناله لأعوام طويلة، والعزل الذي طاله وطال أمه، لا يعلمون أنه لوقت طويل حاول أن يقنعهم بالحسنى، حتى جاء يوم ظنوه قد أفاق من غفوته وهرطقته، ولكنه ذلك اليوم، كان قد انتهى من إعداد القناع، الذي بدا أنه أعجبهم كثيرًا .

كل هذا كنت أحكيه في كلٍ مرة ألتقي والبحيرة، وأشكو لها أوجاعي ومخاوفي، وكانت تستمع ولا تقاطعني.. كانت حقاً نعم الصديقة.. لكن صديقتي ذلك اليوم بدت متكدرة وحزينة!

كنت أتحدث معها بصفو كعادتي لكنها بدت ذلك اليوم لا تسمع، أحسست أن أمواجها الواهنة هي من تريد الشكوى والبكاء وأن الصفاء الذي خلب لُبي بها تكدر وتعلقت به شوائب الغم الذي لا تصل مكائده إلا للبشر، فكيف تصل لهذا الماء الكوثري البريء؟! سألت نفسي، أشكواي هي السبب، أم أن ما لوثها كان شيئًا آخر؟

كان علي أن أعرف منذ ذهبت إلى الضيعة التي بها البحيرة أن هناك ما تغير بها، وفي طريق العودة التقيت بما خفي عني أثناء قدومي، الشوارع الفارغة إلا من قليل، حتى الموجودون كانوا حزانى وشاحبين وملامحهم تفيض بألم مكتوم، حتى الأطفال اللاعبون لا أثر لهم، فقط قليل من القطط والكلاب يعربدون بالطريق بلا هدى ولا مقصد.

وعند البحيرة عندما أطلقت بصري صدفة، اصطدمت بحواجز كثيرة تقطع البحيرة والأرض إلى مدى بعيد يوحي بأن ذلك يسري على حدود الضيعة جميعها، كانت الحواجز كثيرة ومنسقة بانتظام، لم أفهم لذلك وقتها معنى، ولكنني أدركت أن تلك الحواجز هي سبب ضيق صديقتي.. البحيرة.

قمت، لملمت أوراقي التي أفرشها دائمًا عندما آتيٍ إلى هنا، واستعددت للرحيل قبل أن أضطر إلى إشعال قنديلي ككل مرة، ورحلت.. تاركًا البحيرة غارقة في صمتها، والضيعة بأكملها تذوب في هالة من الذبول تعمها من الشرق إلى الغرب، ومن شمال أرضها وحتى الجنوب، رحلت وأنا مقتنع أن تلك الأرض الصبية لا بد أنها سقيت بسائل أفقدها النضارة التي عهدتها فيها منذ عام أو يزيد، لكنني بقيت على حيرتي، وفي طريقي نحو المنزل أخذت أتساءل، يا ترى من ذا الذي سقاها.. ذلك السائل اللعين؟

• • •

ظللت تلك الليلة ساهمًا أفكر بأمرها وأمر تلك البلدة بأكملها، فتلك البلدة تحديدًا كانت وما زالت ذات معزة خاصة بقلبي، لم أعلم السبب ولا المسبب، فقط أدركت حبي لها منذ الخطوة الأولى لي بها منذ زمن مضى، لقد عهدتها مختلفة دائمًا، لها طابعها الخاص الغارق في شرقيته الأثيرة، طاغية بجمالها وتجددها وأروقتها المقدسة، عهدتها دائمًا أرضًا للفرح والجمال والسحر الذي حَلّله خالقي وخالقها، متزينة دائمًا، وفاتنة بطبعها؛ لذا فكان أمرًا مُرًا، أن يأتي اليوم الذي ألقاه فيها وبحيرتها التي تتسم بطباع أمها البكر في كل شيء، في هذا الحال، وبهذا اللقاء الجاف الأجوف المعبقة أجواءه بالصمت الكئيب.

• • •

في الصباح، كان أمامي عدة لقاءات علي القيام بها، بدءًا من الجدة رحيل وحتى لُبيّبة التي تريد لقائي على غير العادة وحتى رجوعي للاستعداد للعمل مع أمي، وبالتأكيد كان علي أن أحذف المشوار إلى رافدة؛ لأنه كالعادة، بلا قيمة.

صحوت صباحًا على طرقات أمي، سألتني عن يومي فقلت لها خط سيري، قالت أنها أيضًا تستعد للخروج وهو ما لم يحدث منذ ما يقارب العام، سألتها عن السبب لكنها رفضت الإجابة واكتفت بـ:

-كما لم أسألك عن سبب لقائك بلُبيّبة اليوم لا تسألني أنت أيضًا أين سأذهب أنا.

-ولكنني حقًا لا أعلم لماذا سأذهب!

-صدقني ولا أنا أيضًا!

اكتفت بذلك بجانب ابتسامتها الرصينة، وانطلق كلٌ منا يستعد لطريقه، وبالتأكيد لم يخفَ على أمي أن تجعلني أرحل أولًا، ثم خرجت هي نحو طريقها الذي أجهله.

• • •

اتجهت نحو منزل جدتي رحيل التي تسكن منزل بنتها زهرة، المتزوجة منذ ما يقارب خمسة عشر عامًا من رجل كثير السفر بسبب عمله، والتي تملك من الأبناء فتاة، أسمتها على اسم والدتها. رحيل.. مأزقي وشباكي، العالق أنا بها، لا أستطيع الموت فيها ولا أستطيع النجاة.

نزلت على السُلم سريعًا كما أخبرتني عمتي زهرة نحو غرفة جدتي رحيل، والحمد لله في مقدمة لساني لأن رحيلًا كانت نائمة نظرًا لأنني أتيت قبل ميعادي بساعة كاملة، طرقت الباب فأذنت لي الجدة بالدخول سريعًا، فتحت الباب، كانت تجلس على طرف سريرها في جلباب زهري فضفاض وتستند بذقنها على عصاها المزركشة، وتحييني ببسمتها الهادئة:

-كيف حالك يا صديقة أمي؟

قلتها مداعبًا؛ فأطلقت ضحكة خفيفة وقالت برصانة:

-بخير، وأمك أيضًا بخير.

-أتتنبأين؟!

-ليس تمامًا، ولكن هذا الوجه البشوش لن يرافقك لو كانت أمك ليست بخير.

ابتسمت فقط، فتساءلت أمامي بنية برعت في إخفائها:

-رحيل نائمة أليس كذلك؟

قلت بتوجس متصنعًا عدم الاهتمام:

-نعم، تقريبًا، لا أدري.

تبسمت وأمرتني بالجلوس بجانبها ثم أردفت:

-أتعرف لماذا دعوتك للمجيء اليوم؟

تسارعت أنفاسي، وشعرت بعبء يعتلي صدري، كانت نبرتها ونظراتها كأنها تدري أمرًا ما استدعتني لمناقشته، ولم أكن أنا من الذين يفضلون مناقشة الأمور المبهمة..

-لا أعرف، لأجل شيء تريدين توصيله لأمي بالتأكيد؟

-بالتأكيد لا.

زاد الشعور بالمأزق حتى بدأت حبات العرق تنفصد أعلى جبيني، قالت:

-دعوتك لأمر يخص حفيدتي.. رحيل.

ضربت الكلمة أعصاب قلبي، لم أعرف كيف أجاوب وبماذا يمكنني الرد، لكنني تمسكت بخيط الهروب الأخير، وقلت:

-أهناك شيء مستعصٍ عليها بأي مادة وتريديني أن أشرحه لها؟

ضحكت نصف ضحكة، وقالت بصوت خافت:

-هذا ما تقوله لأمها عندما تريد أن تحظى ببضع لحظات تراك فيها عن قريب ودون رقيب.

التقطت أنفاسي بصوت عالٍ، حتى بدت كشهقة خروج الروح، ربتت هي على كتفي مخففة وهي تقول:

-أعلم أن لا دخل لك بالأمر كله، لكنها تحبك، هكذا رماها القدر، وهي لا تخفي شيئًا عني، ولولا الهوس الذي يصيب أمها بكل ما يتعلق بمستقبل وسمعة الصبية لكانت أخبرت أمها أيضًا، وأنا لو لم أكن أعلم من أنت وابن من، لكنت منعتها عن ذلك فورًا، لكن لك أن تعلم، إن شُميّسة عندما وجدتك ربتك، وأشركتنا كلنا في تربيتك، أنا أمك أيضًا كما هي وكما هو حال شرقية ورافدة.

صمتت قليلًا ثم عاودت:

-أنا أعلم أن يومي يقترب لحظة بعد لحظة؛ لذا فقد أحببت أن أعرف منك ما هو شعورك تجاهها، أم رحيل يا بُني لو علمت بهذا الأمر لن ترضى بالتأكيد؛ فعندها من اعتقاداتها الغريبة ما يمنع رضاها عن حب رحيل لك، وأنا على أية حال، جدتها ولا حكم لي عليها. ولكن أخبرني فقط.. أتحبها حقًا؟

قلت ساخرًا:

-أم رحيل لن ترضى لأنها تراني فتًى طيبًا على أي حال، لكنني لقيط وابن ليل، أليس كذلك يا جدتي؟

ارتبكت وقالت:

-يا بني...

-ألست أنتِ وهي من تقولان دائمًا أن هذه الأرض تنجب أبناءها، وأن الأنساب جميعًا تعود عند أب واحد، وأن المهم هو التربية والأصل والالتزام بالعرف والتقليد؟!
ألستم أنتم من لا يكفون عن ترديد شعار الوحدة وأننا جميعًا نرجع إلى أصل واحد.. أبانا، أفضل إخوته، وعلينا أن نتحد ونتآلف لأنه لا خير في أهالي هذا الحي لنا؟

-أنت...

-ألستِ أنت وابنتك من قلتما أن شميسة عندما تربي سوف يكون ولدها سيدًا شريفًا في يوم من الأيام؟

التزمت الصمت، وقمت أنا هاربًا بعدما أحسست أن حديثي أوصلها لأنْ ألجم لسانها، وهو المطلوب، قلت وأنا واقف عند الباب أستعد للخروج:

-حفيدتك يا جدتي صغيرة وطفلة، يومًا ما ستكبر وتعلم أن هذا كان محض طفولة ليس أكثر، ولا تخافي ولا تخَف ابنتك على ابنتها، أنا ما لي منها شيء، يمكنك من اليوم فصاعدا أن تعتبريها أختًا لي ولو ظنت هي غير ذلك، ولو أن ذلك قد يزعج والدتها في كون صعلوك لقيط مثلي يعتبر نفسه أخًا لفتاة مثل رحيل، فاعذريني، واطلبي منها الصفح عني، إلى اللقاء.

قلت، وأنا أقذف باب الغرفة خلفي، وأنا أظن أنني بذلك قد ثبتُّ المسامير في نعش حب رحيل الطفلة، التي لا أحبها ولم يكن لي أن أحبها أبدًا.. أو هكذا سمحت لذاتي أن تعتقد.

• • •

كانت الساعة الثانية والنصف، عقدت العزم على أن أمر بالمنزل لأرى أمي وأنعم بقسط من الهدوء بعد المعركة المزيفة التي دارت بيني وبين جدتي رحيل، ذهبت، فلم يكن هناك بالمنزل غير الفراغ، أمي لم تعد بعد.

ألقيت بنفسي فوق أول كرسي التقى بي، مددت ساقي الطويلة إلى الأمام، وعلقت عينيّ بسقف الغرفة، وغفوت.

• • •

استيقظت من النوم فَزِعًا على كابوس لا أتذكره، لكنه كان كفيلًا بقيامي مخطوف اللون وقلبي يتلجلج بين قدميّ، لا أعرف ما السبب، لكنني دون تخطيط قمت مباشرة نحو الشرفة، كان المنزل يستعد للظلام تمامًا، بينما الشارع من أسفل فارغ خال من الأصوات، حتى صوت الحصان الذي يصهل طوال النهار في منزل جارنا رزق، صمت هو الآخر، أدرت عنقي في حركة لا إرادية نحو الساعة، كانت السادسة!

صحت باسم أمي مذعورًا بصوت كان متعبًا وهنًا ولم تصدر إجابة، أخذت أدور في المنزل بلا هدى، فلم تكن أمي ولم يكن غيرها، فتحت غرفتها، كانت مرتبة ومنظمة والخزانة مغلقة كأن من بهذه الغرفة سافر مؤخرًا!

بقيت على حيرتي والتفاتاتي، حتى أتاني صوت من الخلف أدار عنقي تلقائيًا، كان مواءً!

هرة سوداء بشعة بجفاء بعين واحدة والأخرى ممسوحة أو مخزوقة، عرجاء، تسعى نحوي بصعوبة على قدم واحدة وكأنها تفر من شيء، أو ربما تسعى إلى شيء، حاولت إخافتها كما تخاف القطط بتهديدها برمي شيء أو النظر لها بغضب؛ فظهر في عينيها ما يشبه السخرية، وظلت تزحف، وشفتاها تنفرجان عن ابتسامة، لكن ما هذا الذي بفمها، لسان مشقوق!

أغلقت باب الغرفة قبل أن تصل، وأخذت أستعيذ وأستغفر، ظننت أن عيني تخدعني، لكن هذا الصوت اللعين، في لحظة تموء كأنها تستنجد، وفي لحظة أخرى تموء بانتصار ونشوة، أهي الحقيقة، أم أن أذني متواطئة مع عينيّ على خداعي؟!

دوت طرقات قوية على الباب الخارجي، تهلل وجهي وأنا أتذكر أمي، بالتأكيد هي الطارقة، ولكن أمي تملك مفتاحًا، ما الداعي إذا إلى الطرق؟

علا الطرق بغضب، وتعالى معه مواء القطة نشوة وسخرية فقط، وكأن النبرة المستكينة في صوتها لم تعد لها حاجة، اقتربت أكثر حتى صارت تخرمش الباب في غضب، وصوت القطة يعلو، وصوت الطرق يزيد، قلت مستغيثًا بأعلى ما امتلكته من نبرة صوت:

-أمي، افتحي بمفتاحك لا يمكنني الخروج، هناك شيء ما عند الباب.

لم يجبني أحد، وصَمَتَ مواء القطة واستحالت خربشاتها على الباب إلى سكون!

انتظرت لحظات، لم يكن هناك صوت تمامًا، ناديت أمي مجددًا، فلم يجب أيضًا أي صوت، وعم السكون من جديد . فتحت باب الغرفة قليلًا أنظر إلى الخارج، كان كل شيء كما هو، لا قطة ولا طرق ولا صوت، فتحت الباب أكثر أنظر إليه من الخارج، لا آثار لخربشة قطة، ولا أي شيء، خرجت للصالة، كانت منيرة تمامًا والضياء يعمها، اشرأبت عنقي أنظر من الشرفة المفتوحة من بعيد، أسواق وأصوات المارة هنا وهناك وصهيل الحصان الوحيد، نظرت للساعة في حركة تلقائية، الثالثة وخمس دقائق!

عاد الطرق من جديد، لكن تلك المرة كان أخف وطئًا وأقل حدة، هرعت نحو الباب وأنا ما زلت على حيرتي، لم أقل "مَن"، فقط اقتنعت أنها أمي وسأفهم منها ما كل هذا الذي حدث، لكن الطارقة لم تكن هي . . كانت رحيل.

-كيف حالك؟

في أناقتها المعتادة وشعرها الساحر، تحمل حقيبة صغيرة وتقبض براحتيها فوقها، قالت كلمتها وهي تضيق عينيها مرحًا، وأتبعت:

-أطرق عليك منذ الصباح، أين كنت؟! نائم على أذنك أنت أم ذهبت لزيارة أهل الكهف؟

نظرت خلفي مباشرة، أنفاسي قد تهدجت والصوت بالكاد يخرج، قلت لها بصوت متقطع وحروف مبعثرة:

-أنتِ كنت الطارقة؟! هل سمعتِ صوتًا وأنتِ عند الباب؟

هزت كتفيها مستنكرة وهي تقول:

-صوت، أي صوت؟! لم يكن هناك أي شيء .

لم أعرف كيف أجاوب، لكنني تذكرت شيئًا فقلت متعجلًا :

-ما الذي أتى بكِ الآن، وأين أمي؟

ضحكت بلا مبالاة تستفزني:

-أما عن أمك، فلا أعلم عنها شيئًا، لكن عن حضوري، أتيت لأقدم اعتذاري .

تغيرت أمارات وجهها للنقيض وهي تنظر في الأرض بخجل وتقول بصوت صادق:

-لقد فهمت الأمر كما لا يجب أن تفهمه، وما قلته لجدتي خاطئ تمامًا، صدقني أنا أحبك وأمي لن ترضى بهذا فقط لأن كلينا صغير السن، لكني والله أحبك، أحبك.

صوتها بـ"أحبك" كان دافئًا كما لا تكون أصوات البشر، شعرت لوهلة بالراحة، لم أتحدث بينما قالت وهي ترفع عينيها لعيني بذات النظرة المرحة:

-وأنا هنا الآن لأهديك شيئًا لعله يكفر الخطأ الذي لم أرتكبه، لكن لكي تعرف أن رضاك هو ما أحتاج فقط من تلك الدنيا.

-أي هدية؟!

تراجعت للخلف بضع خطوات وبسمتها ما زالت تعلو الثغر المخضب بحمرة ربانية، فتقدمت من أمامها، بنفس عرجها المقيت وعورها وسوادها ونابها المصفر، ولسانها المشقوق..

-لكي تعرف أن رضاك هو فقط ما أحتاج من تلك الدنيا، أيها اللقيط!

قالتها وابتسمت.. والهرة السوداء تتقدم، وتفغر فاها عن اللسان المشقوق، ثم رفعت قائماها الأماميان بأظافرهما الطويلة نحو الباب تخربشه من جديد، لكن هذا الباب كان حديدًا، وصوت صراع الحديد بأظافرها آلم أذني، تراجعت فتقدمت نحوي أكثر وأكثر.. ورحيل أخذت تردد ببشاعة:

-يا لقيط، يا لقيط، يا لقيط..

استيقظت فزعًا من فوق الكرسي الذي استقبل جسدي فور دخولي، فركت عينيّ تلقائيًا وأنا أستعيذ وأستغفر، كان كابوسًا بشعًا، نظرت نحو الساعة، كانت الثالثة إلا ربع.

كل هذا الكابوس وكل تلك الأحاديث حدثت في ربع ساعة!

قمت.. شهقت مرات وزفرت مرات وأنفاسي تعترض طريق بعضها البعض، حمدت الله أنه لم يكن إلا كابوس واستعذت أكثر وأكثر من مظهر الهرة فيه وقول رحيل، يا الله.. كان ذلك مفزعًا!

قلتها سرًا وانطلقت أبحث بين أرجاء البيت عن أمي، كان فارغًا للمرة الثانية! كان صدري مختنقًا وضيقي الذي لا أجد منه مفرًا يسري بين أوصالي، اتجهت نحو الباب، التقطت المفتاح الذي رمي بإهمال فور دخولي، أغلقت الباب خلفي وأنا أهم بانتظار لُبيّبة عند البحيرة، من الآن.

• • •

كنت أعرف أن "بحيرتنا" التي قصدتها لُبيّبة في جوابها المقتضب، هي البحيرة التي كنا نلتقي عندها عندما كنا صغارًا، وقبل أن تصبح امرأة شابة لا يجوز لها مواعدة الشباب! وأن "الميعاد القديم" الذي قصدته، هو الساعة الرابعة عصرًا.. كما كنا نلتقي لأعوام مضت في طفولتنا. تخيلتها.. كيف أصبحت تلك الطفلة صاحبة العينين السماويتين والشعر الليلي؟ لُبيّبة التي خلقها الله من أصول الطبيعة، كيف غيرها الوقت والظروف والفصول المتابعة، أتراها قد أصبحت أكثر جمالًا؟

تساءلت، وتساءلت أيضًا، كيف ستصبح لُبيّبة أجمل مما كانت! هل هناك أجمل مما كانت عليه لبيبة؟! وبراءتها.. ترى كيف صارت، هل طمرت بين ملامح الأنثى ومنحنياتها، وشعرها الفاحم.. يا ترى كيف صار الآن طوله؟ أو أنها صارت تقصه تماشيًا مع التقاليع والعادات المستحدثة بين الصبايا الكواعب ممن هن في مثل عمرها؟ صوتها.. أما زال فردوسيًا؟ أم أن صراخ الفتيات وضحكاتهن المائعة أثرت عليها وعلى صوتها فأصبح كأي صوت لأي بشرية؟!

هل صارت ترتدي القصير والمكشوف؟! سنتان يا لُبيّبة مرت على فراقي لكِ، فلماذا تقلبين خيالي رأسًا على عقب بميعادك المبهم؟

نظرت إلى الساعة على معصمي، الرابعة إلا خمس دقائق.. مرت الخمس دقائق مُرة ورتيبة وبعد قليل نظرت مجددًا، الرابعة ودقيقة.. صحت في ضيق:

-تخلين بمواعيدك من جديد يا لبيبة؟!

مرت دقيقتان طويلتان يملأهما الغضب، هممت بالرحيل واستدرت فعلًا بعد أن كان وجهي

مقابلًا للبحيرة، وأنا عاقد العزم على الرحيل، لكنني اصطدمت بها أمام عيني، فسكن كل الغضب، والحركة، ولم يعمل إلا عيني، تطالعها بصمت وهدوء..

-لُبيّبة.

همست بها وأنا أثبت حدقتي على الملاك الذي يهل من بعيد، متألقًا في زي عذراء بتول أطلت من السماء الآن، تهل من بعيد في رداء فضفاض وتثبت فوق رأسها حجابًا طويلًا يكاد يتصل بطرف الثوب المخملي الأحمر الداكن.. فستان طويل يحكم الإمساك على خصر من مرمر، وينسدل حتى الأرض كشلالات مضيئة.. مستحيل أن تكون تلك التي تقترب مني بشرًا، فلُبيّبة في جوابها لم تخبرني أنني سأقابل بشرًا يرتدي النور في رداء صنعته حوريات الجنة..

اقتربتْ أكثر، فتأملتها أنا أكثر، أشارت بيدها تسلم عن بعد، وهي ترفع وجهها الذي كانت تخفيه في غطاء الرأس الشفاف، اقتربت تمامًا حتى صارت تقف أمامي مباشرة، وهالتها الملائكية من بعيد تضاعفت مرات ومرات عندما تمركزت أمامي ببسمتها الساحرة وبؤبؤها المتسع المختلطة ألوانه كأمواج البحيرة التي نقف أمامها، لا أدري لِمَ أحسست بالدوار من طغيان شذاها وعبقها المنير:

-من أنتِ؟

تبسمت أكثر.. فانفرج ثغرها عن حبات اللؤلؤ المرصعة والمتراصة بعناية. وقالت:

-لبيبة، وهل هناك غيرها؟

-لبيبة، بكل هذا الجمال!

ضحكت بخفر، وقالت مازحة:

-وهل كانت لُبيّبة من قبل قبيحة؟!

-كانت.. إنسية جميلة، لكنها اليوم ليست إنسية، ولكنها جميلة، جميلة جدًا، جميلة حد الاستحالة!

زاد حياؤها حتى احمرّت وجنتاها كما كان يحدث قديمًا، قلت بصوت حالم خالٍ من أي شائبة:

-لم أكن أعرف أن سنتين كاملتين مدة كفيلة بكل هذا التغير.

صمتت، وصمتُّ، لكنني استدركت وقلت متسائلًا، بينما تقدمت هي وجلست عند الشاطئ:

-ارتديتِ الحجاب؟

هزت رأسها إيجابًا مبتسمة، جلست بجانبها، قلت مستدركًا:

-لم أكن أعرف أنكِ صرتِ تمتلكين أختًا.

ضحكت بخفة وقالت:

-بل تعرف لكنك تنسى كثيرًا، عندما انقطعت صداقتنا كان عمرها سنتين.. اسمها رحمة.

أزعجتني الكلمة بينما غمزت بعينها وهي تلكزني بكتفها:

-أول حرفين يشبهان أول حرفين في اسم حبيبتك.

صدمتني الكلمة وصدمني أكثر معرفة لُبيّبة بمثل هذه الأمور، لكنني قلت:

-أحقًا يا لُبيّبة انقطعت صداقتنا؟!

-أنت تهرب.

-جاوبيني.

زمت شفتيها للحظات، ثم قالت مندفعة:

-حسنًا، لم أكن أقصد ما فهمت، لكننا أيضًا لا يمكننا أن نغفل عن أننا حقًا انقطعنا ولم نعد أصدقاء منذ أكثر من عامين.

-ليس ذنبي يا لُبيّبة.

صمتنا تمامًا لبضع دقائق، رفعت رأسها لأعلى وبتلقائية فعلت أنا، كان سربٌ من الحمام الأبيض يمر مجتمعًا على شكل رقم ثمانية، وأجنحتهم تضرب في الهواء كما هو حال الأحرار، قالت:

-أتسمع هديلهم؟

-يشبه صوتكِ.

-لم تقل أننا حينما نلتقي ستقضي اليوم بأكمله تغازلني.

ضحكت وقلت:

-أنت من طلب اللقاء وليس أنا.

-نعم أنا.. جئت لأخبرك بشيء هام، أنا مسافرة.

-مسافرة؟ وستعودِين متى؟

-مسافرة، ولن أعود.

خفق قلبي مرارًا على وقع كلماتها، قلت بصوت جاهدت ليكون متزنًا:

-إلى أين؟

-لبلادي، سنعود لنعمر دار جدي من جديد، ويزرع أبي أرضنا هناك بالزيتون ونكسب من رزقه، ستعود أمي لتخبز داخل المنزل، وتتربى أختي بين مروج ضيعتنا الواسعة، وأعيش بين عماتي وأخوالي، ويومًا ما سأكبر وسأتزوج شابًا مزارعًا من ضيعتي، يشبهني، ونعيش سويًا.. لقد جئت أودعك، وعليك أن توصل وداعي هذا لرفيق.

-تريدين أن أخبر رفيقًا بأن لُبيّبة تقول أنها ستتزوج يومًا ما شابًا مزارعًا من ضيعتها، تشبهه ويشبهها! أخبريه أنت إن شئتِ.

تنهدت بمرارة:

-ليس هذا ما قصدته، لكن غربتي قد طالت، وأمي تشتاق لإخوتها، وأنا أيضًا اشتقت لبلادي التي ولدت فيها، وأريد أن أعود، وليس لي هنا غيركما؛ لذا فلقد جئت، أودعك.. فهل يمكن أن يمضي اللقاء بسلام، هذه آخر مرة قد تراني بها، دعنا نتحدث بروية، حتى تتذكر ذلك اللقاء بخير كلما تذكرتني.

-حديثك زاد حكمة أيتها الطفلة.

ضحكت:

-لم أعد طفلة.

-ستظلين طفلة في عيني، إلى الأبد . . وأما عن رفيق . .

-رفيق كان حلمًا بديعًا، لكن حتمًا كنت سأفيق منه يومًا من الأيام.

-ما زلت تحبينه؟

زاد احمرار وجهها وهي تنكس رأسها لأسفل وتقول خافضة صوتها على قدر ما استطاعت:

-نعم . .

-وهو أيضًا .

-لكن . .

قاطعتها:

-أتعدينني . . أنه إذا استطاع تدبير نفسه وأتى لخطبتك . . أنت ستوافقين؟

تبسمت وقالت بصوت أعلى:

-نعم، أعدك بأنني "أنا" سأوافق.

كنت أقول هذا الحديث لكن شعورًا ما بداخلي يدفعني دفعًا إلى إطالة النظر في وجه لبيبة، كانت نفسي تلومني على ما أفعل، فأنا منذ مدة أعتبر لبيّبة صديقة وحبيبة وقريبًا ستصبح زوجة لرفيق . . أخي، لكنني في اللحظة بالذات، شعرت بالامتنان لأم لُبيّبة وأبيها؛ لأنها لو لم تعزل لُبيّبة عني بكل فتنتها تلك لكان الحال الآن قد تغير، لقد أدركت والدتها مدى السطوة التي ستعتمل في ملامح بنتها يومًا بعد يوم، كانت لُبيّبة ماسة، تستحق الخلود في مكان ما بعيدًا عن عيون كل البشر:

-لماذا تتهرب من رحيل؟

تنفست بقوة، قلت:

-ما الذي أوصل لك خبرها ؟

-هي من جاءتني، كانت تظنني حبيبتك، وجاءت تحدثني في مدرستي وهي غاضبة وحدث ما يشبه الشجار، لقد ذاع صيت ذلك اليوم كثيرًا وتطلب الأمر مدة قبل أن يمكن محوه من ذاكرة الطالبات من زميلاتي.

-المجنونة!

قلتها وأنا أطرق فوق رأسي، ضحكت وقالت:

-ليست مجنونة، إنما هي عاشقة.

-بل هي طفلة.

-هذا ما يظنه أمثالك، تسخرون من حب العذراوات الصغيرات وتقولون إنه طفولة، ولا تعلم أنت ومن على شاكلتك أن الصبية لا تكبر فقط عندما يتغير جسدها وتزورها زائرة كل شهر، الصبية تكبر عندما يطرق قلبها للمرة الأولى طرقة لا تعتادها، طرقة يرقص فيها القلب وتزدهر الروح منتشية بطهارة، عندما تتردد أغنيات الحب في لسانها بدون قصد، وتتورد وجنتها عندما تستمع إلى اسمه، وتشعر بالحماية عندما يحدثها صوته، هذا الحديث لن تراه إلا في الشرقيات مثلي ومثل رحيل.. رحيل تحبك، لا تخذلها أرجوك.

-إن أحببت رحيلاً، أنا من سيصاب بالخذلان.

-كيف؟!

-انظري، لقد عدت للذهاب إلى المدرسة من جديد، وأصبح الجميع يراني بغير الصورة القديمة، لقد صرت أكثر تعقلا وانفتاحًا، وأحاديثي وتساؤلاتي اختلفت تمامًا لكن ما لا تعلمينه أن هذا كله..

-أعلم بزيف الأمر كله، وأعلم أيضًا أن رحيلاً ستحبك في أي وقت وبأي شكل.

نظرت نحوها مبهورًا:

-كيف علمتِ؟!

-لقد عاشرتك سنوات، أعلم من تكون، وأعلم كم أنت ذكي، وأعلم أيضًا أن كل هذا هو فنك في مجاراة الأمور ليس أكثر، لكنني أشعر، أنك ستثور يومًا ما، وهو ما يقلقني.

ابتسمت:

-سأشتاق لكِ، سأشتاق لعينيك وخجلك وفرحتك وحديثك، ذهابك مأساة لي يا لُبيّبة.

قامت واقفة وهي تنفض ذرات الرمال عن ردائها وغطاء رأسها الطويل:

-وشوقي لك أكثر، لكنني لا أقدر أن أبوح بمشاعري جميعها، ولذلك لن أرى رفيقًا قبل رحيلي لأنني لو فعلت. قد يقودني الجنون إلى الرحيل معه بعيدًا، وهو ما لا يليق بي ولا به.

خفضت صوتها وقالت:

-أخبره كم أحبه.

-ستخبرينه أنتِ، وسيخبرك هو أيضًا بحديث طويل بينك وبينه، يوم أن يأتي لخطبتك.

ضيقت عينيها وقالت بمرح:

-منزل جدي طابقان، بعد دخول الضيعة ستمضي ثلاثة شوارع والرابع هو شارعنا، منزلي مميز، لون جدرانه من الخارج كلون الثوب الذي أرتدي، أمامه هناك حديقة صغيرة من زهور النرجس تحوط المنزل من كل سنابكه، ستجده صغيرًا بالنسبة إلى المنازل التي تحوطه، لكن أقسم أنك ستستشعر البسمة على شرفاته، وعبقي يملأه.

-أحب الثقة التي تملأك.

ضحكت كما ينبغي للحوريات أن يضحكن، كاشفة على اللآلئ في ثغرها الوردي، وقالت بحركة مسرحية:

-شكرًا سيدي.

ثم أتبعت بدفء:

-إلى اللقاء.

همت بالرحيل، فاستوقفتها:

-لبيبة.

نظرت إليّ:

-سآتي لزيارتك قريبًا . . قريبًا جدًا .

تبسمت بصدق، وقلت أنا بصدق أيضاً:

-وأعدك، أن أفكر في أمري وأمر رحيل.

قالت منبهة:

-لا تخسرها . . رحيل تحبك بصدق، أي نعم هي صغيرة الآن، لكن لا شيء يدوم على حاله في هذه الدنيا . . إلا الحب الصادق.

علا صوتي:

-وأنا أحب يا لبيبة، أحبك وأحب رفيقًا، وأحب هذه الضيعة رغم كل مشاكلها وحديثها البغيض، أحب الشمس التي تسطع كل يوم، والقمر الذي يلحقها، أحب الأموات كما أحب الأحياء، أحب أمي شُميّسة وعمي ياسين وجدتي شرقية، أحب الراهب بولس وأخاه مينا، أحب هذا الكون بأكمله، وأحب هذا الحي للغاية، أحبه حد الحياة.

أضافت:

-وتحب رحيلاً أيضاً .

همت بالرحيل، لكنني ناديتها مجددًا، نظرت لي بلوم مازح وهي تقول بصوت يمثل المعاتبة:

-ها، ماذا تريد أيضاً؟ علي الذهاب فذهابنا سيكون غدًا في الصباح ونحن لم نحزم حاجياتنا بعد .

-حسنًا، سأسألك سؤالاً واحدًا، ماذا يعني لُبيّبة؟

ضحكت، واقتربت أكثر حتى صارت أمامي مباشرة وقالت:

-انظر، هناك شيء اسمه "لُب" سكن داخلك، هو أنت . . عقلك وروحك وأسبر منطقة فيك، يعيش بك ومعك سواء أكان أمام عينك أم لا، بدونه أنت لا شيء، وبه . . أنت كل شيء .

- . . . . .

-هذا الشيء له تصغير وهو "لُبيّب" وله مؤنث وهو "لبيبة" . . صديقتك أيها الأحمق، وستظل صديقتك دائمًا .

ضحكت لآخر مرة وهمت بالرحيل، أطبقت على كفها، فنظرت نحوي باستغراب .

-ألم أقل لك كم أعشق الثقة التي تملأك !

صمتت، فقلت:

-سأشتاق لكِ .

هممت نحو جبهتها فقبلتها . . كانت أذنها تنام فوق فؤادي، همست:

-لقد كنت قد اعتزلت تلك البحيرة، لكن لأجلكِ فقط، أتيت إلى هنا .

فقالت:

-وأنا أيضًا سأشتاق لك .

أفلتت راحتها من بين يدي، ورأسها التي بالكاد لامست صدري، وابتسمت لآخر مرة وهي تطالعني، ورحلت، ولم يختفِ عبقها إلا بعدما توارت تمامًا، نحو طريقها، نحو منزلها، ثم نحو بلادها، بلا عودة .

• • •

-أخيرًا عدت !

قالتها أمي فور رؤيتي، كانت تفترش أرض الصالة بجانب الكرسي الذي كان فوقه الكابوس المفجع قبل رحيلي، كان بنبرتها شيء من ضيق، نظرت للساعة فور قولها، كانت التاسعة !

-تجولت قليلًا بعد انتهاء الموعد .

تغيرت أمارات وجهها وهي تقول مازحة:

-تقصد كنت تتسكع .

حاولت الضحك، وضحكت أنا أيضًا، لكنها أتبعت بعتاب:

-جاءني رجل وزوجته يطلبان علاجًا ولم يكن معي من يساعدني، لا تتأخر مرة أخرى بهذا الشكل، أنت تعلم أن نظري ليس بالحال الذي يسمح لي معرفة الأدوية من بعضها البعض، كان يمكنني أن أعطيهما دواءً خطأً:

-وماذا فعلتِ أنتِ؟

-صرفتهما لغد .

جلست بجانبها، وأنا أربت على كفها:

-آسف، لكن لا أريدكِ أن تتضايقي أرجوكِ.

-لن أتضايق، لكن أنت، ما الذي يضايقك؟

حاولت بجهد أن أخفي وجهي، لكنني كالعادة لم أستطع . .

-لا شيء .

-فاشل أنت في الكذب على كل البشر، فكيف لك أن تحاول الكذب على أمك؟! وهي التي تسير في أعماقك المتشابكة بكل سلاسة كما لا يستطيع أحد أن يفعل!

تبسمت، قلت بمرارة:

-صديقتي سترحل.

خبطت صدرها وقالت:

-لبيبة!

-نعم، ستعود لبلادها إلى الأبد .

هدأ روعها فور أن سمعت "لبلادها" وقالت بصوت هادئ:

-حسنًا، هذا اليوم كان آتيًا لا محالة، تعرف أنه من الأساس لم تكن أراضينا بلادهم، وكان عليك أن تدبر حالك ليوم كهذا، ألم يساهم العامان الماضيان في التخفيف من وطأة هذا اليوم؟

-إنني أشعر اليوم باشتياقي لها كما لم أشعر قبل هاذين العامين.

-ورفيق . . ماذا فعل؟

-لم يعرف بعد، سأحاول أنا إخباره.

ربتت على كتفي، سألتها أنا:

-أين كنتِ أنت؟

ابتسمت وقالت:

-ألم أقل إنه سر؟

-وهل تستطيعين أن تبيتي ليلتك وأنتِ تخفين شيئًا عن حبيبك؟

ضمتني بقوة، بينما قالت:

-كلا بالتأكيد، لكن ما فعلته اليوم ربما سيحتسبه الله بأجر، وإن قلت، قد يضيع ثواب عملي هباءَ، أيرضيك هذا؟ وأنا الآن في أقرب حالاتي إلى الأجر؟

فهمت القصد من كلمتها، اكتفيت بـ:

-حسنًا، لا تقولي، هيا الآن، تصبحين على خير.

ومضيت نحو فراشي، دون أن أخبر أمي شيئًا بأمر الحلم ورحيل.. والهرة السوداء.

• • •

باليوم التالي صحوت باكرًا، لأنني ببساطة لم أنم أصلًا، الليل قضي بين السهد والحيرة، وصورة لُبيّبة تحتل مخيلتي، وأنا أفكر أنها الآن قد تكون قد ركبت أول عربة لنقل الحاجيات وبجانبها أختها الصغرى ووالداها، لترحل بعيدًا عني وعن الأرض التي أسكنها، ذلك الصباح، ولا أدري لماذا، شعرت عندما استيقظت حقًا أن رائحة الجو الحلوة والعطرة دائمًا.. راحت، وكأن عبق لُبيّبة حقًا كان يملأها! وقتها فقط، أدركت.. أن لُبيّبة كانت الحقيقة الأجمل بهذه البلدة.. والآن قد راحت.. كماسة فازت بها ضيعتها بعدما كانت ضيعتنا نحن تقتنيها.. لقد خسرت هذه الأرض كثيرًا.. بذهاب لبيبة.

مر هذا اليوم مملًا، بعض المرضى أتوا من أجل أدوية أمي، ساعدتها على خلط بعض الأعشاب، ثم تناولت معها الغداء، جاء رفيق ليزورني رغم انشغاله بأحواله الدراسية تلك

الفترة، لم أخبره بأي شيء يخص لبيبة، ومضى اللقاء في سلام.

جاءني مرسال من عند جدتي رحيل، وهي طفلة صغيرة من شارعهم، قالت أن الجدة رحيل تريد أن تتحدث معي قليلاً، لكنني تظاهرت أمام الطفلة بالتعب وقلت لها أن تبلغ ذلك للجدة، أثار ذلك الشكوك لدى أمي، سألتني عن السبب فتظاهرت أمامها هي أيضًا بالتعب.. لكنها بالتأكيد لم تقتنع، ولكنها فضلت ألا تضغط عليّ وتتركني لحريتي.

مضت الدقائق تجر بعضها بعضًا إلى الساعة التاسعة، صليت صلاة العشاء واستأذنت من أمي وذهبت إلى غرفتي، وأنا عالم أنني لن أستطيع النوم بأي حال من الأحوال، وكالأمس، أمضيت الليلة ساهمًا ساهدًا، وكأنني ذلك الوقت كنت أعاني أعراض الانسحاب، ولم يكن لذلك عجب، فقد كان انسحاب لُبيّبة من البلدة حقًا يشبه انسحاب مخدر ما من جسد منهك، لكنه كان مخدرًا رائعًا يعطي هذا الجسد قوة ليصبر على أوجاعه ويرى الحياة في بهاء كاذب، لكنه على أية حال أعانه لفترة على تحمل الحياة، والآن.. يعاني الجسد المتخم بالهموم من أعراض انسحاب المخدر.. ولم يكن هناك مفر من أن يحتمل.

• • •

ثم تتابعت الأيام على هذا النحو.. بكل ما فيها من ضيق، مرات قليلة كنت أذهب لشرقية التي قالت أنني متغير، ومرات أقل كنت أذهب لرافدة، وقد بدا أنها لم تلحظ أي تغير. فقط استمرت بالحديث بلا توقف حتى رحلت، ذهبت مرة واحدة لبولس ومينا، بينما لم أمر حتى بالشارع الذي تسكنه الجدة رحيل وابنتها زهرة.. وابنتها رحيل. كان نظر أمي يضعف يومًا بعد يوم وحالتها الصحية تسوء. حتى جاء يوم أليم.. قالت لي به:

–أين نظاراتي يا ولدي؟

–فوق عينيك يا أمي!

–فوق عيني! إذاً لماذا لا أرى شيئًا؟!

–ربما لم تقومي بتنظيفها حتى تعكر الزجاج؟

اقتربت منها أسحب النظارات وأنا أنظفها في قميصي، قالت:

-الأمر لا يخص النظارات، لكنني كنت أعلم. . أعلم، شكرًا لك يا ربي.

-ماذا هناك أمي؟

-لا شيء يا ولدي، فقط أشكر الله، لقد سمح لي بالرؤية لمدة ست وسبعين سنة، أترى كرمه يا بني؟ أترى الحنان الذي يعاملنا به، ست وسبعون سنة لي عينان تطالعان الناس وتتفرسان بالوجوه، تنظران إلى البحر والسماء والسهول وتمتع حدقتيهما بكل الجمال الذي يحوطني، ولا يسلبه مني إلا الآن، يا الله، كم كان وما زال وسيكون دائمًا . . ربي كريم.

هبطت عند قدميها باكيًا:

-لا تقولي هذا يا أمي، لا تقولي أرجوك، أنت ترينني أليس كذلك؟

ربتت على كتفي وقالت:

-بالتأكيد أراك. كيف يمكنني ألا أراك وأنت نوري منذ ستة عشر عامًا؟ أنا وإن سلب الله مني روحًا وقلبًا سأراك أيضًا؛ فأنت محفور هنا، ونزعك من قلبي لن يكون حتى ولو نُزع قلبي من بين ضلوعي، سأستغني عن قلبي. . وأحيا بك.

• • •

جاء رفيق لزيارتي مرةٍ أخرى، كان الوقت الذي مضى علىٍ ذهاب لُبيّبة قد تخطى الشهر. . أخذ يتحدث طويلًا عن دراسته التي تؤلم رأسه، خاصة أنه في العام الثاني عشر الدراسي له، لكن رغم حديثه عن التعب والجسد المنهك والدراسة حتى الفجر، كان وجهة يبتسم، وخبر مهم على شفتيه يريد قوله لكنه يتراجع، تمدد فوق سريري وعندما اعترضت حافة السرير ساقه الطويلة، ضحك مرحًا وقال:

-أوه! حتى الآن لم يكبر هذا السرير، ألا تدرك أنك أصبحت أطول لذا فأنت تحتاج لحجم أكبر!

كان مرض أمي بالأيام الأخيرة قد جعل في جسدي وهنًا، حاولت فقط الابتسامة، لكنها أبت أن تخرج طبيعية، قلت:

-لا داعي، أنا معتاد عليه وأحبه، كما أنه اختيار أمي، واختيار أمي لا يرد.

أشار ضاحكًا في وجهي وقال:

-حسنًا حسنًا، لا تغيره.

سكن قليلًا، فقلت أنا:

-رفيق، ما بك؟

سهمت عيناه وهو يبتسم كأنه تذكر شيئًا وقال:

-لا شيء.

-تكذب عليّ!

ضحك بقوة وهو يعتدل في مواجهة لي، هو على سريري وأنا واقف بجانب الشرفة، قال:

-انظر، اليوم رأيتها، لا أدري ما اسمها أو ما هي صفتها، لكن صمتها الغريب يثير في نفسي سعادة كلما وقعت عيناي عليها، مختالة جدًا، وصارمة، وأنا لم أعتدْ على هذا النوع من الفتيات.

عقدت حاجبيّ عجبًا وقلت:

-من هي؟

-لا أعلم لها اسمًا، فقط أراها من بعيد، مدرستها بجانب مدرستي، أراها كل يوم في موعد الخروج، جميلة حقًا وغامضة.

صمتُّ، بللت شفتيّ استعدادًا بينما عاد هو يسرد مديحًا ووصفًا مبالغًا فيه وهو يصف تلك التي يصفها، استجمعت شجاعتي وأنا أنفض الوهن عني وقلت مثبتًا عينيّ في عينيه:

-أتعرف أن لبيبة سافرت إلى بلدتها دون عودة؟

انتفض جسده وكأن حية لدغته، قام من فوق الفراش فزعًا، قال:

-ماذا تقول؟

-لبيبة.. سافرت بلدتها.. ولن تعود.

أطبق كفيه فوق بعضهما البعض وظل يتحرك في الغرفة بحركة عصبية وأمارات الضيق تعتلي وجهه.

-منذ متى ذلك الذي تقوله؟

-ما يقارب الشهر.

ازداد احتقان الدماء في أوداجه وعينيه، قال صارخًا في وجهي:

-وأنت تعرف كل هذا ولم تخبرني!

أغلقت عينيّ عندما صرخ، ثم عندما انتهى تبسمت بسخرية وقلت:

-وأنت كنت تظنها موجودة، مع ذلك أتيت تخبرني عن غيرها!

صرخ:

-أنت لا تفهم!

-حسنًا، أريد أن أفهم منك.

قلتها بهدوء؛ فعاد يجلس وقد تحولت ملامحه إلى نقيض ما كان عليه منذ قليل، خفت صوته لكنه تحدث بنبرة حازمة:

-كان عليك أن تخبرني بما أنك تعلم.

-هي طلبت مني ألا أفعل.

صاح:

-ولكنني صديقك.

-وهي صديقتي.

كان يبحث عن ما يقوله، فلم يجد، قلت أنا صارمًا:

-انظر، أنت كنت تريد أن تعرف من باب حب التملك، أنت لم تعد تحب لبيبة، أنت فقط لم تنسَ أنها كانت ملكًا لك يومًا ما، والمالك، يمكنه امتلاك شيء آخر، أما المملوك، فلا مالكين له، كذلك لمّا علمت بتحررها، أحسست الآن فقط أنها ملك لك ولا يجوز لها أن تعبر حدود اعتقالك، لكن لُبيّبة ليست ملكًا لأحد يا رفيق، ليست ملكًا لأي أحد.

قال مندفعًا وهو يهم بالقيام ويشيح عني:

-مرض أمك أتعب عقلك، سآتيك عندما تصّح.

-انتظر.

توقف بجانب الباب، سألته بصوت صارم:

-أتحب لبيبة؟

أنزل كفيه علامة على التعب، وخارت أماراته حقًا، وقال يجاهد العبرات:

-نعم أحبها، أحبها للغاية، أحبها أكثر مما تتخيل.

-وما الذي اختلف؟

صاح بضجر:

-أمي لن تقبل أن يتزوج ولدها من غريبة، لقد كانت تقبل صداقتنا ونحن أطفال على مضض، وتملي عليّ دائمًا قولها بمنعي من مخالطة الغرباء خاصة الفتيات، وعندما سمعت قولًا يدور بين قريناتها أن ولدها رفيقًا صار يخالط البنت التي تمتلك عينين زرقاوين، ابنة أحد الدخلاء على البلدة، أخبرت والدي وكان ذلك اليوم فظيعًا، مر عليّ بشق الأنفس، ما لا تعلمه يا صديقي.. أن أمي هي من كانت السبب في منع لُبيّبة من مخالطتنا، فما إن سمعت والدتها القول الذي صدر عن أمي بما يخص الفتاة وأمها، حرمتها من الاختلاط بنا، وبي على وجه التحديد.

كان حديثه كماء بارد سقط فوق رأسي في ليلة شتوية، لم أكن قد سمعت هذا الحديث من قبل، كان قولًا طويلًا يعتمل في قلبي، لكنني تمسكت برباطة جأشي، وقلت:

-وماذا إذًا؟!

فهم مغزى السؤال؛ فتبسم بمرارة وقال:

-كان علي أن أعتاد على هذا الأمر، كان علي أن أنسى لبيبة، وأبدأ حياتي من منطلق آخر، أحب فتاة من بلادي ترضى بها أمي، وأدفن رفات الحب القديم بصحراء بعيدة، أو أمحوه تمامًا.

-بتلك البساطة يا رفيق؟!

مط شفتيه بوهن:

-هل تملك حلاً آخر؟

صدرت عني ابتسامة صفراء، لم تجربها شفتاي من قبل، وقلت بعد نظرات طويلة تبادلتها معه:

-أتعرف؟ لقد عاتبت لُبيّبة عندما قالت بجسرة أنها ستتزوج شابًا من ضيعتها تسليمًا للظروف، لكن لُبيّبة "الفتاة" وأنت تعرف ماذا تعنى فتاة في هذا المجتمع العقيم، أعطتني وعدًا بأنها ستقبل بك لو كنت رجلاً بحق وجئت تطلب يدها عندما تنهي تعليمك وتبدأ العمل به، لُبيّبة تمتلك رجولة لا تمتلكها أنت يا رفيق.

-اخرس.

-اخرج يا رفيق.

-تقول اخرج؟!

أومأت إيجابًا، ورحل.. ومن الخارج سمعت صوت الباب الذي صفعه بقوة، وصوت أمي من غرفتها تصحو فزعة:

-ماذا هناك يا ولدي؟!

تمتمتُ بيأس:

-لا شيء، لا شيء حقاً.

انطلقت نحو الشرفة، فرأيت خياله من أسفل القنديل الذي منح الطريق بعض الإضاءة، وصحت:

-اذهب يا رفيق، اذهب يا طبيب الغد، وارض أمك، واخضع أمامها وانسَ حبك لمجرد قليل من خرافاتها، لا تتزوج الغريبة يا صديقي، لا تتزوج من تتحدث بلسانك وتحمل قلبك وستصون عرضك، واضرب بهذا كله عرض الحائط من أجل ترهات لعينة لقنها أجدادك لأمك وحملتها أنت عن أمك مرضيًا، اذهب يا رفيق، اذهب ولا تعود مجددًا.

• • •

-اخرج يا ولدي رفِه عن نفسك.

جلست على حافة سريرها النحاسي القديم، وجسدها الممدد بجانبي ينتفض كلما سعلت، أمسكت براحتها بين يدّي:

-لا يمكنني أن أتركك الآن يا أمي.

-بل ستتركني وتخرج.

-ذلك لن يكون.

سعلت بقوة، ثم قالت:

-لو كان لشُميّسة معزة في قلبك، ستخرج الآن.

سعلت مرة أخرى ثم أكملت:

-لست أنانية لهذا الحد الذي يجعلني أحبسك بجانبي في المنزل عشرين يومًا، لا ترى فيهم الشارع ولا تطعم فيهم طعامًا طيبًا، وحتى صديقك رفيق لم يعد يأتي ولا أعلم السبب.

تصنعت الجهل أمام آخر جملة، فقط عدت أقول:

-يا أمي أنت متعبة، لا يمكنني أن أتركك في وقت كهذا، ثم إنني لن أستمتع حقًا لو خرجت وتركتك.

قامت تعتدل في جلستها، وهي تستند بظهرها فوق حائط الفراش، تبسمت وهي تدس يدها أكثر بين يديّ، وتحسست بكفها الآخر وجهي الذي لا تراه، قالت:

-وأنا سأظل مريضة إذا بقيت بجانبي، سأظل متألمة وسيزيد سعالي وتتدهور حالتي أكثر وأكثر، أيرضيك هذا؟

ترقرقت عيناي بالدموع غصبًا، قلت بوهن:

-بالتأكيد لا، لقد مضينا في طريقنا معًا وقتًا طويلًا يا أمي، أعرف فيه الناس، يأتون ويذهبون، بعضهم ترك المسيرة بعد بضع خطوات وبعضهم أكمل معي لمسافات أطول، بعضهم تخلى سريعًا والآخر احتاج لوقت قبل أن يقوم بهذا، البعض نعتني بالأبله والبعض كذب قولي، البعض قال فاشل، وكثيرون قالوا طفل لا قيمة له... إلا أنت، لم يكمل

الطريق سواك، ولن يكمله سواك، لم يواسِني بمحنتي إلا أنتِ، لم يجفف دموعي سواكِ، ولم تقبل جبيني إلا شفتاكِ. . أنت من تستمعين لحديثي بلا مقاطعة، تعدين لي الطعام الذي لا تفضلين فقط لأني أحبه، أشعر بالأمان فقط بين أحضانك، ويرسم الطريق لي صمتك وابتسامتك قبل حديثك، حتى حديثك القليل يرشدني بلا مشقة، كنتِ بجانبي كل وقت، وستظلين بجانبي. . كل وقت، يا شُميّسة. . . يا أمي.

جذبتني بقوة في أعماقها، وغصت أنا فيها، في حبيبتي، التقيت أناملها بجبهتي، قبلتها قُبلة دافئة، قوية، لا مرض بها ولا ألم، فقط الكثير من حبٍ ومودة. . وقالت:

-اذهب يا صغيري، اذهب. . وامرح كثيرًا، واعلم أن أمك ها هنا تنتظرك وستنتظرك دائمًا، اذهب وحقق مرادك ولا تخشَ من شيء، ولا تستمع إلى أحد، لا تستمع إلا لقبلك، لأنه طاهر وسليم، ولا يبغي إلا الصالح. اذهب يا ولدي وقل ما تشاء وافعل ما تشاء، واعترض على كل ما لا تريد أن تراه أو تسمعه، تحرر يا ولدي، تحرر من كل شيء، واعلم أن الله يحب الأحرار دومًا، طالما أنهم أحرار في ظله وطاعته.

-أحبك يا شُميّسة.

-وأنا أتنفسك يا ولد شُميّسة.

وخرجت، أحمل وصية أمي في قلبي، وحقيبتي على كتفي، وتركت روحي لدى أمي، بجانبها. . تحتضن الفراش الذي تنام عليه. . وتحتضنها.

كان الطريق يومها ممدودًا طويلاً، ربما لأنني أبطأت الخطوات في الذهاب، أو أن البلدة حقًا كانت تزداد في الضبابية الحالكة، كان تفكيري يقودني لأن أتركها وأتجه نحو بلدة لبيبة، لكن قلبي وقدمي لم يطاوعاني على ذلك، ربما. . لأنني حتى الآن، ما زلت مسلوب الإرادة، مع تلك البلدة دون غيرها.

كان الطريق منذ البداية حالكًا وأخرس، يشبه الفراش الذي يحمل جسد أمي المريض، كان جسدي هنا، وعقلي هناك، ما زال محاطًا بأنفاسها المعطرة وعناقها المشمس كاسمها ووجهها المنير رغم المرض والآلام. البلدة أيضًا كانت متألمة، موجوعة كمن طعنت بسكين في الخفاء،

وحدها بلا منجد ولا معاون، أحسست أن جدرانها تهوي وتخور ألمًا، ولا تملك من يعطيها قليلًا من المواساة. . كان هذا اليوم شؤمًا من بين الأيام، أمي والبلدة متعبتان في آن واحد!

وحتى وصلت إلى البحيرة لم أجد أحدًا بالشارع إلا امرأة تبكي بجانب منزلها بصمت، كنت أعرفها وكانت كذلك، تعهدني أحد أبناء ضيعتها يتحدث بلهجتها، لكنني ذاك اليوم أخفيت وجهي عنها، وهي لم تكن تستوعب وجودي ولا أي شيء من حولها. كان كل شيء رتيبًا، حتى القطط التي التقيت بها المرة السابقة لم يكن لها وجود، والبحيرة كان ألمها السابق قد تضاعف، وكأنها محمومة من أثر سُم يسري بين أمواجها ويفتك بها، وبلا تفكير، نظرت نحو الجهة التي نظرت لها المرة السابقة، وكأن ما توقعته كان ينتظرني. . حواجز أكثر، وأقرب، أقرب لدرجة مخيفة!

لكن الحواجز تلك المرة كانت أكثر قوة وأطول حتى يستحيل الصعود عليها، وتحوطها الأسلاك الشائكة الملوثة بدماء تجلطت فوق أطرافها الحادة، وأشلاء ملابس مقطعة، ومحاولات كثيرة لنزع تلك الحواجز يمكن تفسير حدوثها بسهولة، كأن حربًا ضروسًا قامت هنا، بين البحيرة والحواجز. . ولا أحد يعرف!

تلك الحواجز المتمركزة عنوة في الأرض الشابة، كانت الشيء الوحيد السعيد بالبلدة. . لكن سعادته كانت صفراء معانيها مقززة. . . كانت سعادة بتشفي.

• • •

مضيت إلى المنزل بائسًا. . ناديت أمي من عند الباب، لكنها لم تجاوب.

هزت يداي جسدها الطريح في عنف وضجر:

–استيقظي. . أقول لكِ استيقظي، استيقظي! أرجوكِ، أرجوكِ استيقظي.

لكنها لم تستجب لرجائي. . ولم تفِ بوعدها لي، بأنها ستكمل معي الطريق حتى النهاية، أو لعلها وفت، فهي لم تذكر متى تكون تلك النهاية. .

بكيت فوق كفها، ودموعي تسيل فوق وجنتيها تختلط بالعرق الذي تفصد فوق جبينها وسال حول عينيها وخديها:

–لن تفيقي إذاً؟! حسنًا . . لكِ ما طلبتِ.

دسست جسدي بجانبها، وتلفعت بذراعيها، وأنا عازم على النوم بجانبها حتى تفيق هي . . وتوقظني معها .

• • •

يقولون . .هناك دائمًا هدوء يسبق العاصفة، بينما أجزم أنا، أنه لا هدوء طالما أن عاصفة في الطريق .

إن الأمر يشبه قِدرًا محكم عليه غطاؤه، فوق شعلة من النار، لن تنبعث الروائح عنه ولا الأصوات إلا حينما يحين وقت انفجاره . . هل يمكن أن نصدق أنه قبل حالة الانفجار تلك، كان ينعم بحالة من الهدوء؟!

–وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ(٦١) .

تمتم بها صوت خاشع يأتي من الخارج، وصوت يردد في محيطه بخفوت:

–أيها الإله الذي علمنا أن الأجساد لا تفنى بالموت، بل تتحول بعد القيامة إلى ما هو أفضل: نتوسَّل إليك، يا حياة من يموت، أن تقبل نفس أمتك . . . في حضن خليلك إبراهيم أبينا ، وأن تقيمها في يوم الدين العصيب؛ وإنْ خالفت وصاياك في شيء وهي على هذه الأرض، فاغفر لها راحما . بربنا يسوع المسيح ابنك .

سلكت الأصوات طريقا بعيدًا لتصلني . كنت مرتعبًا ، وقلبي متلجلج يطلب أمي، حاولت أن أقوم، لكن الشعور الذي انتابني يومها أن براغي حديدية صدئة تنغرس في كفيّ وساقيّ وتثبتهم بالفراش الذي أنام فوقه فتصنع من جسدي موضعًا للآلام، علاوة على تقييدها لي . كنت أشعر الغرفة التي أنام بها فارغة، إلا حينما تهادت أصوات تقترب مني، كانت أصوات كثيرة تنم عن أجسام كبيرة وكثيرة، ساهمت في اختفاء النور الخافت الآتي من الخارج الذي بالكاد تحسسته عيناي، قال صوت نسائي بخفوت:

-إنه محموم.

فرد الصوت الذي كان يتلو التراتيل وقد بدا مألوفًا لدي أيضًا:

-علينا التناوب عليه ومداواته جميعًا حتى يفيق. ولكننا نحتاج أن يبقى أحدنا بجانبه دومًا.

فرد صوت نسائي آخر:

-رحمك الله يا شُميّسة، لقد ذبل الصبي بعد أن فارقته.

انتابتني رعشة فور النطق بالاسم، وأحسست بتضاعف الحرارة في جسدي.

رد الصوت النسائي الأول:

-حمدًا لله على أن صديقه جاء لزيارته، لولا ذلك لما علمنا أبدًا بأمرهما، وكان من الممكن أن يمر دهر حتى يعرف أحد بوفاة شُميّسة.

فقال الصوت الذي كان يتلو، بيأس:

-جسده منصهر، يجب أن يفيق، ويجب أن يعرف المكان الذي دفنت فيه شُميّسة، ها، من منكم سيبقى بجانبه حتى يفيق؟

فقال صوت جديد، بدا بعيدًا عن أذني:

-أنا سأعتني به، اذهبوا أنتم وأحضروا العلاج وأنا سأبقى بجانب ماجد.

وقفوا مترددين قليلًا، لكن شيئًا جعلهم يذهبون، وبقيت هي، وتساءلت أنا، من ماجد هذا التي ستجلس تلك المرأة ترعاه؟!

• • •

كنت أنام على جنبي الأيمن، حاولت جاهدًا أن أعتدل للنوم على ظهري، لكن البراغي الصدئة أبت، صدرت عني زفرة مشتعلة فاض بها هزالي؛ فسمعت دبيب قدميها يقدم نحوي، تحسست جبيني واغترفت ماء من إناء بجانبها وسكبته فوق وجهي وهي تهدر فزعة:

-بسم الله، بسم الله، لا تخف يا بني، أمك ها هنا بجانبك.

أطبقت فوق يدي المثقلة بالحمى، فقبلتها وسكبت من فوقها الماء المثلج، في ذاك الوقت اقترب صوت لوقع أقدام أخرى، وأنفاس رجل وأصوات نساء يتهامسن بصوت بالكاد يسمع، قال الصوت الرجولي:

-أعطيه من هذا الدواء، وابقي معه حتى تهدأ النار في جبينه، لا تتركيه يا أم ماجد .

سمعت صوت خبطها فوق صدرها وهي تقول:

-أتركه! كيف أذهب وأترك ولدي؟!

رد صوت لامرأة أخرى تطمئنه:

-لا تخف يا بولس، سأبقى معها حتى تشرق الشمس وتأتي أنت لتراه.

ويبدو أن نظرة صدرت عنه جعلتها تعّدل:

-أقصد سيدي الراهب بولس.

فصاح صوت غض:

-يمكنني أن أبقى معكِ بجانبه يا خالتي شرقية حتى الصباح.

وقال آخر وقد بدا معاتبًا صارمًا يأتي من بعيد:

-لا يا رحيل لا يمكنكِ، ستأتي معي أنا وجدتك لزيارته غدًا .

-يا أمي!

-هيا بنا نذهب.

وخلت الغرفة تمامًا، إلا من صوت بعيد يتلو القرآن في آخر الغرفة، بدا لي أنه شرقية، وبجانبي أخرى لا أعرف من تكون، تقبل يدي وتبرد جبيني كلما اشتعل.

-أفِق يا ولدي، ما هي إلا عين شريرة نظرت لك بسوء، أفِق يا ماجد لأجل أمك.

توقف الصوت الذي كان يتلو القرآن بضع ثوانٍ وقال:

-اسمه ليس ماجد .

ثم عاد يكمل التلاوة.

• • •

بين الفجر وشروق الشمس استطاعت عيناي بعد جهد أن تنفرجا أمام سطوة النور النافذ من الشرفة، كان جسدي المثقلِ قد استطاع أن يفك قيوده بالفراش، بينما لم أرَ أمامي عندما ارتفع الجفن أول مرة . . إلا فراغا .

اعتدلت فوق الفراش، كان رأسي محاطًا برباط مبلل، والوسادة من أسفل رأسي مشبعة بالماء .

–هل من أحد ؟ !

لا أدري كيف خرجت، لكنها كانت ضعيفة للغاية ومشبعة بالوهن والخمول الإجباري، استمعت لوقع أقدام من بعيد، كانت جدتي شرقية التي بالكاد رأيتها عبر الغشاوة التي تعتقل عينيّ، استطعت أن أفسر فزعها وفرحتها في آن واحد وهي تصيح:

–أفقت أخيرًا ! الحمد لله الذي نجّاك من الهلاك يا ولدي .

أقبلت علي تدفعني نحو الفراش وهي تقول:

–استرح يا بني، استرح حتى لا تسقط مجددًا .

أمسكت بجبيني الذي بدا متخمًا تحكمه الأورام .

–ماذا هناك أمي شرقية، أين أمي؟

ألجم لسانها وصمتت حتى فاضت عيناها بعبراتٍ بكماء، وهرولت للخارج، دون إجابة:

–جدتي شرقية!

صحت أناديها وهممت بالقيام ألحق بها، كانت مشاهد مقطعة من ذاكرتي علاوة على بكائها تنبئني بما قصدت أن أغفل عنه وأتناساه، كنت أرفض، وذاكرتي ترفض وتثور على كل هذا، قلت إنه كابوس وسأفيق منه على أنامل أمي تحتضن وجنتي من جديد، هكذا كنت أنا . . أهرب في الكوابيس والأحلام عندما أرفض الحقيقة وترفض هي أن تستوعب رفضي .

قمت أنوء بجسدي ألمًا وأحمله مشقة وعذابًا، بقدمين ترتكزان فوق غابة من الأشواك والصبار، تحاملت . . وأنا أستند إلى حافة السرير حتى اقتربت من الباب، صحت بآخر ما تبقى من ذرات صوت:

-هل من أحد ؟

انتظرت عدة ثوان حتى هويت إلى أسفل كجسد فارقته الحياة؛ فجاءت هي تصرخ وتحملني وترفع يدي فوق عنقهاً:

-بسم الله! ماجد، قم يا ولدي قم، استند علي يا صغيري لتستريح في فراشك.

نظرت لها بطرف عيني، لم تكن أمي ولم تكن شرقية، لكنني لم أقدر على التعرف عليها أكثر، قلت بصوت يكاد يخرج:

-من أنتِ؟

قالت وهي تسندني حتى الفراش:

-أنا أمك يا ولدي، وسأبقى بجانبك حتى يأخذ الله بيدك وتفيق.

-أمي؟!

عدلت جسدي فوق الفراش من جديد، ثم اغترفت من ماء نظيف كانت تحضره معها وتغسل به وجهي وجبهتي، جاء الطرق على الباب من الخارج فقالت:

-انتظر، دقيقة واحدة سأرى من الطارق ثم أعود لك.

ومن الخارج جاءت الأصوات:

-كيف حاله؟

-ما زال متعبًا، وكأن حرارته تزيد لا تهدأ.

ثم أقدام تسرع نحو الغرفة:

-كيف حالك؟

قالها صوت على استحياء.

نظرتٍ بطرف عيني، فرأيت شبحًا صغيرًا يقف ويحوطه كثير من خصلات الشعر الطويلة، ثم لم أقل شيئًا، وغبت من جديد.

• • •

-لقد مضينا في طريقنا معًا وقتًا طويلًا يا أمي، أعرف فيه الناس، يأتون ويذهبون، بعضهم ترك المسيرة بعد بضع خطوات وبعضهم أكمل معي لمسافات أطول، بعضهم تخلى سريعًا والآخر احتاج لوقت قبل أن يقوم بهذا، البعض نعتني بالأبله والبعض كذب قولي، البعض قال فاشل، وكثيرون قالوا طفل لا قيمة له. . . إلا أنت، لم يكمل الطريق سواك، ولن يكمله سواك، لم يواسِني بمحنتي إلا أنتِ، لم يجفف دموعي سواكِ، ولم تقبل جبيني إلا شفتاكِ. . أنت من تستمعين لحديثي بلا مقاطعة، تعدين لي الطعام الذي لا تفضلين فقط لأني أحبه، أشعر بالأمان فقط بين أحضانك، ويرسم الطريق لي صمتك، وابتسامتك قبل حديثك، حتى حديثك القليل يرشدني بلا مشقة، كنتِ بجانبي كل وقت، وستظلين بجانبي. . كل وقت، يا شُميّسة. . . يا أمي.

وأين أنت الآن يا شُميّسة، أين أنتِ؟ أحتاجك بشدة.

كان الوقت صباحًا، لكن العتمة كانت تزيد وتزيد.

-يا ولدي أرجوك افتح لي غرفتك، سأرى حرارتك وسأخرج سريعًا.

تبسمت بمرارة قلب، وعلقم يعتمل بداخل عمقي قبل حلقي. . عندما قالت "يا بني"، وقلت:

-أنا بخير، اذهبي فقط يا. . يا أم ماجد.

-يا ماجد أنا قلقة، كما أن رفيقًا أتى لزيارتك ورحي. .

بترت الكلمة فوق حافة لسانها:

-لا أريد أن أرى أحدًا، اتركيني، أرجوكِ.

-لكن. .

-أرجوكِ.

وصوتها من الخارج يهمس:

-آسفة، إنه متعب ولا يستطيع لقاء أحد، يمكنكما أن تأتيا غدًا، سيكون قد تعافى.

قال رفيق بضيق:

-كنت أريد أن أجلس معه ولو قليلاً، هناك الكثير الذي حدث في هذا الحي وهو مريض.

صاحت باستغراب:

-ماذا هناك؟!

-هناك حي مجاور لنا سطا على الضيعة المجاورة له، وأعلن كبير حيهم أن تلك الضيعة ضيعتهم من الأساس. والأهالي هناك في صراع مع هؤلاء الآخرين، الحي بأكمله مشتعل على تلك القصة.

-أي ضيعة تلك؟!

-التي تملك البيت والأروقة المقدسة، أقصد البيت العتيق.. تدعى فلسطين!

دب الاسم في قلبي كسقوط نيزك مشتعل من السماء صوبًا إلي.. إنها هي! تحت قبضة محتل! تلك الضيعة الخالدة... فلسطين. تؤسر!

وتلك البحيرة، سيخطفها آخر، وأروقتها المقدسة.. ستدب فيها قدم غريبة؟! والشوارع ستقل، والأطفال؟! أين سيلهون ويمارسون براءتهم؟ ودور القديسين والرهبان؟ والشيوخ والعبّاد، والنور الذي تفيض به حواريها، هل يقّسم؟ أم يتلاشى، والأرض الباسمة، هل تبكِ؟! بلدتي الأثيرة تقسم؟!

كنت أجلس أمام الشرفة، قمت أتحامل على ذاتي نحو الباب، كنت ملهوفًا لسماع شيء أوضح، ربما ما سمعته الآن من تبعات المرض، لكن قدمي لم تصبر لبضع خطوات، وهويت مجددًا، وصوت سقوطي الذي أفزعهم، هزني.. ثم جثوت ولم أدرِ بشيء كما كانت المرة السابقة.

•••

ظهرًا، بعد شهرين..

وبتطل الليالي.. وبتروح الليالي، وبعدك على بالي.. على بالي.

صدح الصوت الموهوب رحمة من مذياع العم ياسين الذي بدا قريبًا جدًا، أو أن المرض الذي تمركز في عظامي أثر عكسيًا على أذنيّ لتكونا بتلك القوة. بينما الظهر يشعل جدران المنزل

الفارغ ويزيد مرضي وأوجاعي. والمنزل الذي ضج بالناس لفترة، عاد خاويًا من جديد، يأتي رفيق ويطرق، فلا يسمع مني ردًا فيذهب خائب المراد، تأتي رحيل مع والدتها ثم تذهب كما عادت، لم يكن هناك معي باستمرار، سوى أم ماجد التي صارت تناديني مؤخرًا بـ"ماجد" لسبب أجهله، ولكنني لم أعارضها فيما تفعل، فمن شأني أنا وهي الآن خصيصًا أن تتآلف بعد أن بُتر من كل منا العضو الأكثر حيوية من بين أيامه.. ورُغم أن كلمة "أمي" الآن صارت من المستحيلات على لساني، حتى وإن كنت قد تلفظت بها لغير أمي قبل الآن، فإن أم ماجد لم تكن تبالي إذا قالت لي بني أو يا ماجد، وقلت أنا، يا أم ماجد، أو ناديتها باسمها الحقيقي؛ لأن ذلك النعت صار حرامًا منذ اليوم الذي رحلت فيه أمي.

كانت أم ماجد تحضر عند شروق كل يوم وغروبه، وتفتح الباب بمفتاح خاص بها لا أعلم من أين أتت به ولم أقوَ على سؤالها، تصنع طعامًا وتحاول بشتى الطرق الحديث معي لكنني كنت أأبى حتى رد السلام، شرقية أيضًا حاولت الزيارة، وكثير من الجيران أتوا لتقديم واجب العزاء، لكنني وبسبب "انعدام الذوق" لم أستطع استقبالهم واكتفيت بشكر حضورهم دون أن أفتح الباب. بينما كانت تتولى أم ماجد تهدئتهم وتقول إنه متعب ولا يستطيع الجلوس معكم، وكانت تحرص ألا تتلفظ بقول "متعب لأن أمه توفت".. لا أدري، ولكنها حقًا في ذاك الوقت كانت قد اقتنعت أنها هي أمي! وأنني أنا ماجد!

أما عني... فكنت جسدًا فقط، أجلس، جفني يتحرك ووريدي ينبض، وزفير لافح بنيران متأججة يدل على أنني باقٍ على ظهر تلك البسيطة، حينما ماتت شُميّسة، أدركت جيدًا ماذا كانت تلك الصبية في صغرها، ولماذا تدور ذكراها في قلب رجل مثل بولس وهو الذي اعتزل العالم منذ دهر مضى، وما الذي كان يجعل رجلًا كعبد الواحد، متزوجًا وله من الولد كثير، دائمًا ما يحرص على ودها وتقديم أفضل شراب يمتلكه هديةً لها! حينما مررت بتلك الفترة، لسعتني أعراض الانسحاب التي مرت على كل منهما، لسعتني للمرة الثانية بعد أن كنت قد عانيت بوادرها في رحيل لبيبة، والآن فأنا ألتقي بأنهار منها كفيض غامر وغاضب يضربني بين أمواجه بلا رحمة، وبلا تؤدة حتى في تعذيبي.

في هذا الوقت فقط علمت جيدًا ماذا يحدث للذي يعرف شُميّسة ثم يفارقها.. يموت بالبطيء، لكن الشيء المؤلم أكثر بالأمر، أنها تركت كلًا منهما باختيارها، تركته.. لكنه كان يراها، يسمع سيرتها ويرسل لها الهدايا لخطب الود السابق، ويمكنه بيوم من الأيام أن يستمع إلى صوتها خلسة، حتى عندما انسحبت من حياة كل منهما، كان الأمر تدريجيًا فخفت وطأة الشعور بالألم والبرودة، أما أنا.. لقد غصت فيها حتى النهاية، حتى قاع الأتون، ذبت فيها وعشقتها بسرمدية، عددتها عوالم خيال لا وجود لها إلا في عيني شُميّسة حتى بعدما أصبحت كفيفة، وفجأة، انسحب الأمر عنوة بلا رحمة، بل إنه نزع بوحشية، ليتركني عالقًا في بركة من الوحل المتحرك، لا أنا غارق ولا أنا ناجي، فقط متسخ ومتألم وملتاع، وخائف.. أريد صدر أمي ينجدني، لكن لم يعد له أثر.. لقد وارته ذرات التراب، من خلف سخف تلك الحياة التي لا تعرف الرحمة ولا حتى بعض الشفقة المزيفة.

-أرجوك افتح، أعرف أنك بالداخل.

-......

تلجلج صوته وقال وكأنه يبكي:

-أرجوك، كلمة واحدة، صدقني أنا بدونك لا شيء، لقد كنت مخطئًا في اليوم الشؤم الذي تركتك وذهبت فيه، كان علي أن أنتظر، كان علي أن أستمع لكل حديثك حتى ولو قمت وحطمت وجهي، أنا مخطئ، لا، لست مخطئًا فقط، بل غبيًا وأحمق وأستحق أشد عقاب، لكن فقط افتح، عاقبني، سُبني أو حتى اضربني، لكن لا تردني مرة أخرى، صدقني أنا بدونك أعُاني ومشرد، أنت كنت منزلي يا صديقي.. لا تردني بجفي حنين، أرجوك يا صديقي ولو مرة واحدة، أرجوك.

همست:

-اذهب يا رفيق، لست بحال يجعلني أجادل معك، لو كنت صديقك حقًا فعليك أن تذهب الآن.

صاح باكيًا:

-بل سأحطم الباب إن لم تفتح، أرجوك، قلت لك بضع دقائق لا أكثر، بحق أيام شُمَيّسة يا صديقي افتح، بحق أمك وقولها يومًا أننا أفضل صديقين، أن تفتح هذا الباب اللعين وتملي عيني برؤيتك ولو قليلا، فقط أطمئن وأعدك أنني سأذهب.

هزت كلماته عن أمي رأسي وفؤادي، كان رفيق داهية حتى وهو يبكي، يعرف كيف يدوس على مواجعي لصالحه. فتحت الباب ووقفت أمامه:

-لم أفتح لشيء، غير أنك ذكرت اسم أمي.

دفع الباب أكثر ثم جذبني بقوة لداخل صدره كأب حنون يهدهد طفلًا يتيمًا ضيع أمه للتو بين زحام الحياة، ارتاحت رأسي على صدره، قبل جبيني ودموعه تسيل فوق شعري:

-أنا أبوك يا أبله، أنا أبوك وصديقك كما أنك أبي وصديقي، فليحرق الله روحي لو تركتك وذهبت بعد الآن.

ويومها، لم أتحدث، فقط منذ أن ماتت أمي قبل شهرين، ولأول مرة، بكيت، بكيت بكاءً صِرفًا كما لم أبكِ من قبل.

• • •

رفيق وقف منذ تلك اللحظة كرجل حقيقي، ظل معي طويلًا بمحنتي، أما عن رحيل، فقد كانت ممنوعة تمامًا من دخول المنزل، ومع أنني كنت أعي أنها لا تستحق الجفاء الذي أعاملها به، فإنني لم أتورع وكنت أفعل ما أستطيع حتى توقن هي بوجوب كراهيتي، لكن للأسف، لم يكن يبدو أن الخطة تمشي على النحو الذي رسمته لها! ذات يوم كان رفيق يجلس بجانبي، وكل منا صامت، قلت بتوجس حاولت أن يصدر صارمًا:

-ماذا حدث بشأن البلدة التي تحدثت عنها قبل ذلك؟

عقد حاجبيه مستغربًا:

-أي بلدة؟!

-تلك التي حدثت عندها نزاعات حول الأرض.

-أها.

ثم أردف مستاءً:

-أخبار ليست جيدة.

خفق قلبي، أكمل:

-لقد قسمت بالفعل.

-والبيت المقدس؟

-قسم أيضًا.

-والبحيرة؟!

-والبحيرة أيضًا، لكن انتظر.. من أين تعرف هذا كله؟!

صمتُّ تمامًا كأخرس ولد بعاهته، وصمم أيضًا حل بأذني، لأصبح جديرًا بلقب معزول، قال بصوت بالكاد فسرته:

-سمعت خبرًا يقول أنهم سيجمعون من حراس كل بلدة في الحي مجموعة منهم ليذهبوا إلى هناك مساعدة لأهل البلدة وحراسها؛ فالأهل هناك في حرب كل يوم لا تنتهي، وهم وحدهم قلة؛ لذا فالأفضل أن نجتمع لنصرة بعضنا البعض.

نظرت نحوه، وعقلي يسرح، وقلت بصوت مبتور:

-أوَسنجتمع حقًا يومًا ما؟!

هز كتفيه في عدم فهم وقال:

-نعم سيجتمعون.. بالتأكيد.

وتمتمت:

-أتمنى.

• • •

مضت الأيام معزولة ومنبوذة من جديد، رتيبة حد الموت البطيء، بأول أربعة أشهر لم أترك المنزل أبدًا حتى انعزلت بمعنى الكلمة عن كل خبر مهم، والبلدة أمام نافذتي، وأحاديث أم ماجد

مشتعلة بالأقوال الخطيرة والمتوهجة. ورغم ذلك، ورغم أنني كنت الوحيد الصامت فإنني تأكدت لحظتها أنني الشخص الوحيد هنا المتوجس حقًا بشأن البلدة المسلوبة، أو هي في طريقها إلى ذلك، ذات يوم سألت أم ماجد عن الأمر، فأشارت بيدها وأمارات وجهها خائفة ثم قالت:

-لم يحدث شيء بعد يا بني، آخر ما نعرفه أن الحرب ما زالت مستعرة، ولا شيء آخر يطمئن أو يقلق وصلني أو وصل لمذياع عمك ياسين.

صمتت بعد ذلك قليلاً، ثم عاودت الحديث الذي كانت تسرده كما لو كانت الجدة رافدة أو أشد تعطشًا للحديث!

• • •

مضت فترة لا أعرف كم كانت، لكنها لم تطُل، عادت بعدها الحركة الطبيعية إلى البلدة التي لم تختلف كثيرًا عن قبل ذلك، لكن الحياة بدت هادئة، وكأي إنسان طبيعي، أول ما تبادر إلى ذهني وقتها، النصر بالتأكيد!

كانت الرطوبة العالقة بسطح البيت وجدرانه، علاوة على الصمت الذي يحتله، قد أعطت المنزل هالة من الهُزال، لكنني عندما استيقظت فجر هذا اليوم قررت أن أنفض الغبار من فوق المنزل المعتم، إكرامًا لروح أمي، ثم لاستقبال الخبر السعيد، خبر الانتصار.

صحوت قبل الظهر مباشرة، غسلت وجهي وتوضأت وصليت، ثم فتحت غرفة أمي تحت سطوة الصمت، انحنيت على ركبتي أمام فراشها وأنا أتمتم بآيات الفاتحة، والدموع تسيل صمتاً، عندما انتهيت انتابني عند الباب رجّة قوية، وصوتها الحالم يتردد في أذني كما كانت تطمئنني قبل ذلك، رسائل أمي كانت كثيرة، في الأحلام وعندما أشرد، لكنها لم تكن تكفي متعطشًا مثلي، صار يهوى الموت لأجل لقائها.

ارتديت حلة نظيفة وألقيت بنظرة خاطفة على نفسي في مرآة الدار، لم يتغير شيء، لون شاحب وعينان هزيلتان، وقلب يظهر في الصورة، يحمل صورة أمي، وجزء طفيف منه هو الأكثر إقبالاً على الحياة، ينتظر بلهفة خبر البلدة المنصورة حتى يقنع باقي الصورة أنه ربما بتلك الحياة، ما يستحق الحياة!

نزلت، البيوت عامرة والأطفال تلهو ببهجة وصخب أكثر من اليومين الماضيين، الحصان ما زال يصهل، والنساء عند بوابات البيوت بجلابيبهن الصيفية المعتادة، يتهامسن ويضحكن كما جرت العادة، سرت من بين الجميع بلا صوت، وأكثر من عين تلاحقني وتتبع خطواتي، لم أهتم، وأكملت الطريق صامتًا تمامًا حتى مقهى العم ياسين الذي بدا مزدحمًا للغاية!

كان يبدو أن هناك شخصًا بالوسط والكثيرين يجتمعون حوله، يمجدونه، يرحبون به، ويُسمعونه إطراءً واضحًا، جلست على أحد المقاعد أنتظر أن ينفضوا حتى أسأل عمي ياسين عن أخباره الجديدة، مرت مدة حتى جلس كلٌّ منهم على مقعده فظهر من بينهم ذلك الذي يرحبون به، بدا عسكريًا يرتدي رداء الجنود والحراس، يشرب شايًا وابتسامة جذلة تملأ فيه فرحًا بإطراء القوم.

سألت عمي ياسين:

-كيف هي أخبارك الجديدة يا عمي ياسين؟

-أي أخبار يا ولدي؟

-جميعها.

قال بينما يحضر الشاي من الداخل لأحد الزبائن:

-لا شيء، ارتفعت أسعار السكر والشاي مجددًا، والبلدتان الغربيتان من الحي ما زالتا في نزاعهما حول قطعة الأرض اليتيمة، الصحراء القاحلة بين حدود كل منهما مع الأخرى، و..

-ليس هذا ما قصدت معرفته.

عقد حاجبيه:

-إذاً أنت تريد سماع خبر بعينه؟

أومأت إيجابًا وقلت:

-أخبار تلك البلدة، التي حدثت عندها النزاع، والحي المجاور الذي سلبها.

أطلق أنينًا طويلًا يعود للتذكر، وقال وهو يشير للرجل صاحب رداء الجندي في إجلال وفخر:

-عليك أن تسمعها من عمك منصور إذاً، فهو الجدير بسرد تلك الحكاية على مسامعنا كلنا الآن.

قمت نحو الطاولة التي يجلس بجانبها هذا العم المنصور! رجل يبدو أنه تخطى الثلاثين من عمره، بشارب أسود عريض وبِنية تبدو في الزي قوية، جلست بجانبه، فبدا وجهه مرحبًا جدًا لأنه سيحكي القصة من جديد.

بادر العم ياسين:

-أخبره يا منصور عن حكاية تلك البلدة.

وضع منصور كوب الشاي على الطاولة، استعد ليلقي الحكاية، من جديد..

قال بحماس:

-عدنا اليوم فجرًا، ياه يا بني! الطريق كان صعبًا حقاً والكثير من المتاعب واجهتنا في العودة.

قلت:

-لا صعوبة في الذهاب والعودة لهذه البلدة، أكمل.

نظر شذرًا مستنكرًا ما قلت وهو يكمل متجاهلاً:

-عندما ذهبت هناك أنا وبقية الجنود من بلدتنا، وجدنا جنودًا كثيرين من كل بلدة، علمنا أيضاً أن ذلك الحي اللعين لم يكتفِ بتلك المساحات الشاسعة التي استولى عليها من تلك البلدة وحدها، بل إنه تعدى حدوده لهضبة عالية في بلدة مجاورة لها، وقطعة من أرض ضيعة ثالثة، وقطعة أخرى من رابعة، جميعهم يشتركون في خط حدودي متقارب.

ارتشف من الشاي محدثًا صوتاً عاليًا ثم أكمل:

-كان اتفاق رئيس كل الفرق من الجنود أن تكون أعداد الجنود متقاربة، وأن نقف جميعنا كجيش واحد، لكن هذا لم يحدث.

-لماذا؟!

-حدثت نزاعات بين رؤساء الفرق تبعًا لخلافات لا نعرفها، حدثت بين شيوخ كل الضِياع المشتركة في تلك الحرب.

-وماذا بعد ذلك؟

-حاربنا مرة واحدة، فأخفناهم وفروا كالفئران، أنت لم ترَ! في ساحة المعركة تكون أضعف امرأة في ضيعتك أقوى من أقوى جنودهم.

ارتشف من الشاي وأكمل مستهزئًا:

-جبناء حد الشفقة، لا يجدون ساترًا إلا ويختبئون فيه، إن واجهناهم بالسلاح، يرمون بأسلحتهم حتى دون مقاومة، ويلعنون اليوم الذي أتوا فيه إلى حينا حتى نتركهم، في اللحظة التي أجعل أحدهم ينزل فيها السلاح، يمكنني أن أجعله يعترف بكفره لله وعبادته للشيطان، أن أفعل به أي شيء أريد، فقط ليبقى على قيد الحياة، لكنه لا يعرف أنه حتى لو خلع ملابسه ووقف عاريًا أمامي لقتلته أيضًا.

قال الأخيرة وهو يقهقه ثم توقف بضع ثوانٍ وتمتم:

-خنازير.

قلت:

-أكمل.

-بعد تلك المعركة الضروس، ألجمناهم حقًا وأجهدنا جيشهم الهزيل، طلبوا هدنة لعدة أيام، وفي الحقيقة كانت جيوشنا أيضًا تحتاج لذلك، وافقنا، في تلك المدة كان رؤساء الفرق يجتمعون ليعيدوا تشكيل الجنود، لكن المشكلة أن نزاعًا كبيرًا حدث ومشكلة في تشكيلة الجنود وتوزيعهم، أحدهم اعترض وقال أن جنوده أكثر من ماتوا بالحرب، وأنهم أكثر عرضة للخطر من غيرهم، وأحدهم قال علينا أن نجعل قوامات الجيوش مثل بعضها البعض، وعندما رد عليه آخر وهو المقصود؛ لأن فرقته كانت قليلة، وقال إن بعض

الجيوش أقل من بعضها أساسًا ولا يمكن أن تكون كل الجيوش في قوام واحد، أجاب أن لا دخل له بالأمر.

-وبعد؟!

-انتهت الهدنة سريعًا بين المناوشات، وصدمنا جميعًا ذلك اليوم، كانت جيوش العدو تمتلك أسلحة من نوع جديد لم يكن معها منذ بداية الحرب، والجنود أيضًا كثروا، ونحن لم نكن مترابطين، ففتكوا بنا، صحيح أننا لم نَبد عن بكرة أبينا ولكننا...

-هُزمتم!

صاح:

-لكننا فعلنا ما علينا.

ارتشف آخر ما كان في الكوب ودنا مني وكأنما سيقول سرًا:

-الحقيقة يا بني ولا سواها، هي أنه لم يوجد في هذا الحي مَن أراد حقًا مِن داخله أن نحرر البلدة، سوى نحن.

-؟

-سأشرح لك، بعضهم كانوا متواطئين أصلًا مع ذلك الحي، أموال وعلاقات ومصالح متبادلة لا نعلم عنها شيئًا، والبعض الآخر أتى بفرقة ضعيفة، يهربون أثناء المعركة، لا يلقون بالًا لشيء سوى نجاتهم، والبعض كما تعلم، لم يأتِ أصلًا، والبعض كان يفتعل المشاكل والخلافات حتى يرحل، أما نحن، كنا الوحيدين في ساحة المعركة المحاربين بجد، لم نختلق النزاعات وألقينا بأنفسنا للهلاك، لكن من أجل ماذا؟! لا شيء!

-تريد أن تقول أنك أنت وأصدقاءك كنتم أشرف من في ساحة القتال، بينما الجميع متواطئ أو لا يعنيه الأمر؟!

-بالتأكيد.

-وأنت هكذا تلقي بتهمة الخيانة عبثًا وأنت بكامل أريحيتك، ترتشف مشروبك وتقولها بلا أي ضيق في ذاتك!

وضع الكوب وقال في لهجة استراتيجي متمرس:

-انظر، هذه أشياء فوق عقلك الصغير، لن تعيها إلا حينما تكبر، هذه البلدة التي تأويك، ينظر الجميع إليها طامعًا في كنوزها وأهليها، نحن الخير هنا يا ولدي وهذا بالدليل لا مجرد عبث أقوله، ولولا وجودنا لكان هذا الحي كله في خبر كان، لكنهم دائمًا ما ينكرون الجميل ويسحقوه، ويرمون بانتصاراتنا وأحقيتنا في الريادة عرض الحائط، ويغلّون علينا ويحسدون قدراتنا التي تفوقهم جميعهم يا ولدي، جميعهم بلا استثناء، يكرهونك ويتمنون اليوم الذي تفنى فيه أنت وبلدتك.

صمتُّ لبضع ثوانٍ، وقبل أن أهم بالرحيل، قلت:

-والبلدة؟!

-أي بلدة؟!

قلت، بآخر ما أمتلك من ذرات صبر:

-البلدة التي راحت جموعكم لتنقذها.

-آه، لا شيء، للأسف انتهى الأمر لأنْ قسمت، امتلك ذلك الحي اللعين أغلب أراضيها، وتركوا لهم جزءًا فقط، تحجز بينهم أسلاك شائكة.

-والثلاثة بلدان الأقل تضررًا؟

-لا أعلم، لهم شأنهم.

قالها لا مباليًا، وطلب من العم ياسين أن يقدم له أرجيلة، وقمت أنا.. وبوادر الدوار تعود من جديد، ويدي تتحسس آثار الحرارة والحمى مرة أخرى في جبيني.

• • •

-ماذا حدث؟

-لا أعلم.. أصابته حمى من جديد.

صاح صوت عبد الواحد وهو ينظر إلي مشفقًا:

-ماذا حدث يا أم ماجد؟! كيف له أن يتعافى ثم تصيبه الحمى مرة أخرى في أقل من يومين!

وفاضت عينا أم ماجد بكاءً حارًا كجسدي، رأيتها بصعوبة من بين الرموش العالقة ببعضها البعض، وعادت إلى جانب سريري، بللت بأناملها وجهي، وأنا ضائع بين أمواج البحيرة الحزينة المتلاطمة، والأسيرة في سياج مستقذرة، تحاصرها، وتخنقها، وتنغرس في عنقي كما تنغرس في ربوع البلدة. . الضيعة الضائعة.

• • •

الله أكبر الله أكبر، لا اله إلا الله. . . الصلاة خير من النوم، لا إله إلا الله

ومع صوت الأذان الآتي من بعيد، صحوت!

لا أدري كيف وأنا الذي كان منذ عدةِ ساعات فقط مكبلًا بأصفادٍ وجسده موطئًا للوخم والأوجاع، قمت مترنحًا كسكير يستعد للفظ آخر أنفاسه المشبعة بالخمر، الغرفة كانت مظلمة تمامًا، وفراشي المبلل بماء قطع القماش على جسدي. . رغم بلله فإنه كان دافئًا بجسدي، الشرفة كانت مغلقة، قمت إليها ففتحتها، أحسست بالهواء لأول مرة يخترق صدري وأنفي، والشارع من أسفل كان صامتًا خاليًا من كل شيء إلا أصداء الأذان المترامية من بعيد. تركت النافذة وهرولت مترنحًا نحو صالة المنزل، كانت أم ماجد تنام متكئة على يديها فوق أحد الكراسي، تخطيتها بعد تأمل بسيط ثم اتجهت إلى الباب، فتحته. . وخرجت.

-أيها البشعون، يا أقبح من بهذا العالم اللعين، أفيقوا لي إن كان بكم رجلًا حقًا !

كسكير وقح ركضت بين الحارات والبيوت أصرخ بالسباب، مترنح بائس يعربد ولا أحد يعرف بأمره، صاح البعض عبر النوافذ بشتائم نابية كالتي تلفظت بها وأعلى شأنًا ! ومضيت وقتًا حتى بدأ نور طفيف يظهر في السماء، وصوتي المبحوح يسب ويلعن ويتوعد بأقوال يعرف استحالة حصولها، كنت ضائعًا. كنت فتى فقد أمه وصديقته وبلدته الحبيبة وبحيرته حاملة أسراره، فتى ضائعًا بسبب ترهات وتبريرات واهية حقيرة لا وجود لها إلا في عقول مريضة تعيش على سحق أحلام الآخرين، فتى حُرم من وطن صالح، وطنه يعيش على النزاع والخلاف، وطنٌ في طريقه نحو فُرقة أبدية فقط لبعض الآراء المختلفة فيما بينها، فتى ضاقت الدنيا عليه

حتى خنقته غمًا وكدرًا، فتى مثلي، فتى هو أنا! فتى.. فتى مُحي من أمامه مستقبل وسعادة حَلِم يومًا بأن يعيشها نعيمًا وفرحة، فتى ضائعًا بكل لهجات بلدان هذا الحي البغيض.

قمت أطرق فوق الأبواب بعنف، واحدًا تلو الآخر، مررت بجانب مقهى عمي ياسين المغلق وأخذت أطرق فوق بابه وأبواب المنازل المجاورة له، وقفت عند باب أحدهم وقد بدا أنه الباب الخلفي للمنزل، كان المنزل كبيرًا نوعًا ما بشكل أثار استغرابي، أخذت أطرق باكيًا فوق الباب صارخًا باسمي واسم أمي، واسم الضيعة والحي، وبقيت أطرق حتى سالت فوق الباب الحديدي الصدئ دماء قبضتي. وقبيل أن أنتهي، انفتح الباب!

رأيت القفل من أسفل قد انكسر من حول السلاسل الحديدية المقيدة للباب من خارجه، والتي كنت قد غفلت عنها قبل ذلك. اشرأب رأسي المثقل نحو الداخل فلم ألتق إلا بظلام دامس، وبدون قصد زحفت قدمي من فوق حافة الطريق، وسقطت داخل المنزل، أو بالأحرى داخل قبوه.

• • •

نظرت حولي، كان الظلام يمنعني من رؤية أي شيء، أخذت أتحرك في القبو وأنا أنطق:

-يا أهل البيت، هل من أحد هنا؟

لم يجبني أحد، تلمست طريقي ككفيف حتى تلمست أطراف شيء بدا كالسور، رفعت قدمي، بدا أن شيئًا يحجزها؛ فعلمت أن هذا هو بالتأكيد سلم القبو، صعدت إلى أعلى خطوة بخطوة حذرًا وأنا أجاهد حتى لا يسقطني دواري، عندما ارتقيت آخر درجة، كان هناك درجات أخرى لطابق آخر، لكن هذا الطابق كان منيرًا بضوء الفجر الوليد النافذ من الشرفات، تحركت فيه، كان واسعًا جدًا، وبدا عبر الضوء القليل فخيمًا وشرقيًا جدًا في كل قطعة من أثاثه، صحت مرة أخرى:

-هل من أحد هنا؟!

لم أسمع جوابًا، تحركت متوجسًا نحو إحدى النوافذ، فتحتها، فرأيت يومها شيئًا عجيبًا.. رأيت منظرًا مدهشًا!

لقد رأيت الحي بأكمله، ورأيت بحيرتي المسيجة تكاد تظهر من بعيد!

أنا في بيت القصيد؟!

بحرقة صرخت.

–هل من أحد هنا؟ أين أنتم؟!

وكالعادة، لا صوت.. لأي شيء.

• • •

مشطت البيت ذهابًا وإيابًا حتى بدأ الصبح يتفتح، وما من شيء، وما من أحد، لا خالدين، ولا حتى مجرد أحياء أو أموات، كان المنزل فارغا تمامًا..

احمرّت حدقتاي وراح صوتي في البكاء، كل هذا النزاع بينهم، وكل هذه الأوجاع، لأجل فراغ!

هبطت السلم خائبًا، نحو القبو من جديد، عازمًا على إخبار الجميع بالخبر المفجع، نزلت أهم إلى الباب، لكن شيئًا ما قريبًا من الباب لم يقابلني أثناء دخولي عرقل قدمي، نظرت له، كان جسدًا لشيء ضخم مرتفع عن الأرض، يملأ سطحه التراب، لم أتبينه ففتحت الباب قليلًا لينفذ بعض النور لأرى ما هو، كان كتابًا عظيمًا طوله مثلي أو ربما أطول، نُقش فوقه بخط محفور بارز كلمة "عهد". انحنيت، ثم فتحته، بالبداية بدا غلافه ثقيلًا مثل سبيكة حديدية، حملته بصعوبة نظرًا لوهني ويدي الدامية، أولى صفحاته كانت صفراء سميكة معبقة برائحة الزمن، مكتوب فوقها بخط اليد نقشًا:

"عندما تفيقون من نزاعاتكم وترهاتكم، ستجدوننا ها هنا، قد رحلنا وسئمناكم وسئمنا جحودكم وعقوقكم المقيت.. عهد قطعناه في ليلة باردة مثلكم.. تراصت جموعنا حول تلك الأوراق التي بين يديك أيها القارئ لحروفنا، لنعاهد بعضنا البعض أن نرحل كما قرر الكثيرون من قبل عقود على مدار عمر طويل أن يرحلوا أيضًا، كنا نحن أنفسنا قبل زمن طويل نرفض الفكرة من جذورها، وعندما قضت الحرب على البلاد لتستحيل البلاد الزاهية الشاسعة إلى بقاع خربة، لا وجود لصروحها العالية وأمجادها إلا في كتب التاريخ المحرقة فوق أجساد المخلصين

القلة من أهل تلك الأمة، الذين فنوا وتشوهت أجسامهم، ولم يبق منهم ومن نسلهم وجيرانهم وأهليهم إلا حطام حرب، متناثرًا بين الطرقات الفارغة التي ينذر الصمت نفسه لها، والحطام يبكي دمًا على كل شيء لم يعد له وجود بين ليلة وضحاها. وما بقي ما يدل على أثر لبشر كان يسكن تلك النواحي إلا نحن، كنا بين قبيلة لا قوام ولا أصل ولا قواعد لها، فقط فتات حرب منهكين وضائعين، الكثيرون منا سافروا للخارج ولجأوا لبلاد الله يسألونهم العون وأن ينتشلوهم من الضياع المحتم، وما بقي بالغربال إلا نفر قليل من النساء والأطفال والشباب والشيبة ونحن، كنا اثنين وعشرين جنديًا هزيلاً، نحن فقط قررنا البقاء بينما فضل الكثيرون من رفقائنا الرحيل. الحرب كانت قائمة بيننا قبل وقت وجيز، وكنا نحن الجنود لا نقابل بعضنا البعض إلا بالسلاح والبنادق والرصاص، لكننا في ذلك الوقت تحديدًا.. قررنا الاتحاد.

كان كل شيء ضائعًا، حاولنا قدر ما استطعنا أن نعيد بناءه، لم ننَل مساعدة من أحد، كل من كان حولنا وقتها من بلاد ساعدنا فقط وقت الهدم، لكن بعد هزال الحرب انفض الجميع من حولنا وتركونا غارقين في منتصف النهر، حتى إنهم سرقوا القشة وهربوا، زعماء بلادنا جميعهم فنوا وسعيد الحظ منهم من لاذ بالفرار وهم قلة. والزعامة أيضًا فنت، والريادة التي كان النزاع عليها أيضًا فنت، تسألني ما هي الريادة تلك؟! ولأي شيء تكون! حسنًا، لا يجب عليك أن تستعجل، بما أنك هنا، نعدك بمعرفة كل شيء، نعد بحقيقة كاملة، فقط انتظر، إن كنت حقًا تريد ذلك".

قلبت صفحاته واحدة تلو الأخرى، فجحظت عيناي وكادت تخرج من وجهي، تركت الكتاب، ونظرت له نظرة أخيرة قبل أن أهرول خارجًا، كان مقهى العم ياسين ما زال مغلقًا، أسرعت فزعًا وقلبي ينبض بجنون، نحو المنزل. وجدت نفسي به في أقل من خمس دقائق، نسيت مرضي ووهني، وأوجاعي. كان الباب مفتوحًا منذ تركته وخرجت، وأم ماجد ما زالت نائمة، عدوت نحو غرفتي وحملت قنديلاً كان بجانب سريري، يداي ارتعشتا في حمله حتى كاد يسقط. أحكمت قبضة يدي المرتعشة على جسده حتى تعرّقت، خرجت مرة أخرى، وأقفلت الباب هذه المرة، وأسرعت من جديد.

وصلت إلى المنزل، دخلته وأغلقت الباب من داخله، وجلست أبتلع حلقي الجاف. ثنيت ركبتي أمامه خاشعًا كمن يتأهب لحدث عظيم، وجلست أمامه، الصفحة الثانية كتب فيها بخط كبير:

"إن الآلام التي عانيناها بكم ولكم كانت أكثر من ظنوننا يوم أنجبناكم، عشنا نحن أهلوكم في سلام حتى ولو كنا غير قادرين على أن نصل الود ونربط القلوب على كلمة واحدة، حاولنا أن نجنبكم آثار الحرب التي عايشناها من قبل ونعرف عنها كما لا تعرفون، كان مرادنا الوحيد أن نقصيكم في بواقي أوطانكم عن النزاعات والدمار، لم نسألكم كل الود والحب لبعضكم بعضًا؛ لأننا أيقنّا بأن جذوركم تأبى هذا، وأنكم لن تكونوا قادرين على أن تتغلبوا على أصولكم لأنكم لا تمتلكون الإرادة الكافية لفعل هذا، ولكننا سألناكم فقط أن تحترموا جيرتكم لبعضكم البعض، وأن تبتسموا في أوجه بعضكم البعض كل صباح ولو كذبًا، سألناكم الهدنة وأن تسلموا بعضكم البعض من شرور أنفسكم، سألناكم أن تكفوا عن الحرب لتعيشوا السلام ولو بما يحتمله من زيف وشوائب القلوب، سألناكم قسطًا من الراحة تنعمون به وننعم به أحياء أو أمواتًا، حتى لا تصيبكم اللعنة التي أصابتنا وأهلينا قبل أعوام طويلة سحقها الزمن بذكراها العفنة ومزايداتها الرخيصة التي كنا وأنتم ضحيتها، إلى جانب أرواح من رحلوا مع الحمى اللعينة التي أطاحت بملايين الأبرياء. سألناكم فقط أن تحافظوا على أنفسكم ضد تلك الحمى، لكن يبدو أنكم تستعجلونها كما كان أجدادكم يفعلون. أنتم لم تحترموا وصايانا، جعلتمونا خالدين وما نحن بذلك، سيجتم حول أسمائنا أساطير مكذوبة ورحتم تتفاخرون بها على بعضكم البعض حتى صدقتم كذبتكم. دفعتنا رعونتكم وقسوة قلوبكم دفعًا إلى أن نعتزلكم ونعتزل الحياة، اعتقدنا أن إحساسكم بنا سيعود لو حبسنا أنفسنا عنكم، لكن بدا أن هذا يروق لكم، نسيتم أننا ما زلنا أحياء نرزق وقلتم أننا خالدون، ورويتم القصص لأطفالكم حتى يكبروا على سيرة أننا لا نخرج

ولا يستطيع أحد رؤيتنا، حتى حملتمونا أخيرًا على هجرانكم، والبعد عنكم نحو أرض بعيدة تمام البعد عنكم، حتى إننا ربما نضطر للعودة إلى أراضي الحطام البعيدة لكي تدفن أجسادنا العجوزة بجانب الأرواح التي رحلت قديمًا . . مع الحمى.

صدقناكم وآمنا بكم فكذبتمونا، قلنا لكم ولقنّاكم أنكم جميعًا إخوة لا فضل لأحدكم على آخر، وأنكم رغم اختلاف طفيف في أشكالكم ستظلون أمة واحدة، فضربتم بحديثنا كله عرض الحائط واتبعتم ناموسًا جديدًا ترضون به غرائزكم وغروركم المثير للشفقة، وها أنتم، تحفرون قبرًا بوسع مدينتكم وبأيديكم، ومن الذي يعاني؟ لا أحد إلا نحن، نحن من أنجبناكم، فكل طعنة في أجسادكم تقتلنا بالبطيء، والأرض التي تمنينا بناءها من بعد الحرب أضعتموها أنتم بغفوتكم وتنازعكم، وخضبتموها بالدماء ومزقتموها، ومن يعاني؟ نحن أيضًا".

وانتهت الصفحة. . وانتهت الرسالة، وقلبت للصفحة التالية. . التي كُتب على رأسها:

"لو أفقتم أخيرًا وأتيتم إلى هنا، ووجد أحدكم هذا المكتوب، سنحكي لكم عن صراخكم الذي تغفلون عنه ولا تتعلمون منه، صوتكم وصوركم وأنتم تنتحبون على موتاكم، لكنكم لا تعرفون للعظة دربًا.

بأيديكم في أراضيكم! وسنكتب بأيدينا عن تبعات المرض، سنذكر لمن لا يعرف الذي حدث والذي جرى وسيجري، واعلم أيها الذي تقرأ، أنت هنا في مأزق كبير، نعلم أنها أراضينا، لكننا نقول لك، إن لم تستطع أن تغير الوضع هنا، فاهرب بعيدًا حتى لا يلوثونك بمعتقداتهم كما لوثوا أنفسهم، وعليك أن تعلم. . أن هذا المكتوب يمضي مع الزمن يومًا بيوم، يكمل ذاته، وحتى لو ابيضت صحفه من الحروف، سترى بقع الدم تتفشى به يومًا ما، عندما

تلجأ إلى هنا هلعًا من الحرب بالخارج. سنحكي قصة أمة تضيع بالبطيء، لنحاجيكم به يوم الحساب أمام الله، بأننا خبرناكم بالحق فرفضتموه، كما هو حال الأمم التي تجبرت. . لكننا نخشى عليكم من الصاعقة أو الطوفان، كما أننا أيضاً نتمناه في نفس الآن، نخاف عليكم من الهلاك، لكننا نسأل الله أن يبدلكم بقوم أكثر عقلاً وأكثر إحساسًا، ونسأله وطنًا كالذي صنعناه قديمًا، يعيش على كلمة واحدة، بدون حرب، بدون موت، بدون دمار، وبلا رماد" .

• • •

العهد

(عندما تفيقون من نزاعاتكم، ستجدوننا قد سئمنا ، ورحلنا)

(لكل جواد كبوة. لكن الجواد الأحمق يستنزف كثيرًا من الكبوات، بالتالي فإنه يشعر بكثير من الألم، ولو أنه فكر قليلًا بعيدًا عن رعونته، لما سقط ولو مرة واحدة)

بداية القصة

الحرب الأهلية اللبنانية. . .

نزيف من أرض خصب بدرية، وسكاكين في بلدة الغناء والعلم، والجمال.

(من الثالث عشر النيساني لعام ١٩٧٥ إلى الثالث عشر من تشرين الأول. بلا توقف، دمار تام بمجال أوسع من عمق الحرب التي خلقت الدمار)

الثامنة، صباح اليوم الأول

صباح زينته حبات الندى، حينما كانت فروع الشجيرات الغضة بين الطرقات تعطي الشوارع رائحة الياسمين وعصير الزيتون. يمضي في طريقه بقدم ويؤخر قدمًا، يطالع وجوه الأطفال، ويخفي الكاميرا المعلقة على عاتقه عن عيون الصبايا الحسان حتى لا يشككن في نيته. ثم يرفعها ليصور طفلًا يجذب صديقته لتلعب معه، وأخرى تهدي أمها كوب عصيرٍ بيدها لتتذوق الشراب اللذيذ، وهي تمحو بظهر كفها بقايا الشراب الأحمر من أعلى شفاها، وتضحك محدثة بهاءً ملائكيًا.

تبسم وأخذ يطالع المشهد عن بعد، ثم تخطاهما نحو المقهى القريب بنهاية الشارع، جلس على كرسيٍ أمام بابه، وطلب من النادل كوبًا من القهوة، ثم ثبت نظره أمامه، يطالع عصفورين يلاعب كل منهما الآخر، ذلك يسرق من فم تلك حبةٍ قمح، وتلك تمسح جسدها ثم تزقزق وتطير بعيدًا تصطنع حزنًا، فيسرع ذلك خلفها خوفًا على فراقها، ثم يعودان معًا للعش ذاته

يتقاسمان الحبة وكلٌّ منهما راض عن نصيبه. تبسم مرة أخرى في حين وضع النادل كوب القهوة فوق طاولته، وجاء ذلك الفتى صاحب العينين الخضراوين كلون شجر ربيعي مزدهر.

لم يلحظه محمد لبضع لحظات، قبل أن يستدير له ويمنحه البسمة الثالثة ويقول:

-وصلت؟ تعرف طريقي دائمًا.

-ألا يمكنني أن أعرف طريقي؟

ضحك نصف ضحكة وهو يمسك بالكاميرا يقلبها بين يديه وينظف عدستها:

-وهل أنا طريقك؟

-لا، ولكن لكلينا ذات الطريق.

تبسم وصاح للنادل:

-أعطنا يا فادي بالله عليك كوبًا آخر من القهوة، مع ملعقة واحدة من السكر إلا بضع ذرات، كما يحبها خالد.

فرد النادل بذات الصياح:

-عيوني.

قال خالد متبسمًا:

-دائمًا تعرف ما أريد بالضبط.

-من واجبي.

التقط خالد الكاميرا من بين يدي محمد وقال:

-أتسمح لي بإلقاء نظرة؟

-خذها، لو استطعت أن تحرقها فلن أناقشك.

عقد خالد حاجبيه وترك الكاميرا، ثم قال متشككًا بلهجة المستعد لسماع إجابة مألوفة ومؤلمة:

-لماذا تقول هذا الحديث؟

همس:

-لأنني أكره مهنتي، رغم أنني ذات الشخص الذي مضى أوقات طفولته يحلم بها، كنت يومها أعتقد أنني سأكون مصورًا لغابات الأرز، أو حتى في استوديو ألتقط ابتسامات العروس الخجولة والجذلة في آن واحد، والعريس يقف بجانبها يغمز بإحدى عينيه لها وبالأخرى لي، يطلب مني أن أجعلها تبدو رائعة بالصور وأن لا أظهر جميع مفاتنها، أصور أطفالًا رضعًا ومراهقات في أزياء ملونة، أفعل أي شيء جيد، التصوير يا صديقي اختراع لتسجيل اللحظات التي تستحق أن تحيا. لكن الموت، الدمار، القتلى والتفجيرات، هل يستحق ذلك أن نسجله؟ هل يستحق أن نصوره ونخزن صوره ليقلب علينا المواجع كل لحظة، هل يصلح ذلك بحق الجحيم؟!

صمت خالد تمامًا والإجابات المواسية تندفع إلى حنجرته، كان يعتاد هذا الحديث الأليم من صديقه، لكنه لم يكن يملك ردًا غير تلك المواساة اللعينة مبتورة الأيدي والأقدام، حاول مرارًا أن يساهم مع صديقه في حل تلك الأزمة، لكن الظروف والحرب كانت أقوى من كليهما، الدمار الذي يمضي فيه محمد كل يوم يسلبه سعادته، والصور التي تلتقطها عدسته يوميًا يعود لتفريغها كما يفرغ دموعه على القتلى في صورهم. يطالعهم، يفكر في حال أهليهم، أكان أيٌّ منهم يعتقد يومًا أن حياته التي يرى فيها كثيرًا من الأحداث تمر، يبكي ويثور ويضحك ويثرثر، أكان يعتقد يومًا أن الحال سينتهي به أشلاء متناثرة وهو يشتري حاجيات المنزل مثل بعض الزيت والدقيق! أو يحتسي كوبًا من الشاي في أحد المقاهي؟!

أكان أيٌّ منهم يتوقع مجزرة تنتظره في حيه وهو يمشي بجانب والدته، يخبرها عن رأيه بصراحة في الكعكة التي صنعتها بالأمس وقد بدا على أسارير والدته ما لا يسر؟! أتخيلت إحداهن أنها وهي تتمشى بجانب صديقتها بعد عودتهما من المدرسة، وتتحدث عن السؤال الصعب الذي

ألقته المعلمة في حصة الفيزياء، وعن صديقتهما التي أصبح شكلها قبيحًا بعد أن صبغت عدة خصلات من شعرها الأسود لتكون صفراء، أن انفجارًا ما كان ينتظرها قبيل المنزل ببضع خطوات؟

وكل هذا، يضطر محمد أن يذهب ليصوره، ويقف أمام الجثث يلتقط لها الصور وينظر لها عن كثب، يتفرس الملامح التي شوهت، والأصابع والأيدي التي تتطاير، والدماء التي تلوث قمصانه عندما ينحني على الجثث يصورها من منظر قريب، ومحمد يسكن تعيسًا بين متاهات الدماء، وشظايا أشلاء الجثث المفحمة.

-أنا ذاهب.

قالها محمد وهمّ بالقيام، بينما وقف خالد أمامه أيضًا، قال:

-هكذا باكرًا؟

واكتفى محمد:

-نعم.

-إلى اللقاء، أراك مساءً.

-حسنا.

وافترقا، كلٌ منهما إلى سبيله الخاص.

• • •

بين طرقاته مضى، يخفي آلته المصورة في حقيبته، ويستمع للأصوات المنبعثة عبر المذياع وأجهزة التلفاز من بين المقاهي، كان الصبح يتفتح والشمس تزدهر وتنير الحواري الضيقة والشوارع المتسعة بنفس القوة والوهج، ظل يسير على حافة طريق طويل، ينتهي إلى شارعين فرعيين، اختار الاتجاه الأيمن ومضى حتى ثلاثة منازل، وقف أمام المنزل الثالث، بوابته أمامها حديقة من زهور، تقف فتاة توليه ظهرها وشعرها الشمسي المموج الملتف حول خصلات بعضه

البعض يصل لنصف ظهرها، ويحوطها، تنحنح متحرجًا، فالتفتت إليه، ومقلتيها تلمع في عينيه ببريق عسلي ساحر تركز في حدقتيها حتى القاع، عينها تشف ما وراءها من مشاعر وتفضح إحساسها لا سيما لو كان هو الذي يسبر أغوارها، كانت أسهل الناس وأخفهم على قلبه، كما كانت أكثرهم غموضًا، ولا يعرف هو كيف لهذا أن يكون!

أنزلت من بين يديها الدلو الصغير والكوب الذي كانت تستخدمه في سقي الزرع، فتدلى الصليب الفضي من نحرها برقة وبريق، نظرت له بطرف عينها فتبسم لها وفعلت بالمثل، مد يده للسلام فقدمت له يدها على استحياء، قال:

-كيف أنت؟

ظلت على ابتسامتها وهمست:

-نشكر الرب.

-أرى الزهور قد استفاقت واستيقظت لما أطللتِ عليها!

ضحكت ضحكة خفيفة فأكمل قائلًا:

-دميانة، أين الإبريق الذي كنتِ تستخدمينه في الري؟

-ثُقب، والميزانية لا تكفي لشراء جديد.

-لا مشكلة.

توقفت صامتة لبضع ثوانٍ، ثم بادرت:

-أنا مسافرة آخر النهار، سأذهب لزيارة خالتي بالجبل [1]

-ستتأخرين؟

---

١ – كانت محافظة جبل لبنان من أكثر المحافظات اللبنانية التي بها سكان مسيحيين موارنة، بالإضافة إلى بعض المسلمين وبعض الدروز والكثير من المسيحيين الأرثوذكس.

-عِدة أيام فقط.

-والطريق، أنا أخاف عليكِ.

-لا تخف، ماذا سيحدث أقبح من وحدتي على أي حال، أنت لا تدري كم أن الأمر ممل، منذ توفت أمي وأنا أسكن هذا المنزل الواسع وحدي، لا ونيس لي غير تلك الزهرات، وأنت.

بلل شفتيه وقال مستنجدًا بها منها:

-وهل أنا لا أكفيكِ؟

-تأتيني مرة كل ثلاثة أيام؟ حسنًا، ولكنني ما زلت وحيدة، أنت لا يمكنك تخيل حياتي يا محمد.

أمسك بيديها، وقال بصدق:

-أعدك ستعودين لتجدي فستان الخطبة في انتظارك ووقتها لن تكوني وحيدة.

تهللت أساريرها وقالت:

-أقنعت والدتك؟

ارتبك، لكنه قال:

-نعم، يبدو لي هذا.

صاحت:

-أيها الرائع.

ثم ألقت نفسها تحتضنه، تبسم من خلفها بمرارة، بينما يدافع دموعه لتثبت في موطنها، كما تثبت هي في موطنها، في صدره، لكن هل تسمح الظروف له كموطن أن يستقبلها رغم أن

الحصار يخنقه؟ عاد يتنهد من ثقل الأحلام الوردية على أنفاسه، تذكر أمه، المرأة المسلمة الملتزمة التي تقبع هناك في منزلها ذي الساحة الواسعة.

تربت على علوم قليلة في دينها لكنها أحبتها ورضيت بها حد الصرامة كقوالب جامدة لا تقبل النقاش، هي طيبة القلب بشكل أو بآخر، لكنها كأي أم لا تريد لولدها

الوحيد على فتاتين إلا أجمل زوجة. وحينما صارحها بحبه لمسيحية مارونية "متدينة"، كان الأمر كصاعقة أفلتت لجام لسانها لتنهره كما لم تفعل أبدًا منذ ولدته وعانت في مخاضه، ألقت على مسامعه ما يعرفه، أخبرته عن الحرب المخزونة في عدسة الكاميرا خاصته، وصور الأبرياء والصغار غارقين في بحور من دمائهم، وصرخت في وجهه:

-تريد أن تتزوج من قاتلة!

-يا أم محمد، هي لا تقتل.

-والدها.. إخوانها، تريد إخباري أنهم جميعًا ملائكة وأيديهم نظيفة من الحرب والدم؟!

-يا أمي، إنها يتيمة، والدها توفى يوم أن ولدت، ووالدتها تصارعت مع الربو حتى هزمها فماتت به، وتسكن وحدها، وبقية أهليها في الجبل (جبل لبنان)، صدقيني، ليست كما تظنين..

زعقت أمه ذاك اليوم تحلف أنه لو تزوج تلك الفتاة لن يكون لها ولدًا. ومضت الأيام وهو مستمر في طلب رضاء أمه بالأمر، لكنها لم ترضَ، قالت له يومًا:

-اجعلها تسلم حتى أرتضيها لك.

فرد مستاءً:

-أنا أرتضيها مسيحية يا أمي.

واليوم.. يخبر دميانة كذبًا أنه حصل على موافقة أمه، فقط ليحصل منها على ابتسامة

صافية، وهي أعطته عناقًا، فماذا عليه أن يفعل الآن؟! حاول أن يبدو طبيعيًا في أثناء الضمة، لكن قلبه المنهك لم يسمح لوجهه أن يرسم أي تعبير سعيد.

-ما بك؟

-سعيد فقط.

-أخشى أن تكون كاذبًا.

صاح بها يتصنع الانفعال:

-ولماذا أكذب، وهل مثلي أنا يكذب؟! ثم إنه..

أغلقت على فمه بسبابتها، وتبسمت بدلال خجول:

-لا داعي لهذا الحديث، آسفة، سامحني فقط.

وانفلتت من بين يديه وهي تدفعه للخارج مازحة وتقول:

-هيا اذهب، عملك ينتظرك.

تبسم بمرارة حينما تذكر العمل، وقال:

-لا عمل حتى يتم الاتصال بي، لكني سأذهب على كل حال.

أعطته قبلة بلا إيحاء، شعر فقط كأنها قبلته، بينما استدار هو، نحو وجهته البعيدة.

• • •

دخل حارته مع أذان الظهر، كان دائمًا إذا مضى إلى حارته يستعجب تلك البلدة التي تبدو وكأنها منفصلة عن العالم، تقوم فيها الحياة طبيعية رغم الحرب بالخارج، ويعيش أهل الحي تآلفًا قليلًا ما يحدث في مثل تلك الأوقات والأماكن، الأصوات من حوله كانت صاخبة خصيصًا عندما مر بـ"أم معاذ"، التي تضرب ولدها على ظهر يده كطريقة للعقاب الطفيف، كعادتها في مثل هذا الوقت تقريبًا بصفة دورية؛ فهي تأخذه معها إلى السوق، وكعادة الشقي الصغير فإنه ينفلت

من بين يدها بعيدًا لتعيش هي دقائق عصيبة للغاية حتى تجده لتحتضنه وتبكي، ثم تضربه عقابًا ليتعظ ولا يفعلها مجددًا، لكنه للأسف يفعلها !

سار خطوات بسيطة بعد أم معاذ التي رمت حاجيات السوق من بين يديها لتتفرغ لتوبيخ الصبي بعينيها، وبقليل من الكلام المهموس، الذي يعرفه جيدًا ويعرفه جميع أهل الحارة، بسبب العشرة والمداومة والتكرار، مضى لبيت الوالدة كما يحب أن يسميه، وكانت تجلس على درج البيت الداخلي تمشط شعر الصبية لمار ذات السبعة عشر عامًا، أخته.. رمى التحية ودخل المنزل.

-السلام عليكم.

-وعليكم السلام، انتظر.

تركت الفتاة وقامت تتلمس ملامحه في أمومة مفرطة وهي تمسك بوجنتيه.

-ماذا هناك يا أمي؟

-بك شيء متغير، ماذا هنا؟!

-لا شيء، أشعر ببعض الدوار فقط.

أمسكت تسنده، وهي تهدر:

-بسم الله عليك، اجلس طالما أنك متعب، من ماذا؟ هل أكلت شيئًا من خارج المنزل؟ قل ولا تُخفِ عني، هل تشاجرت مع أحد؟

أفلت جسده من يدها وقال بنبرة متعبة حقًا:

-لا شيء حقًا يا أمي، فقط أريد أن أبقى وحدي.

قالها وتركها نحو غرفته، وعيناها تلاحقانه من الخارج، هذا الفتى منزعج بهم غليظ، وأعلم أن ما يزعجه نفسه لا جسده، هكذا حللت في بضع لحظات بينما مضى الشاب نحو غرفته إلى الداخل ومضت هي خلفه.

-أمي، ألن تكملي تضفير شعري؟

-افعلي أنتِ.

أسرعت خلفه، طرقت باب غرفته ثم ما لبثت أن سمعت الإجابة، وقفت بعين متفرسة ومخترقة له، تصوب له نظرات قوية.

-ما بك؟

-لا شيء.

-بل هناك، وستخبرني.

اقتربت منه وجلست على حافة سريره بينما أقعى هو فوق الفراش وأمارات اليأس تملك وجهه:

-أمي، سأحدثك صراحة ودون مراوغة، أنا أحب دميانة وأريد الزواج بها، وأعلم أن هذا القلب طيب ونقي، أعلم فقط أن الحرب هي التي تحيّدكِ عن قرارك، لكن أقسم لكِ أن الفتاة التي رفضتِ لقاءها ولعنتِها ورميتِها بسحرٍ ليست كما تظنين، إنها نقية مثلك وبعيدة كل البعد عن الحرب والسياسة، وتحبني حقًا، ولو تزوجت بها ستربي أبنائي على أن يجعلوا لبنان والإنسان فوق كل شيء، سوف تربيهم بعيدًا عن صرخات البرلمانات وصداع الاتفاقيات والتحليلات السياسية المقيتة والنزاع الذي لا ينفض، هل تصدقين لو قلت لكِ أنها ستربيهم تربية إسلامية صحيحة أكثر من كثير من المسلمات؟ لأنها تحبني حقًا. لقد قرأت في القرآن ولديها علوم كثيرة في الإسلام رغم تمسكها بمسيحيتها.

إنها تريد أن تعيش في كنفك، إنها يتيمة، ستتخذك كأم لها من أول يوم، تلك الفتاة التي رفضتِ رؤيتها يا أمي، أعدك أنكِ إن ألقيت نظرة واحدة عليها من نظراتك الفاحصة، سوف تعلمين تمامًا عن نياتها، وترفقين بيتمها ووحدتها، وستعلمين أنها لا تستحق منكِ كل هذا البغض.

استمعت أم محمد للحديث كاملًا بنظرات حادة، ثم قامت واقفة عند باب الغرفة وهي

تنصب جسدها لتبدو أكثر صرامة، ثم قالت بصوت خالٍ من التعبير:

-أم معاذ تريد أن ترسل لك ولدها لتلقنه بعض الدروس بالعربية والرياضيات. . أتعرف؟ لقد أخرجته المرأة من المدرسة بسبب الحرب، وهي تخشى عليه الجهل، أأنت مستعد لذلك؟

أومأ إيجابًا فقط، يائسًا من حديثه معها، قالت:

-متى يأتي إليك؟

-أي وقت، الآن إن أرادت والدته.

-حسنًا، اذهب وخذ الولد منها وأخبرها بالأيام التي تكون متفرغًا فيها للصبي.

قالتها، وأغلقت الباب، وأغلقت على قلبه.

• • •

وقف أمام منزل المرأة، طرق مناديًا باسمها، فمضت عِدة دقائق قبل أن يفتح الباب، لتظهر المرأة، بردائها الأسمر وغطاء رأسها المعتاد، شابة في السابعة والعشرين في ثياب عجوز، اعتمدت ارتداء الأسود ديدنها بعدما توفى زوجها في أحد التفجيرات وولدها الصغير على يدها لم يكمل العامين، والفتى كبر يومًا بعد يوم، والشابة بداخلها دفنت وماتت، ولدها كان وما زال هوسها الوحيد، تراه منجاتها الوحيدة من الدنيا التي قست عليها كثيرًا، لكنه كان شقيًا على عكس ما تمنته، فبينما هي تريده بالقرب من يدها ممسكًا بردائها دائمًا، كان هو يحلم بأن يفك قيوده لينعم بقليل من الحرية كما هي أحلام العصافير المسجونة، لكن معاذًا الذي كانت تشغله ألوان السوق وأصوات الباعة وروائح التوابل لم يكن يدرك كم هو تعلق أمه المدفونة حية به. . لم يعلم أنه لها كطوق نجاتها الوحيد والصغير في آن واحد، في بحيرة متلاطمة، لا تملك إلا هو.

-كيف حالك؟ جئت لأجل معاذ.

أنار وجهها وتبسمت بود أظهر النتوءات عند فكيها واضحة من الهزال الساكن في عظامها،

قالت:

–حقًا يا أستاذ محمد! ستعطي الولد دروسًا؟

أومأ إيجابًا، نادت هي الفتى من الداخل ثم قدمت يدها تسلم كأنه أتى للتو، قالت معتذرة:

–والله ما كنا نريد أن نزعجك معنا، لكن أنت تعرف، الولد كبر عن موعد المدرسة عامين كاملين، وأنا لا أعرف كيف أدرس له، وأنت ما شاء الله عليك يحرسك ربي، تعرف، والولد أيضًا يحبك ويحب الجلوس معك، ومتعلم ويمكنك تدريس الأساسيات له حتى لا يصبح جاهلًا.

جاء الفتى من الداخل يحتضن كراسته ويخفي القلم خلف أذنه كنجار متمرس قائلًا في سعادة تغمره:

–أنا جاهز.

ربتت على شعره وهي تدعوه للذهاب، كاد أن يرحل لكنها استمهلته قائلة:

–متى تنتهون حتى آتي لآخذه؟

فقال:

–لا عليك، يمكنه أن يأتي وحده، ليس صغيرًا كما أن المسافة بين المنزلين خطوتين فقط.

نظرت بجدة وأردفت بقول مماثل لنظرتها:

–لا، لا يمكنه أن يذهب وحده، سآتي أنا لآخذه، أعطني موعدًا وسآتي في تمامه.

–بعد ساعتين مثلًا؟

–حسنًا، كما قلت، لا تخرجه من المنزل حتى آتي أنا.

أومأ فقط، ومضى والصبي معًا.

• • •

جلس الصغير فوق كرسي المكتب كأنه هو المعلم، بينما جلس محمد على فراشه:

-حسنًا، بماذا تريد أن نبدأ، الرياضيات أم اللغة العربية؟

-يمكننا أن نبدأ بحصة الألعاب.

ضحكا، بينما قال محمد:

-أي مدرسة تلك التي تعطي بالحصة الأولى ألعابًا؟!

-مدرستي، هكذا تخيلتها، ثلاث حصص فقط تبدأ من العاشرة صباحًا وحتى الثانية عشرة ظهرًا، الحصتان الأوليان ألعاب، والثالثة تربية فنية.

-هكذا إذاً؟!

أومأ معاذ بشدة، وهو يقول حالمًا:

-ماذا نحتاج أكثر من بدن صحيح يملأه العنفوان ووجه مبتسم وخيال يعمل بصورة نقية؟!

ضحك محمد ساخرًا:

-من أين أتيت بهذه الحكمة يا صاحب الثمانية أعوام؟

قال الفتى بعفوية مندفعًا:

-من أبي، كان يقولها دائمًا، هكذا تقول أمي، وتقول أيضًا أنه مات قبل أن يحقق الحكمة التي نسجتها أحلامه، ويرى مفعولها يظهر فوق جسده ووجهه، لكن أمي تقول أيضًا أنه جاهد كثيرًا ليحاول أن تحيا الحكمة فيه وبه.

كانت دموع محمد توشك على النزيف، لكنه تمالك نفسه وأقبل نحو الفتى يقبل رأسه:

-أين كنت من زمن أيها الصغير، أتعرف؟ أنت من اليوم صديقي، هل اتفقنا؟

أشار الفتى بالموافقة بلهفة، فأتبع محمد:

-ستأتي أمك بعد ساعتين، سندرس ساعة ونصف، ونلعب نصف ساعة، حسنًا؟

أشار حزينًا بيديه وقال:

-نصف ساعة فقط!

-أنا الآن معلمك، سندرس وأعدك بنصف حصة للرسم، يمكنك أن تأخذها كرشوة.

ضحك الصغير مضيقًا عينيه الصغيرتين:

-وأنا اقبل بالرشوة، أقبل بها جدًا!

استدار محمد حول المكتب وأتى بكرسي وضعه أمام الفتى، بجانبه الأقلام والأوراق، وقال بصوت عالٍ وهو يكتب الأرقام أعلى الصفحة:

-الجمع.. عندما ندرس نصف حصة رياضيات وحصة لغة ونصف حصة رسم وحصة كاملة للألعاب، كم الوقت الذي سنحتاج له حتى ننتهي؟

حك الفتى رأسه مفكرًا لبضع دقائق، ثم رفع سبابته للإجابة وقد تهللت أساريره:

-حتى تعود أمي.

وضجت الغرفة بأصوات الضحك.

• • •

-صدقني أن تكون معنا خير لك، انضم لنا وكن رجلًا يا خالد.

-اخرس، أنا رجل من دونك ومن دون جماعتك.

-يكفي أنك تصادق مسلمًا سنيًا!

قالها الفتى الذي يقف بجوار خالد بجانب منزله بحيهم المشترك، كان خالد يعرف هذا الفتى فهو صديقه لكن صداقتهما كانت متقطعة وعلى المحك دائمًا. خالد فتى درزي، وكونه صديقًا عزيزًا لمسلم سني بتلك الحرب هو أمر مثير للشكوك، فقد بدا في حيه مشكوكًا في أمره ينظر الكثيرون له بريبة. قال مندفعًا:

-وماذا إن كان صديقي مسلمًا؟ أنا أرتضيه، إنه أفضل لي من كثيرين مهما كانت دياناتهم والمِلل التي يتبعونها، أنا أرتضيه يا أكرم.

-ما علينا الآن، لكن لماذا ترفض أن تشارك معنا؟ لماذا ترفض أن يصبح لك دور و..

-دور في الحرب! إن كان الدور الذي تقصده هو أن أكون قاتلًا فأن أكون هامشًا أو صفرًا على اليسار أفضل عندي من أن يكون القتل دوري.

-هذا إذاً حديثك؟!

زم خالد شفتيه بعدما قال:

-نعم، ولا رجعة فيه.

-لك ما طلبت، لكن لا تنسَ، بابي مفتوح لك متى شئت.

قال كلمته الأخيرة بنظرة جمعت بين الخبث والدهاء، في غلاف وقور هادئ لم يخفِ نيته.

•••

صاح الصبي بفرح:

-أنا أفوز.

-نعم، لقد فزت.

سمع رنات جرس الباب الخارجي فقال:

-وأمك أتت أيضاً.

أمسك الفتى بذراعه يسأله أن ينحني ليحدثه في أذنه ففعل، قال معاذ هامسًا:

-ألا ترى أن أمي تصنع حصارًا حولي؟

نظر له نظرة مفادها أن يسكت، وتمتم:

-لا تقل لها إننا قضينا نصف الوقت نلعب الكرة.

هز الصغير رأسه إيجابًا وقال:

-بالتأكيد.

فتحت أمه الباب فسمعا أصوات الترحيب من الخارج؛ فخرج وبيده الصبي يتصنعان الانهماك بالدراسة، قالت أم معاذ والفتى يميل من أمامه ليدها:

-كيف حال أول يوم دراسي؟

فرد الفتى:

-جميل جدًا.

عقدت حاجبيها وقالت:

-تبدو سعيدًا بالدراسة على غير العادة!

غمز الصغير محمد خلسة وهو يقول لأمه:

-عمي محمد مدرس رائع يا أمي، أعطاني رياضيات ولغة في يوم واحد، ويشرح بطريقة جعلتني أفهم مباشرة دون حاجة لأنْ يعيد شرحه.

نظرت المرأة ممتنة لمحمد، ثم حولت نظراتها لأمه:

-اللهم بارك لكِ فيه يا أم محمد.

ثم أخذت المرأة صبيها، وانصرفت. هم محمد بالعودة لغرفته لكن والدته استوقفته:

-انتظر.

وقف مقابلًا لها، تنظر له بعينين خاليتين من التعابير، لكن زاوية فمها انفرجت عن اختلاجة صغيرة، وقالت:

-تلك الفتاة تأتي لي بها غدًا.

تهلل وجهه:

-وافقتِ؟

-لم أوافق، فقط قلت أحضرها .

-حسنًا، حسنًا، لا عليك، هي مسافرة الآن، فور أن تصل سآتي لكِ بها .

اقترب نحوها بعفوية مقبلاً جبينها، في حين تمتم قلبها بدعاء خاشع واختلاجات نفسها تتصارع بأفكار شتى، متضادة، على قدر تلاحقها والتصاقها .

عدا إلى غرفته بقلب محلق، لم يحصل على موافقة هكذا لكن تلك أمه، يعلمها ويحفظها عن ظهر قلب، طالما أن خيطها قد انسدل فإنه كابن سيستطيع كرّه حتى ينفلت تمامًا، تخيل اللقاء الأول بين أمه ودميانة. . ستحنو عليها من النظرة الأولى بالتأكيد . قالها متمتمًا وهو ينظر نحو هاتفه الذي أصدر نغمة الرسالة: "نريدك حالاً في الجريدة"، هكذا كان مفاد الرسالة، فابتأست أماراته التي كانت سعيدة وتمم بمرارة:

-أي انفجار حدث وأي مجزرة قامت الآن؟!

• • •

-هل فهمت منه؟

قالتها "أم معاذ" وهي تضع أمام ولدها طبقًا من الأرز وقليلاً من حبات الطماطم المقطعة، أشار الفتى برأسه تمامًا على حديثها وقال:

-نعم يا أمي بالتأكيد، إنه رائع .

جلست تفترش الأرض أمامه، وهي تسمع لحديثه بإمعان، قالت:

-ستذهب له غدًا إذاً .

-نعم، كل يوم .

صمت الفتى بينما يلوك بين أسنانه اللبنية ملعقة الأرز، وحينما ساد الصمت بادر قائلًا بصوت قصد ألا يثير حفيظة وضيق أمه:

-أمي، لماذا لا تتركينني ألعب مع الأطفال بالخارج، ليس لي إخوة، وفي بعض الأوقات أشعر كثيرًا أنني وحدي، وأنتِ لا تعرفين كم أن هذا الإحساس يغضبني؟

-بل أعرف.

قالتها مندفعة، ثم تنهدت بقلة حيلة وقالت:

-لكنني يا ولدي لا أملك ثمينًا غيرك؛ لذا لا يمكنني التفريط بك، لقد مات والدك بعدما تزوجني بثلاثة أعوام، وكنت طفلًا على يدي، وكنت وحيدة إلا بك، وبقيت كذلك. لك أن تعلم يا ولدي أن الهوس الذي أعانيه بشأنك ليس من ذنبي، الحرب المستعرة بالخارج تقلقني وتؤرق أيامي؛ لذا فلن أفعل أبدًا وأفرط بك يا بني، ولو أمكنني أن أقيدك في يدي بجديد وفولاذ سأفعل دون تردد، اعذرني يا ولدي فليس ذنبي، إنه ذنبهم، ذنب كل المسوخ ممن بدأوا تلك الحرب النهمة للدماء، فهمت؟

أومأ بتشكك، فقالت:

-يومًا ما ستفهم بالتأكيد، وستشكرني لأنني استطعت أن أحافظ عليك.

• • •

جلس الجمع أمام شاشة التلفاز يتابعون باهتمام، والدا خالد يجلسان على الأريكة الكبيرة بمنتصف الصالة، الأب خلع نظارته وألقاها بعصبية أمامه بينما الأم تجلس وتئن أمام صور القتلى والمجروحين، انفجر أخو خالد الأصغر:

-يا لدناءتهم! حسبنا الله عليكم أيها الملعونون، هكذا تقتلون الأبرياء بلا رحمة!

هدر الأب بصوتٍ ملكوم لكنه خرج في هالة من الهياج:

-ماذا تريد منهم؟! الحرب حرب، يضربون في الأبرياء بلا شفقة؛ لذا علينا أن نرد أيضًا بلا شفقة، الرجل حقًا من سوف يستطيع تدبير مثلها لهم.

-هكذا هم المارون، لعنة تمسك بهم.

قالها أخوه ساخطًا وأتبعها بسباب عظيم. وقتئذ، صاح الأب صارخًا:

-ليت بين ابنيّ رجلًا حقيقًا، يشرفني بمثل فعل كهذا.

بدت ملامح أخيه تدل على التراجع بينما هدر الأب صارخًا في وجه خالد:

-لست كأخيك، كان على القدر أن يلاقيني بحتفي قبل أن أرى ولدي مجمعًا للأديان.

ثم أكمل بسخرية وصوت أعلى:

-درزي صديق وملازم لمسلم يحب مارونية، أي عته هذا الذي تمارسونه؟!

صمت خالد تمامًا، لكن ما بداخله لم يصمت بل كان يشتعل، ولهيبه يزداد مع حديث والده وصور القتلى على التلفاز.

• • •

يقف بحذر ومن خلفه المذيع يمسك بميكروفونه، ورغم عناء الرحلة فإن أهمية تغطية الخبر كانت فوق كل شيء، التقط المزيد من صور القتلى، والمذيع يشير له نحو أماكن الدماء والأشلاء، بينما سيارات الإسعاف من الخلف تنقل وفودًا متتابعة، اختار المذيع مكانًا بحيث لا يقف فيه معرقلًا لسير المسعفين أو فوق أشلاء الجثث، وبدأ يلقي نبأ الانفجار المدوي أمام عدسة محمد الذي عبر وجهه لا إراديًا عن الغثيان، بينما احتشدت داخل أنفه رائحة البارود تختلط بالدماء، أنهى المذيع نبأه ثم وقفا قليلًا ليأخذ محمد بكاميرته بضع لقطات أخرى قبل أن يرحلا تمامًا.

-جيد جدًا، لقد انتهينا سريعًا، ربما نعود آخر النهار لكننا سنحظى براحة طويلة.

قالها صديقه وهما يهمان بالخروج من موطئ الواقعة، بينما رد محمد يسخر بمرارة:

-لا شيء جيد على الإطلاق، ولا راحة على الإطلاق أيضاً.

• • •

ارتدى ملابسه سريعًا وخرج، كان المنزلان بالحي ذاته لذا فإنه لم يحتَجْ إلا لثلاث دقائقٍ ليكون أمام منزل أكرم صديقه، طرق الباب فخرج أكرم مباشرة وكأنه كان ينتظر خلفه، نظر كل منهما للآخر بضع لحظات متوجسين، ثم دعاه أكرم للدخول.

كان الأخير يعيش وحده، جلس خالد على أول كرسي قابله، وجلس أكرم أمامه ينتظر ما سيقول..

-كيف حالك؟

قالها خالد رغم أنها لم تكن ما أراد أن يقول وهو ما فهمه أكرم، فرد ساخرًا:

-لم تأتِ الآن لتسأل عن حالي، أليس كذلك؟! كنت معك من ساعتين فقط، تكلم.. ماذا تريد؟

مد خالد راحتيه وتنهد بصعوبة، ثم قال:

-انظر، سأساعد فقط، أيًا كانت جماعتك التي تنتمي إليها، لكني لن أفعل شيئًا غير المساعدة.

حك أكرم لحيته القصيرة، وقال:

-هل دفعتك صور القتلى من أبناء عشيرتك على هذا، أم أن سببًا آخر هو الذي يدفعك لهذا؟

تنحنح خالد وقال:

-بل هو، كانت من ضمن القتلى ابنة خالي التي كانت تسكن هناك، كما أن أبي يلمح لي ولأخي منذ فترة عن هذا، يدعونا بالنساء والجبناء، ودماء القتلى الدروز على يد المارون

تستثيره وتغضبه، ما سأفعله، شيء يشفي غليل أمي وأبي لبعض الوقت، ولن يعلم أيٌ منهم بهذا إلا بعد تنفيذه بالتأكيد، فهمت؟

-نعم، على العموم هم يحتاجون إلى مساعدين، سأرسلك لهم غدًا وأنت أخبرهم عن نفسك، قل لهم اسمي واسم الحي الذي أقطنه وسيفهمون، عليك أن تستمع لهم وأن لا تخالفهم.

عقد خالد حاجبيه وقال:

-من هم؟!

-تستطيع أن تطلق عليهم أنهم فرع لجماعتنا لكن في الجبل، أستطيع أن أتنبأ بأنهم يحضرون لشيء ما الآن، سأرسل لهم خطابًا، وتذهب لهم غدًا، حسنًا؟

-حسنًا.

وقام خالد، متجهًا نحو بيته.

• • •

أنزلت حقيبتها أمام المنزل، وسائق السيارة العتيقة الأسمر يقف مترقبًا لها حتى تنتهي من إغلاق باب المنزل، تقدمت نحوه وهي تطالع الطريق لعله تذكرها فأتى ليودعها، قال السائق:

-آنسة دميانة، هل أنت جاهزة؟

أومأت بعدما يئست من حضوره في حين رفع هو الحقيبة أعلى سطح السيارة، فركبتها، وانطلقا.

• • •

يجلس وصديقه على طرف إحدى المقاهي المبتعدة نسبيًا عن مدار الانفجار، بدا الذي معه مستمتعًا جدًا بمذاق الكعكة أمامه، بينما أشعل محمد سيجارة وراح ينفث دخانها سابرًا:

-ما بك، وكأنك درزيًا أصيلًا والأموات أغلبهم أهلك.

قالها الذي معه ساخرًا، بينما لم يبدُ على محمد أنه استمع له أصلًا، وكزه ففزع، فعاد يقول:

-ما بك، أفِق يا رجل من دواماتك تلك!

-اتركني، لا أريد أن أتحدث بالله عليك.

-صحفي أنت ومصور، وحتى الآن لم يعلمك القلم والحبر احتراف تقلب المزاج، والحيادية الصامتة، عليك أن تبرد قليلًا، تلك الثورة ستنهيك قبل أن تنهي عليك الحرب.

-الحبر الذي تتحدث عنه سائل بارد، لا يعي ولا يقدر حرارة ما يكتبه، والآلة التي تحوي صور الترويع والحرب، لن تبكي على المقتولين والجثث ولن تشعر بمدى فظاعة الذي تحمله.

-حسنًا، ولكن الحق لك في الحزن يأتي لو أن أحدًا يخصك مات، أليس اسمك محمدًا؟ وتحزن وتكتئب على دروز؟!

نظر نحوه باشمئزاز، ثم ما لبث أن اندفع بحنق:

-وهل لأنني مسلم وهم دروز لا يحق أن أتأثر حتى لموتهم، أن أكون متبلدًا وباردًا أمام دمائهم، ألا تدرك أنه حتى تلك اللحظة سنظل جميعًا نلتقي عند لقب واحد، كلنا ننتمي لهنا يا عزيزي، كلنا.. لبنانيون.

وأطبق الآخر فمه على قطعة من الكعك، بينما عاد محمد ليسرح في الدخان المتصاعد من أمام عينيه.

•••

-أنا مسافر.

قالها لأخيه خافضًا صوته، في عقر غرفتهم، وقد سأله منذ أن ولجاها أن يخفض صوته تمامًا، قال أخوه بنفس درجة الصوت:

-مسافر، إلى أين؟!

-الجبل، ولا تخبر أحدًا.

-ماذا ستفعل هناك؟

-سأحقق رغبة أبي، سأساعد أهلينا هناك، وأشفي غليل أمي.

-يا أبله، أبوك يقول هذا من همه فقط، بالتأكيد لا يقصد أن يذهب أيٌ منا ويلقي بنفسه إلى الهلاك، ألا تراني حين يقول ذلك، أسمع ما يقول وأعتبره كموجة من فيض هادر، تأتي وتذهب سريعًا..

-لا شأن لي في هذا، لقد أعطيت كلمة، ولن أتراجع عنها.

-لكن..

-لا تخف، لن أفعل شيئًا بعينه، سأساعدهم فقط، ثم سأعود وأخبر أبي حتى يكف عن توبيخنا ووصفنا بالنساء كلما أتى خبر يخص الدروز القتلى على التلفاز، وينتهي الأمر، حسنًا!

تنهد أخوه في قلة حيلة، وقال:

-حسنًا.

بدأ خالد في وضع حاجياته بحقيبة صغيرة، ثم دفنها تحت سريره، وتمتم:

-سيكون سفري بالمساء.

• • •

يدور حولها من حجرة المطبخ وإلى الصالة، ثم من الصالة إلى حجرة المطبخ، كما هو حال إلحاح الأطفال:

-أرجوكِ يا أمي نصف ساعة فقط.

-لا نصف ساعة ولا حتى دقيقة واحدة.

-أرجوكِ.

ضغط على الكلمة وهو يضم يديه أمام صدره في وضع الرجاء، بينما أظهرت هي الرفض التام.

-يا أمي أريد أن أرى الشارع، ألعب مع الأطفال وألهو بينهم كواحد منهم، أرجوكِ.

-لا، قلت لك كثيرًا كف عن الإلحاح، كما أن الوقت مساءً، ولا يمكنك بأي حال أن تذهب.

نظر لها غاضبًا بأوداج منتفخة، ثم خرج وأتاها من الخارج صوت بكائه ونهنهة صوته المتشنج.

-لا تبكِ يا معاذ... أرجوك.

قالتها، بصوت قارب على البكاء!

• • •

التاسعة، صباح اليوم الثاني

هزت عمتها كتفها بتحنان بالغ وهي تناديها لتستيقظ:

-دميانة، قومي يا بنيتي، الإفطار جاهز.

قامت الفتاة تقبل يد عمتها ذات الشعر الأبيض الذي بالكاد تظهر من جذوره النبتة البلاتينية، قامت دميانة تفرك عينيها، ثم سحبتها العمة العجوز نحو غرفة الصالة:

-فرحة قدومك أصبحت فرحتين عندما أخبرتِني بأمر ذلك الشاب، أنا حقًا سعيدة كما لم أكن من قبل، فرحتي بك فاقت فرحتي بزواج ابني. أخبريني إذًا، ما اسم ذلك الشاب؟

ترددت دميانة وقطعة من الجبن محشورة في حلقها، قبل أن تقول خافضة صوتها:

-محمد.

تثبتت عين المرأة على دميانة، وصرخت:

-مسلم!

-......

-تتزوجين مسلمًا يا دميانة!

حاولت دميانة طمأنتها:

-لكنه يحبني.

ثم كذبت مكملة:

-وأسرته ترحب بي للغاية.

-أنت يا دميانة ستعيشين في كنف بيت مسلم، وتنجبين عليًا وعبد الرحمن وعائشة!

-يا عمتي، أنا أحبه، وبداخل منزله أنا متأكدة من حفظه لي، أنا يا عمتي من أراه، أعرفه منذ عامين، لم يفكر أن يمسني ولم يقل لي غيري دينك حتى أتزوجك، إنه يرتضيني كما أنا وسيتزوجني كما أنا.

-أيتها البلهاء، ألم تعلمك الحرب أنه لا يمكن أن يجتمع أكثر من طائفة في بلد واحد إلا وتستعر الحرب كما هو حالها الآن، ألا تريها أمامك تشعل جذوة في بلد بأكملها، وتريدين قيامها داخل منزل واحد؟! يوم أن تفعلي ذلك يا دميانة، لن تكوني ابنة أخي وستتبرأ منكِ العائلة بأكملها، ويومها، سيكون عليكِ نسيان أنك انتميتِ يومًا إلى عائلتنا.

-يا عمتي..

-لا نقاش، وستقولين لي رأيك بالمساء، وإن وعيت وأفقت من غفوتك المظلمة، ستأتين هنا وتعيشين بجانبي، ولن أتركك أبدًا بعدها بجانب هذا الفتى، أما لو رفضت فاذهبي، لكن بلا عودة.

• • •

وقف أمام المنزل يتأكد من صحة العنوان الذي وصفه له أكرم، والمدون في الورقة التي يمسكها بيمينه، نظر على معصمه، لكنه تذكر أنه نسي الساعة أثناء قفزه من شرفة غرفته حينما كان أخوه الأصغر يلقي على مسامعه توسلات بأن يكف عن هذا الذي يفكر به، بينما لم يصدر عن خالد ما يفسر أنه قد استمع لما يقوله أخوه. تقدم نحو الباب الخشبي العريض وطرق، ثم ما لبث كثيرًا حتى انفرج الباب أمامه عن شاب أسود الشعر واللحية، بشفاه سوداء من أثر الدخان، قال بغلاظة:

-من أنت؟ وماذا تريد؟

-أكرم مقدسي، بيروت[1]، زقاق البلاط.

نظر الفتى نحو الشارع يلقي نظرة على القادم والغادي، ثم أشار إليه بالدخول.

قال بصوته الغليظ وهو يخرج من جيبه سيجارة ويلقيها بفمه المعتم بلون الدخان:

-لِمَ أتيت؟ هل أنت مرسال له؟

-لا، أتيت لأساعدكم.

حينئذ، نظر الفتى نحوه متشككًا وقال:

-تساعدنا؟ على ماذا؟

---

[1] – كانت وما زالت مدينة بيروت من أكثر المدن اللبنانية التي تمتاز بتنوعها السكاني والطائفي، حيث كان يجتمع بها كل الديانات بكل طوائفها وتشعيباتها.

-بالأمس حدث ما يشبه المجزرة بحق الدروز هنا في الجبل، ولا أعتقد أن الدروز سيسكتون للمارون، وأنا هنا لأساعد بشيء، من بعيد فقط، ولقد أخبرت أكرم بذلك، ألم يرسل لك الخطاب؟!

-لا، بل أرسل، قال أنه سيرسل لي شابًا جديدًا، لكنه لم يتطرق للتفاصيل.

-حسنًا، سأخبرك أنا، أتيت لأن ظروفي تدعوني أن أضيف إلى سجل أيامي القليل من الإثارة، عانيت كثيرًا بسبب الانقياد للبعد عن الخطر والحياد ولم يعد ذلك يناسبني الآن، وكما قلت، دوري سيكون بخلفية الشاشة، سأساعد فقط، حسنًا؟

-حسنًا.

قالها ودخل إلى جوف المنزل قليلًا وقد صدر عنه ما يشبه حديث الهاتف، ثم خرج وبيده ورقة، قدمها إلى خالد، وأمره بالانصراف إلى هذا العنوان، الآن.

• • •

تتبع العنوان، لم يكن بعيدًا عن المنزل الذي وصفه أكرم، كان أيضًا متهالكًا وقديمًا، طرق خالد بابه ملقيًا التحية ناطقًا باسم أكرم وعنوانه ببيروت، أدخلوه فورًا وسألوه عن رسالة أكرم الذي جاء ليوصلها، لكنه أخبرهم كما أخبر الشاب في المرة السابقة، تضاحكوا عليه وعلى شروطه التي يفرضها، خرج له من بينهم من يبدو أنه الزعيم، أخبره أنه لا يحق له فرض أي شروط، وأنهم من يحددون دوره لا هو، حينها شعر أن الأمر ليس كما تصوره، طلب الخروج والعودة إلى بيروت فتضاحكوا أكثر وأغلقوا الباب:

-نعم يمكنك العودة لبيروت، لكن لا يمكنك أن تعتبرها مرة واحدة، من تخضبت يداه بالدم سيظل متذكرًا عمله بمجرد النظر إلى يده، لكن هون عليك، تذكرني تمامًا بأكرم، قال ذلك عندما التقينا أول مرة، ثم أصبح يجذب غيره إلينا لكي لا يشعر بأنه المذنب الوحيد، فضلًا عن نشاطه الدؤوب.

-ماذا؟! أنا لم أتفق مع أكرم على كل هذا... أريد أن..

–ليس هناك رحيل، فمن يدخل دارنا، لا يخرج قبل أن نتأكد من أنه أصبح واحدًا منا، ابقَ يا فتى، سيعجبك الأمر قريبًا.

• • •

يئس تمامًا وتعكر صفو يومه منذ أن ذهب صباحًا لبيت دميانة فوجدها قد رحلت، وقد أدرك حقًا أنها سافرت أمس ولقد غفل عن هذا بسبب عمله، ونسى تمامًا أن يحدثها بالهاتف مودعًا لها وأن يطمئنها عليه، ثم ازداد تعكرًا لمّا لم يلقَ خالدًا بالمقهى صباحًا وهو ما لم يحدث منذ أعوام حيث اعتادا أن يشربا فنجان القهوة سويًا على نفس المقهى بصباح كل يوم، قرر أن يعود للمنزل، لكنه حاد عن مساره واتجه نحو الحي الذي يقطن به خالد وأهله، فكر أن يكون متوعكًا لذا لم يأتِ، فوجد أن عيادته واجبة، حينما وصل، طرق الباب، كانت أصوات متداخلة تلك التي استمع لها فور وقوفه أمام باب البيت، وبعد مدة، فتحت أمه وبكاؤها يكتم صوتها عن الحديث، فور أن رأته ازدادت بكاءً ومن ثم دخلت دون أن تبدي قولًا، فأتى من الداخل أخو خالد الأصغر.

–لا تتضايق، إنها منهارة.

تأهب وقال:

–من ماذا؟ وأين خالد؟

–السؤالان لهما إجابة واحدة، خالد سافر إلى جبل لبنان، ينوي أن يشترك في العمليات هناك مع المقاتلين الدروز.

–ماذا؟

–للأسف، لقد فاض به من حديث أبي، وقرر الذهاب ليثبت له أنه رجل حقيقي.

–.....

–يستحسن أن تذهب الآن، أبي بالداخل ولو رآك لن يكون ذلك حسنًا أبدًا.

–أنا !

–نعم، للأسف . . أنت .

–ولكن ذلك الذي هناك، ودميانة . . أيضاً . . . هناك !

قالها وعينه تكاد تنفجر وكأنه أدرك حلول مصيبة ما ، ثم رحل وحده وعقله مشتت بين هنا ، والجبل .

• • •

طرقت فوق باب الغرفة بعنف بعدما طرقت كثيرًا بصورة طبيعية:

–معاذ، استيقظ يا ولد .

وزاد الطرق المتتابع، بينما صوتها يعلو أكثر، أحست بحركة داخل الغرفة، ثم ما لبث أن تحرك المفتاح داخل الباب، وخرج الصبي، نظرت له فزعة، ثم انحنت على ركبتها حتى تكون في مستوى طوله، نظرت له دهِشة:

–ما هذا الذي بعينيك؟

مسح فوق عينيه المنتفختين المحمرتين وقال:

–ماذا هناك! لا شيء .

تلمست حدقتيه، ثم مسحت فوق شعرة ودفنت رأسها إلى صدره تبكي وتئن، قالت بحرقة:

–بقيت تبكي طوال الليل .

حوطها بذراعيه كرجل ناضج، ثم قال:

–أنا لا أستطيع أن أظل حبيس المنزل والجدران يا أمي، أريد أن أرى الشارع وألعب الكرة مع الأولاد، أريد أن أتنفس .

-قالها والدك قبلك لمّا خفت عليه أيضاً، صدقني أنا أحبك وأريد أن أحافظ عليك لا أن أحبسك وأسجنك بين جدران البيت الفقير.

-وأنا لا حب لي إلا أنتِ، لكن فقط حرريني من قيودي، سأظل أومن بأنك استطعت أن تكوني أمًا كما لم تكن غيرك أبدًا فقط لو تتركيني ألهو بالخارج ولو قليلاً، كأي طفل.

بللت دموعها سترته حتى اخترقتها لتصل إلى صدره، وقالت وشبح ابتسامة يمر بجانب فيها:

-حكيم من صغرك، كوالدك تمامًا.

-دعيني أنعم بقليل من حريته.

ضمته هي حتى صار رأسه بين أحضانها وقالت معتذرة:

-أعدك ألا تجري تلك الدموع مجددًا منك، وأعدك أنني سأمنحك حريتك التي طلبتها، فقط اذهب إلى درسك، وعندما تعود، أعدك، سأعرف كيف أعالج عينيك المتورمتين وأملأ وجهك بابتسامتك التي أحب أن أراها.

• • •

يأتي ويروح بغرفته، لا يعلم كيف يتصرف وماذا يفعل، وصورة كل من خالد ودميانة تعصف به، لا يعرف لمنزل عمة دميانة رقمًا يتصل به، أما المصيبة والكارثة بحق تكمن في خالد، لا يعلم كيف لخالد الوقور الهادئ أن يسمح لتلك الفكرة الرعناء أن تأتيه، بل وتسيطر عليه لتنفيذها، تعجب بصوت بدا عاليًا:

-حتى إنه لم يأتِ ليأخذ رأيي كما اعتاد كلانا أن يفعل!

أتت أمه من خلفه وهي تقف أمام الباب الذي تركه مفتوحًا:

-من هو الذي لم يأخذ رأيك.

-لا شيء، لا شيء يا أمي، هل تريدين شيئًا؟!

نظرت له بعينين حادتين وقالت سريعًا وهي ترحل ومعاذ يأتي من خلفها:

-تلميذك أتى، ووالدتك تقول لك ستأتي لتأخذه بعد ساعتين بالضبط.

وقال معاذ مبتسمًا:

-كيف حالك؟

ورد محمد وقد قلت حيلته:

-جيد.

-بل لست جيدًا أبدًا.

تهكم قائلًا:

-وهل تقرأ الأفكار لتعلم؟!

-بل أتصفح الوجوه.

-وبماذا أخبرك وجهي؟

-أخبرني أنك مهموم، مهتم لأمر غائب، وخائف.

نظر محمد نحوه بجدية وقال باهتمام:

-أنت تقرأ الوجوه حقا!

اقترب الفتى ووضع دفتره أعلى مكتب محمد، وقال مبتسمًا:

-تقول أمي أنها عادة، بالوراثة عن أبي.

-يا له والدك من رائع!

-رحمه الله، لكن قل لي، من هذا الذي تهتم لأمره ويغيب عنك؟

تنهد بقوة وجلس على فراشه:

-إنه لأمر طويل، أتسمح لي أن أشكو لك بعض همي بعدما تأكدت أنك حقًا تقرأ الأفكار؟

تبسم معاذ بسمة أقرب إلى الضحك:

-على الرحب والسعة.

-صديقي..

-ما به؟

-سيوقع نفسه بمأزق كبير.

• • •

تكومت دميانة على سريرها وقد أغلقت الغرفة من الداخل، لعنت الفكرة التي أوحت لها بزيارة عمتها، والمنزل الصامت من حولها يضيق عليها ويخنقها، أتاها صوت عمتها الغاضب من الخارج:

-فكري جيدًا يا ابنة أخي، شاب مسلم تعرفينه منذ قليل ليس أبقى عليك من عائلتك برمتها، كوني ذكية ولا تسلمي لقلبك، القلب يا ابنتي لا يجلب إلا الكثير من التعب، وقد يؤدي بك إلى الهلاك.

لم تتحمل، قامت وفتحت حقيبتها، بدلت ملابسها، وخرجت، قالت عمتها بصوت هادر فور أن وقعت عيناها عليها:

-تذهبين إلى أين؟

-ليس لأي مكان، وليسترح بالك، لم أفكر بأي شيء بعد، أريد فقط أن أشتمَّ بعض الهواء، منزلك خانق.

قالتها، وانصرفت، بينما تتبعها عينا عمتها بنظرات قوية، تكاد تخترق ظهر الفتاة، وتحرقها!

• • •

حاول أن يقاوم ضيقة ودموعه، لكن تتابعهم حوله كان أقوى منه، كانوا يعدون شيئًا ما بالداخل، طلب أحدهم منه أن يأتي ليساعدهم وهو يستهزئ منه متحدثًا عن رجولته المنعدمة، حيث إنه كما برر، خائف قبل أن يمضي إلى شيء، بينما مر أحدهم وأكد له أن الأمر سهل وبسيط وممتع في آن واحد، حيث إن طعم الانتصار المقدم على طبق البارود شهي جدًا، وحينما صرخ بوجهه أن ضريبة الدماء وفواتيرها ستكون عسيرة، ضحك ساخرًا وقال:

-ألم تكن تعلم ذلك قبل أن تمضي بذات إرادتك من بيروت إلى هنا ؟ !

ولم يملك خالد إلا السكوت والندم، وقد تأكد أنه أصبح حبيسًا بهذا المنزل اللعين.

بعد ساعة تقريبًا خرجوا وبيد أحدهم حقيبة صغيرة، والبسمة تعلو شفاههم، والخوف أكل قلبه، تقدم ذلك الذي كان يمسك بالحقيبة نحو خالد وهو يقول:

-هيا بنا.

نفض خالد يد الرجل عن يده وقال مستنكفًا:

-إلى أين؟ وما تلك الحقيبة؟ ولماذا لا تأخذ أحد أصدقائك الآخرين؟

-لا تخف، ليس بها شيء، إنها حقيبة عادية، بها بعض المعدات وسنذهب لتوصيلها لأصدقاء آخرين، وأصدقائي أنا مشغولون بأعمال أخرى؛ لذا فستأتي أنت معي.

-افتحها أمامي إذًا

-لا تفتح أمام غرباء.

-حسنًا، بما أني غريب اتركني أرحل.

-سترحل، أعدك، ولكن أنت أتيت إلى هنا باختيارك، وستذهب باختياري أنا، لكنني متأكد، أنه يمكنك حتى أن ترحل اليوم.

-اليوم!

قالها خالد متوجسًا عندما رمى له ذلك الرجل كلمة الرحيل، لكنه كان سعيدًا، فمضى معه، ونسى أمر الحقيبة وما بها، ورحلا معًا .

• • •

قضيا معًا ما يقترب من ساعة، شكا فيها محمد للصغير وقد نسى تمامًا أنه صغير، عن دميانة التي سافرت ولا يعرف من أمرها شيئًا، وخالد الذي ذهب أيضًا على حين غرة من الجميع، وكان الصغير يستمع بتمعن، بعد أن انتهى، قام معاذ يلتف حول مكتب محمد، لمس كاميراته والصور المقلوبة من تحتها، وقال:

–هل تسمح لي بإلقاء نظرة؟

قام محمد فزعًا وقال يصيح:

–لا، ما زلت صغيرًا على رؤية مثل هذا .

–ما زالت تعتبرني صغيرًا، رغم ما شكوته لي الآن!

–نعم صغير، وحتى أنا صغير، لكن هكذا ألقاني القدر، حتى أمي تلك التي أنجبتني صغيرة على أن تشاهد صور قتلى وانفجارات، جميعنا صغار أبرياء لا نستحق أن تطول أعيننا مثل هذا العبث والضياع.

تبسم معاذ وتنهد أحمد، ربت الأول فوق كتف الثاني ونظر الثاني للأول، كأنه يستنجد به . .

–سأذهب إلى أمي .

–كما تشاء .

أمسك محمد بين يديه كف معاذ، وخرجا .

حينما استمعت لصوت طرقٍ على الباب، ترددت في أن تفتح قبل أن يأتيها صوته:

-هذا أنا يا أمي.

عقدت حاجبيها وهي تفتح الباب، كان محمد يقف بعيدًا نسبيًا عن الباب ليتحاشى أن يقف أمامها مباشرة بينما وقف معاذ أمام الباب:

-أمي.

-جئت باكرًا!

هم محمد بالرد، لكن سبقه معاذ:

-انتهينا باكرًا، يمكنكِ الآن أن تعطيني المكافأة التي قلتِ عليها.

تشتت نظر المرأة بين الفتى ومحمد، فقالت مترددة:

-تفضل معنا أستاذ محمد.

رفع يده يربت على صدره ممتنًا وقال:

-لا والله، شكرًا لكِ، ربما يطلبوني بعمل، إلى اللقاء.

قال وهو يلوح بيده من بعيد وهو يتجه نحو بيته:

-إلى اللقاء يا معاذ.

أغلقت أم معاذ الباب، ودخلت والصبي. قال معاذ فور دخوله:

-الآن هديتي!

-حسنًا كما تشاء.

-ماذا ستكون؟!

-ستخرج لتلعب مع الأطفال بالخارج، وسأجلس أشاهدك.

انفرجت شفتاه وابتسم مليًا، فتح الباب سريعًا، كان الصغار يجهزون أنفسهم بالكرة ليبدأوا اللعب، صاح:

-انتظر، سآتي معكم.

وخرج، وتبعته هي، وضعت فوق رأسها غطاء الرأس الأسود الذي كان منسدلاً على عنقها، وأغلقت الباب قليلًا، وجلست على عتبة الدار تشاهده. . وتبتسم.

• • •

وقف وذلك الرجل على ناصية حي من الأحياء، هادئًا كان، وتعمه السكينة، نظر له نظرة تختلط بابتسامات خبيثة وقال:

-الآن يمكنك أن تعود . . لكني متأكد، أنك سترجع من جديد.

-ماذا تقول؟!

قالها خالد، بلهجة بدت بلهاء قليلًا للفتى الذي يقف بجانبه، فقال الآخر:

-لقد وصلنا.

ثم مد له يده بالحقيبة وقال وهو يشير نحو إحدى العمائر في مقدمة بيوت الحي:

-أترى هذه البناية؟ اذهب واطرق أول باب يقابلك، واترك تلك الحقيبة أمام الباب، وتعال حالًا.

-لماذا، ألم تقل أنهم أصدقاؤك؟

-نعم، ولكننا معتادون على هذا، نعطيهم المعدات وهم كذلك دون أن يرونا أو نراهم.

زفر بقلة حيلة وحنق، ثم أمسك بالحقيبة، وفعل كما أمره، وضعها أمام باب الشقة الأولى من البناية في الدور الأول، ثم عاد سريعًا، وجده يقف أمامه، هم بالحديث، لكن الآخر لم يمهله، أمسك برسغه بقوة وجذبه بعيدًا، ظل الأخر يلقي بالأسئلة حول الفعل الغريب الذي يقوم به ذلك

الرجل، لكنه لم يجاوبه، ظلا يهرولان أكثر من عشر دقائق، وذلك الرجل يسحب خالدًا ولا يهتم بما يقول بجنقه البالغ، وهو يمضي به بين حواري وأزقة حتى خرجا إلى طريق عمومي يبدو مبتعدًا تمامًا عن ذلك الحي الذي كانوا به، وهنا فقط، توقف وتنفس بقوة عندما نفض من يده معصم خالد الذي أدرك أن هذا الرجل يعامله معاملة الأبله حقاً، وذلك الآخر يضحك بهستيرية ونشوة:

-لماذا تضحك، وما الذي حدث الآن؟

-اصمت، اصمت، ستعرف كل شيء في غضون خمس دقائق على أقصى تقدير.. تعرف؟ لولا درزيتك لكنت تركتك هناك، أنت متعب ومستفز ومثير للشفقة جدًا.

حاول خالد التماسك على قدر ما استطاع، قال:

-سأعرف، كل شيء في غضون خمس دقائق؟ ماذا تقصد؟!

-أقصد.. أنني كنت أستطيع أن أفعل هذا الأمر وحدي، لكنني قررت أن أعرفك ماذا يعني أن تلطخ يديك بالدم، طلبت أن تعود إلى بيروت، وسوف تعود، لكنني متأكد أن يديك التي مست الدم يومًا، ستجلبك إلى هنا أو إلى أي مكان مثل هنا، ومتأكد، ستشتاق لرائحة الدم من جديد.

-تقصد...

-نعم أقصد ما فهمت، الحقيبة كانت قنبلة، وستنفجر، وهذا الحي أيها الجاهل أحد أحياء المارون الشهيرة، ويعج بالمسيحيين والمسيحيات المارون، وما هذا إلا رد بسيط على الحادثة التي حدثت أمس في حق دروز بيروت.

-يا غبي.. هم فعلوها ثم أنتم ثم هم ثم أنتم. إنك هكذا تقتل أهلك لا تقتلهم، متى ستنتهي هذه الحرب؟!

ضحك ساخرًا بقوة، قال:

-تنتهي! وتقول أنني الغبي؟! لا غبي غيرك، لأنه يا غبي لن تنتهي الحرب، فإن الحرب لم تقم حتى تنتهي، إنها مولودة منذ ولدنا، إننا موجودون لنتعارك، ونرد بالمثل عندما يموت لنا

قتيل. وليس بلبنان وحدها بل كل هذا العالم الذي حولك، إنهم موجودون ليكونوا قاتلين أو مقتولين.

شعر خالد أنه لا فائدة من هذا الحديث، هرول بعيدًا يتلمس الطرق التي يجهلها، وهو يعلم أن الوقت ليس بصالحه ليصلح ما أفسده.. والآخر من خلفه، يضحك وينتشي.

• • •

مضت مدة وهو يلعب مع الصغار، منذ قليل وجد أمه حالمة بينما تنظر إليه وهو يلعب بين الصغار ويقفز فرحًا عند كل هدف يحرزه، وكأنها أهدافه في مرمى الحياة يحققها واحدًا تلو الآخر، توقف اللعب قليلًا للراحة، فاقبل نحوها وقال مرحًا:

–حسنًا، ألن تقومي لتعدي الطعام؟ أنا جائع.

قبلت جبينه وهي تهم بالقيام:

–حسنًا سأذهب، لكن لا تتحرك بعيدًا، حسنا؟!

–أعدك.

تبسمت على ابتسامه ثم توارت بالداخل بينما نطق أحد أصدقائه

–هيا يا معاذ، لنعد للعب.

بدأت الكرة في الحركة بين أقدامهم، رماها معاذ بقوة داخل المرمى، فضاق الحارس وألقاها بعيدًا حتى توارت، قال أحدهم:

–ماذا نفعل الآن؟

فرد الحارس بغيظ:

–ليس ذنبي، معاذ هو من ألقاها بالبداية بقوة، حاولت أن أعيدها فطارت بعيدًا.

دخلوا جميعًا في نقاش عقيم حول من أخطأ ومن لم يخطئ، ولم ينتهِ قبل أن يصيح معاذ ليسمعه الجميع:

-لا بأس، سأذهب أنا وأحضرها .

وغاب الفتى ناحية الاتجاه الذي ذهبت إليه الكرة، حتى وقف في منطقة تبدو وكأنها خربة، أحس أن الكرة وقعت في زقاق ما هنا ، ظل يدور بحثًا ، ولم يتوقف إلا عندما شعر بكف غليظ حول فمه، ثم غاب بعدها في عوالم أخرى .

جرته الكف الغليظة نحو إحدى المنازل الخربة، وبالداخل كان ينتظره آخر، قال الأول:

-ما هذا ، أهو الفتى الذي تحدثت عنه؟

فك الرجل يده والمنديل المبلل من على فم الفتى، ثم كومه في إحدى الزوايا ، وقال:

-نعم، لأول مرة منذ أربعة أشهر أجده بعيدًا عن أمه حتى أستطيع الإمساك به، فيه جميع المواصفات، أولًا فقير ويتيم ولا أهل له سوى أم فقيرة لا تملك من أمرها شيئًا ، وأيضا خمري البشرة وعسلي العينين والشعر، بهي الطلة، ونحيف الجسد ، ولم يكمل العشرة أعوام على أقصى تقدير، كما أنني جمعت كل المعلومات عن أهله وبيته ومنزله كما هو بالضبط طلبُ زوجين أستراليين لا ينجبان، سيشحن غدًا ، وسيرسلون لي المبلغ المتفق عليه، وسنغير هذا المنزل اللعين الذي يشبه مساكن الأشباح وأنصاف البشر ونذهب لمكان أفضل نعامل فيه كما يعامل أصحاب المال .

هز الآخر رأسه سعيدًا ، وهما يتخيلان كيف يمكن للمال الذي سيأتيهما من خلف هذا الصغير أن يبدل حالتهم المزرية .

ومن بعيد ، خرجت أم معاذ تبحث عن الفتى ليتناول غداءه، فقال الصغار على لسان واحد :

-ذهب ليحضر الكرة منذ أكثر من نصف ساعة ولم يعد !

وتسمرت المرأة، وسكن كل شيء .

• • •

خرجت من المنزل على أساس أن تشتم الهواء ليبدد ضيقها، لكنها على السلم نسيت أنها لا تعرف في المدينة شيئًا، فأكملت طريقها لأسفل، ووقفت أمام عتبة البناية بأفق مشتت، وضائع، حينها كان خالد بعيدًا عند طرف الحي، نظر إلى الساعة في معصمه، لكنه نسي ولعن نسيانه الذي جعله يتركها في منزله ببيروت، من بعيد من آخر الحي لمح شبحًا لفتاة، بدا أنه يعرفها، تذكر أن الخمس دقائق على وشك توديع الثواني الأخيرة، ومضت عدة لحظات، قبل أن يشتعل الانفجار المدوي، وطارت الفتاة والغادين بالطريق، بعدما تحولوا إلى أشلاء متناثرة. وخالد يقف عن بعد، بذات العينين المبهوتتين، والجاحظتين من هول الصدمة.

• • •

بعد نصف ساعة..

رن هاتف محمد بنغمة الرسالة، قام من على مكتبه ينظر للهاتف:

-نريدك حالاً بالجريدة، لا تتأخر.

عبس وجهه مستعجبًا من الإلحاح الشديد على حضوره، لكنه بدل ملابسه، ورحل.

• • •

كانت أزمته تتفاقم ودقات قلبه تتزايد وهو يستمع من مديره عن الانفجار المدوي الذي حدث في الجبل الآن ويجب عليه والمذيع أن يذهبا الآن حتى يعودا للجريدة بالصور والأنباء، ارتفع صوت أنفاسه وعقله يغيب هناك، بالجبل، بين خالد.. ودميانة.

ركبا عربة الجريدة الخاصة، والطريق الطويل ينهكهما، ومحمد يتزايد نبضه، ويتحرق فوق جمر من توقعاته السيئة.

وصلا بعد ردح من الوقت، أخرج محمد كاميرته وعينه تجول بين الجثث، وعقله ينفض تلك الأفكار عن مخيلته، سأل أحد رجال الإسعاف عن اسم تلك المنطقة، فأجابه. وأخذ هو يحاول تذكر إن كانت دميانة قد أخبرته باسم منطقتها أم لا، في حين أشار له المذيع ليلتقط الصور

التي تؤثر بالناس أكثر، مثل الأطفال أو الصبايا الصغيرات بالعمر، نفض محمد عن عقله مثل تلك الترهات، وبدأ في البحث والتنقيب البطيء، حتى صدم بوجه مختفية ملامحه، لكن الشعر المحترق من أسفله بالكاد تظهر منه الخصلات البرتقالية الملتوية، والعينان المميزتان:

-دميانة. .

نطق بها بصوت ملتاث تائه بين روائح الدم والاحتراق، رمى الآلة من بين يديه ثم انكفأ على ركبتيه يتمعن أكثر بالوجه المحترق، وبقايا الخصلات السليمة، وعينه الذاهلة لا تكاد تصدق ما ترى، وقف رفاقه من خلفه مثبتين كمسامير حديدية في حائط صد، لا يعرفون ماذا يقولون ولا يفهمون ما يدور، وهو يطالعها بين يديه، بلا صوت، ولا بكاء، ضمها إلى صدره، ونظر إلى السماء، وكان العالم من حوله قد استحال إلى فراغ، وصمت. . وسكنت كل الأصوات وماتت حواسه عن العمل، إلا من رائحة احتراق تعبق بها قميصه. . واخترقت أنفه.

• • •

وبمكان آخر، كان ذلك الشاب يعدو بعيدًا بين الطرق، لا يلوي على شيء، ولا يريد شيئًا، ولا ينوي أن يتوقف إلا أن يوقعه التعب قتيلًا، هربًا من مصير اشتهاء الدماء الذي تلبس الآخرين وكأنه شيطان رجيم، فكان اختياره أن يموت خيرًا عنده من أن يصل عند نقطة محتدمة كتلك التي وصلوا إليها هؤلاء مع الحياة، والموت. . وحب الدم والحرب. . .

• • •

مضت أيام قليلة، لم يعلم أحد بعدها إلى أين وصل خالد وأين صار. . أما عن محمد، فلقد كفر بالتصوير والناس، واعتزل الدنيا في غرفة من صور دميانة ورسائلها المعبقة برائحة ياسمين حديقتها، وأمه بالخارج تندب حظها وحظ ولدها الذي كتب عليه التعس، بعدما عاد كمن كان في عراك مع الحياة وهزمته شر هزيمة، ليعود يجر أذيال خيبته، وحسرته، زاهدًا في الدنيا برمتها، ولاعنًا الحياة والحروب.

أما عن شوارع بيروت.. فقد شغلها لفترة حديث عن امرأة تبدو صغيرة لم تكمل عقدها الثالث بعد، تسير بين الشوارع بقدمين عاريتين وداميتين والشقوق بهما واسعة من السعي بين الشوارع، وعباءة ممزقة، تشق عباءتها وتقول حديثاً لا يفهمه الناس، مضت من أمام مقهى يومًا ما، تشد شعرها وتجذب غطاء رأسها بين يديها تولول حالها.

تهامس رجلان أمام المقهى:

-ما بها تلك المرأة؟!

وقال الآخر:

-من يدري؟ إنها من ضحايا الحرب، الله أعلم بحالها وما كانت وما صارت.

جلست عن حافة الطريق تبكي وتصرخ:

-معاذ.. عد يا ولدي ولا تتركني أكثر من هذا... معاذ، أمك من دونك لا شيء، أمك من دونك تموت باليوم ألف مرة... عد يا ولدي ولن أحبسك مجددًا.. عد لأمك فإنها تموت بدونك.. عد وارحمني يا صغيري.

وقامت ثانية... ثم صاحت وهي تبكي كالتائهين:

-معاذ.. أرجوك يا ولدي عد.

ومن الخلف.. صدح صوت فيروز تنشد:

بحبك يا لبنان يا وطني بحبك

بشمالك بجنوبك بسهلك بحبك

بتسأل شو بني وشو الي ما بني

بحبك يا لبنان يا وطني بحبك

عندك بدي أبقا ويغيبوا الغياب

أتعذب وأشقى ويا محلا العذاب

وإذا أنتا بتتركني يا أغلى الأحباب

الدنيا بترجع كذبة وتاج الأرض تراب

بفقرك بحبك وبعزك بحبك

أنا قلبي عايدي لا ينساني قلبك

والسهرة عبابك أحلى من سني

وبحبك يا لبنان.... يا وطني

• • •

الحرب الأهلية الصومالية. . .

عام ١٩٩١ قامت الحرب الصومالية الأهلية على نزاعات العشائر، فقضت على الرجال وخربت المنازل، وأقامت المجاعات وتحالفت مع الموت صفقةً على أرواح المدنيين البسطاء. وإلى الآن. . . لم تنتهِ.

-وحينما تفيق. . ستجدها أمامك، مائدة بها عجل مشوي وأرز ودجاجات. . .والكثير الكثير من الفاكهة لا سيما المانجو الذي تفضله، وماء نظيف مصبوب في أكواب كريستالية ملونة، وقدر نحاسي مليء بشراب أحمر طيب المذاق.

قاطعها:

-هل سيكون شهيًا؟!

فردت مؤكدة:

-نعم. . شهي جدًا وطعمه كأنه الجنة في كووس.

-حقًا يا أمي؟!

قالها مستمسكًا بوعدها الذي لا يثق في تحقيقه، لكنها طمأنته وهي تدثره ببقايا الغطاء المهترئ، قالت:

-بالتأكيد يا ولدي، بالتأكيد، لكن الأمير الصغير عندما يدفأ وينام، سيستقيم العالم ويموت الجوع، ستهدأ الحروب وتتصالح العشائر وتفنى البنادق، سيصلح الفاسد ويعتدل المعوج. فقط إذا نام الأمير وتدثر، فقط إذا نمت يا صغيري لتستعد غدًا ليوم أفضل. . . بإذن الله.

كان الصغير قد ذهب مع حديثها إلى عوالم أخرى، بعيدة كل البعد عن الفلاة المقفرة، وصوت الرصاص المتطاير في ظل أن كسرة الخبز المتعفنة صارت تباع وتشترى بغالي الثمن، وأمه تجلس

بجانبه تدثر جسده النحيل بصورة غير طبيعية، وهي بالكاد تغطي جسدها البارد بطرف الغطاء الذي يتدثر به الصغير، والذي لا يغني عن الصغير شيئًا، وبالتأكيد عنها.

في الصباح القريب استيقظت واستيقظ الفتى، لم يسألها أين المائدة التي وعدته بهبوطها من السماء صوبًا إليه، فكان معتادًا منذ ما يقارب العام أن يسمع الحديث نفسه كلما ضربه الجوع فسلبه النوم، فتعدد أمه أمام عقله أصنافًا شهية لم يتذوق منها شيئًا منذ ولُد، لكنها كانت كفلية بجعل عقله الصغير يسرح مع الطعام ومذاقه المختلط؛ فينام ويستيقظ ليقضي يومًا كئيبًا ثم ليسمع في نهايته حكاية مماثلة لما سمعها الليلة الماضية، فينام على أثرها واختلاط الأطعمة التي يتخيلها تراوده وتدغدغ فمه الصغير.

-أمي هل يمكنني أن أقتنى غرابًا؟

في اليوم التالي.. وتحت الشمس الحارقة في ساحة الخيمة ذات القماش البالي، كان ينظر تجاه الغراب الذي يحوم أمام الخيمة بلا مقصد. نظرت له أمه بعينين ذاهلتين مما يقول، اعتقدت بالبداية أنه يمزح، لكن مع الاقتراب أكثر من وجهه وتمحيصه وجدت أنه جاد في طلبه، قالت كأنما تصرخ:

-تريد أن تربي في منزلنا شؤمًا؟! وهل ينقصنا شؤم يا ولدي حتى تحضره إلى هنا، لا لا، يكفينا الفقر والجوع.

-ليس لدينا عصافير يا أمي ككل البلاد حتى أحضر واحدًا أعتني به.

قالت ترثي فقرها بضيق:

-لماذا ستأتي العصافير يا ولدي لمثل أرضنا؟ العصافير تحب الحياة.. لا أرضًا خلقت هي والاحتضار من عجين واحد، ثم خُلطا في كأس واحدة، شربته بلادنا قديمًا، فسرى السم في أوصالها يقتلها بالبطيء.

-لكن يا أمي، ستشفى أليس كذلك؟

-من يدري، وهل للصومال حلم غير الشفاء؟

-إذًا هل تسمحين لي بتربية الغراب؟

وهدرت:

-قلت لا، ثم إنك تحتاج للعناية قبل أن تأتي بمن ستعتني به، ألا تعي! انظر لجسدك ثم احكم من يحتاج العناية.

وصمت.

• • •

يتذكر جيدًا منذ العام الماضي عندما كان يجلس بجانب أمه في الصحراء المقفرة التي تضم الخيمة البائسة التي يسكنها مع والديه، حينما خرج أبوه ولا يدري لماذا، ثم لتخرج أمه عن صمتها فجأة وتقول:

-تعرف.. أنا متأكدة أنه يومًا ما ستنتهي المجاعة، ويتعافى جسدك وجسدي ووالدك الهزيل، وسوف تكبر وتصبح طبيبًا، وستعالج فقراء العالم بالمجان... تعدني؟

-أعدك... بماذا؟!

-تعدني أنك عندما تصبح طبيبًا سوف تعالج الجائعين مجانًا.

شعر يومها بهم، لكنه لم يعبر بأكثر من:

-عندما أشبع أنا أولًا يا أمي.

-وهل الجوع يمنعك من إعطائي وعدًا صدقًا؟

-نعم يمنعني، لا عمل للعقول والأمعاء تتألم، أنا صبي في السابعة أكاد أعد سنوات عمري بصعوبة لأنه لا وجود لي في أوراق كبقية البشر.. لا أنا حر، ولا أنا مقيد. أنا فقط منسي، لا أحد يهتم لأمري إلا لمصلحته الشخصية، لا أحد يزورني بطعام يسد رمقي المتوحش إلا قبل أن يلتقط معي وأقراني صورًا يبتسم فيها ويجبرنا على الابتسام لنقول أننا سعداء ولسنا كذلك. البعض يأتينا لكنه يعطي الطعام فقط لمن يلتزمون بشروطه، لمن يوافق ويرضخ لما يأمر به، أيًا كانت تلك الأوامر. نسوا هؤلاء من كنا، وأصبحت ذكرانا

في عقولهم ترتبط بالجوع والتشرد، ثم بتطور الوقت صارت صورنا وأسماؤنا تجلب الضحك والتشفي في أذهان حتى من هم من أبناء جنسنا.

تجهمت والدته، وقالت بنبرة مبحوحة:

-من أين لك بمثل هذا الحديث؟

فنطق بصورة روعتها:

-الجوع.

لم تعقب.

واليوم.. بعد عام.. يجلس معها ذات الجلسة بذات الخيمة وبلا جديد.. حينما عاد أبوه من الخارج، أشار إليه أن يأتي، كانت ملابسه القليلة متربة، ولم يفاجأ الصغير، أشار والده له بأطراف أصابعه أن يأتي معه للخارج، فخرج أيضاً دون تعقيب.

• • •

طوال حياته الماضية، كان يظن أن الفقر الذي يحل فوق رؤوسهم يعود للعنة من الله، وأن الحرب المتأججة عقاب، وأن مشكلات العشائر ضيق سيمر، لكنه بمرور الوقت يئس، كان طفلاً كما يجب لمن في مثل عمره أن يكون، لكنه أدرك أنه كبر عندما كف عن الصراخ بكلمة "جائع". كان بداخله، يكره تلك الحروف التي تجمعت فوق بعضها البعض لتنفرج عنها تلك اللفظة، تأخذه الحساسية والقشعريرة عندما يسمعها، ويرفض أن يقول أنه يشعر بها أمام غريب، كانت القوافل التي تأتي لمساعدتهم لا ترحم، ربما تحمل العربات كلمات من نوع: "قوافل إنقاذ المجاعات الصومالية"، أو: "لأجل مشردي الصومال". كان يرى الإنسانية تختفي بين تلك الحروف، حيث إن الذين وشموها فوق العربات والذين اختاروها وأطلقوها لم يعرفوا أن هذا الطعام المنقول لبشر وليس لجمادات أو حيوانات لا تعي لغات البشر. حتى الزيارات الفردية ملأى بالغرور والكبر، وأخذ الطعام مشروط بالرضوخ لمتطلبات دينية وسياسية يجب الاعتراف بها في سبيل الحصول على أرز لا يأكله شخص في حالة طبيعية، وبعض الخضروات المسلوقة أو النيئة، ولا أكثر في أغلب الأحوال.

وعندما تأتي تلك القوافل تندفع الأفراد والجماعات حولها كما البربر، فتلتقط الكاميرات صورًا عديدة، وتنقلها للعالم، وأسفل الشاشات لا لزوم لأكثر من كلمة "مجاعة صومالية"، واسم الجمعية أو الجهة التي بعثت الطعام، وتكون الصورة كفيلة. . وكفاية.

كثيرًا ما رأى المصورين، فقد صار يحفظهم، ورغم صغر سنه فإنه على يدهم تعلم البغض والدرس الأول لكراهية شخص ما، كثيرًا ما كانوا يلتفون حوله، يصورون جسده العاري من زوايا مختلفة، ويبرزون في الصورة العظام النافرة من صدره بإرادته أو بدونها، فلم يكن يملك حق الرفض طالما أن أمه كانت من الذين حصلوا على الطعام، ثم بعد أن ينتهكوا جسده بصورهم، ينتقلوا لآخر يبكي، وآخر يمسك بين يديه حفنة من أرزهم الفاسد، ورجل مسن هنا أيضًا، وامرأة تبكي وأخرى تضم على كفها حبة دواء من قوافلهم، ثم يتجهون إلى الأحراش، يلتقطون صورة لجسد صغير ميت سلبته الشمس ألوانه وسوائله فصار كالمحنطين، ويسرقون من آخر لحظاته الأخيرة بينما يحتضر تحت الشمس الحارقة، وهذا المسن من فوقه تحوم النسور تنتظر جيفته على أحر من الجمر. ويسألونه لما يكرههم، بل كان عليه أن يهدر دماءهم.

لكنه كان يكره أكثر هذا المصير، أن يصير جيفة تحلق أعلاها النسور، أو تُطحن عظامه تحت الشمس بفتات جلوده، كان الموت على تلك الطريقة يؤلمه، وفكرة أن يعيش ميتًا ويموت وهو يفكر في الحياة تسلبه السعادة التي لا يعرف لها طعمًا.

ولم يكن يصدق أمه ذات الطموح العالي، المقتنعة بكونه سيصبح طبيبًا يومًا ما يعالج الجائعين دون منّ أو تعالٍ، لكنه أيضًا كما لم يكن يصدقها. . كان يطلب من الله أن يحقق ولو جزءًا طفيفًا مما تقول. . كانٍ يملي نفسه بأمل غامض يأخذه إلى أبواب من دنيا أكثر نورًا، يغفو فيها صافيًا في مكان لا شمس حارقة تلهب ذرات الرمال على أرضه، مكان تسكنه أمطار وفرح، مكان لا حصاد للأرواح فيه، مكان آخر يستطيع أن يرى فيه شيئًا غير الضياع. وطيور تملأ سماءه غير النسور والعقبان.

ظل يسير بجانب والده حتى توقفا في مكان ما لم يعرف الفتى لماذا توقفا عنه، لكنه رأى شقًا في الأرض وتوقف أبوه أمامه، وقال:

-امسك.

أعطاه والده خرقة خشنة سمكية من قماش بال، وعصا حديدية صدئة، بينما جلس فوق الرمال بجانب شق في الأرض، لم يفهم ماذا سيحدث، لكنه أدرك فقط إفاقته من غفوة أحلامه الحالكة منها والمضيئة. مد أبوه ساقه إلى الأمام ثم أخذ منه الخرقة، وسكب من فوقها شيئًا لم يتبينه الصغير، كان في زجاجة، بها سائل أحمر، كثيف القوام كما الدماء، أو ربما هو كذلك، سكب منه فوق الخرقة من فوق قدمه، ثم أنزل قدمه إلى الشق.

نظر الفتى مذهولاً لما يقوم به والده، فصاح:

-أبي، ربما بها أفعى.

فنظر الأخير له وأمارات الضيق تعتلي وجهه، وقال:

-اخرس تمامًا وادعُ فقط أن تكون تلك الأفعى موجودة حقًا!

عقد حاجبيه! ولم يعقب خشية أن يزيد التوبيخ. وتوغلت قدم أبيه داخل الحفرة حتى اعتلى ملامحه ألم أخفاه عن الصبي حتى لا يخاف. توجع وأنّ لثوان، ثم جحظت حدقتيه وتلونت بأحمر قاني مخيف، توجس الفتى، فأشار والده أن يحضر العصا على عجل، بينما زحف يخرج قدمه وساقه من الحفرة، فخرجت معها أفعى ضخمة تعض بأنيابها على قدمه، تلوع الفتى وصرخ خائفًا فلم يبدِ والده ردًا، فقط ظل يزحف حتى أخرج قدمه تمامًا عن الحفرة، وما زالت الأفعى تطبق عليها وتعتصرها بجسدها الضخم. أمسك بالعصا ودفعها تجاه عينها فانفرجت أنيابها عن قدمه وساقه، كانت تهم بالعودة إلى جحرها، لكنه أمر الفتى أن يمسك بذيلها بينما أحكم قبضته على العصا وهوى بها فوق الرأس، سكنت حركتها لثوان قبل أن تعاود محاولة الحركة بثقل، فهوى ثانية بكامل عزمه فوق رأسها حتى كاد يتهشم، ثم سكنت حركتها تمامًا.

ألقى بالعصا.. ولم يلق بالاً لجسده المتفصد عرقًا، ألقى بجسده فوق الرمال الحارة، والصبي حينئذ كان كما كان. جاحظ العينين.. ولا يفهم ما يدور حوله.

أمسك أبوه برأس الأفعى يتفحصها، كانت فاقدة للحياة، فرفعها بارتياح فوق عنقه وأمر الصبي أن يتبعه في صمت.

مشى كلاهما صامتاً . . بلا حراك، حتى تحدث الأب فجأة:

-أتعرف يا درويش؟ لم نكن كذلك من قبل، الصومال قديمًا كانت جنة، كان لنا علاقات مع أكثر الدول المحيطة بنا، نصدر لهم ونكسب أموالًا، ولنا رئيسًا ثابتًا وعشائر متحابة، كان لنا اسمًا وسمعة، وتسعى البلاد إلى كسب ودنا . . لم نكن كذلك أبدًا يا بني، ولم يكن اسم بلادنا له مدلولات غير الرخاء وال. . .

-ما هذا الذي تحمله فوق عنقك يا أبي؟

-وكنا أقوياء ولنا جيش، ونساعد المحتاجين من جيراننا و. . .

-ما هذا الذي تحمله فوق عنقك يا أبي؟

-وأيضاً لم تكن بلادنا صحراء كما هي الآن وكانت وظائفنا مرموقة ونعيش عيشة راضية و. . .

-ما هذا الذي تحمله فوق عنقك يا أبي؟!

قالها والحروف تنفلت من بينِ ضغط أسنانه بصعوبة، فألقى والده بجسم الأفعى أرضًا وصاح بضجر يخفي من ورائه ضعفًا وألمًا:

-هذا ما آلت إليه الصومال.

نظر الصغير له بتشبث ودموعه تقاومه لتتحرر، لكنه صمد في الوقوف أمامها حتى استطاع سجنها في مرقدها، زم شفتيه ثم بلّلهما، وضيق عينيه وقلبه يبارحه ويتلاعب متلجلجًا . . وهمس:

-ولِمَ؟

حرك الأب يده تعبيرًا عن التهكم، وقال:

-سؤال تساءلناه جميعًا . . ولذلك علينا جميعًا أيضًا أن نبحث عن إجابته، أو نوكل مهمة عناء البحث عن إجابته . . لكم أنتم.

–من نحن؟

–أنتم المستقبل، الغد . . من نحلم بأن تلازمهم الغيوم المحملة بحبات الخير، من نأمل في شفائهم ليبنوا تلك البلدة من جديد، ليزرعوا القاحلة، ويعمروا الخرِب. . . ويترحموا على أرواحنا التي عانت.

لم يعرف ماذا يقول، لكنه اكتفى بنبرة الملتاع:

–أبي. . . أريد أن أقتني غرابًا .

• • •

من أمام الخيمة، وقف وأبوه الذي ألقى من على عاتقه الأفعى وزفر بارتياح، وبجانبه الصغير، وأمه خرجت من الخيمة تتفحصهما باهتمام، قال لها:

–هل القافلة الأخيرة رحلت، لم ترحل أليس كذلك؟

أجابت إيجابًا، ثم سقطت عيناها بغير قصد نحو ساقه التي كانت عارية وتنزف دمًا . . ابتلعت بقايا رضاب فمها، وقالت فزعة:

–ما تلك الأفعى؟! وقدمك، إنها تنزف!

–لا تنشغلين بقدمي الآن. فليبقَ الصبي معكِ حتى أعود .

عاد ليحمل الأفعى فوق عاتقه، ولم يتوقف حتى يستمع لما تقول، وتبعه الصبي من خلفه، ولم تعقب أمه.

مشى خلفه طويلًا دون أن يلحظه حتى وصلا نحو منطقة مليئة بعربات وشاحنات خاصة، تحمل فوق سطحها شعارًا وكلمات بالإنجليزية، لم يفقها قراءتها لكنهما علما انتماءها لجمعية خيرية عالمية ما، تحرك أبوه تجاه إحدى الشاحنات المفرغة من حمولات الطعام، فوجد شابًا بداخلها وثب من الشاحنة فور رؤيته لأبيه، أو ربما فور رؤيته للأفعى، أشقر أبيض البشرة يبدو في العقد الثالث من عمره، أنزل أمامه جسد الأفعى الضخمة فوق الأرض، فاعتلت ملامح ذلك الآخر دهشة ممزوجة بانبهار، قال بلهجة لم يفهمها هو ووالده:

-يا إلهي! كيف استطعت اصطيادها؟!

-. . . . .

أشار والده بعدم فهم، لكنه أشار بأصابعه إشارة أخرى مفادها: "أين المقابل؟".

-حسنًا، حسنًا، إنها رائعة فعلًا وتستحق الكثير، سينبهر بها رفاقي وزوجتي خصوصًا عندما نحنطها. عشرون دولارًا تكفي؟

ربما لم يكن أيٌّ منهما يفهم قول هذا الرجل، لكن أباه كان يحفظ جيدًا الأرقام بالإنجليزية كما أنه يفهم كلمة "دولار" جيدًا، كان الصغير يقف خلف والده يتابع الأمر، وقد وقف أمامه والده الذي حاول تقليد اللغة، لكنها خرجت غصبًا عنه ركيكة.

-نو، نو. زيز أيز ليتل! عشرون دولارًا ثمن قليل جدًا لساقي التي دخلت فم أفعى، وربما يكون بها ضرر أقوى من الدماء التي تنزف، أشعر بها تؤلمني ألم لا يشبه ألم اختراق الأنياب.. ألم يسري بالدم، على حد شعوري.

بدا على الآخر أنه لم يسمع ما قيل تمامًا، لا سيما أن أغلبه كان مخالفًا لما يفهم غير كلمة الرفض بالبداية، فاكتفى قائلًا:

-لن أدفع أعلى من ثلاثين دولارًا، الدولار لكم كما الغنيمة، وإلا فخذ ثعبانك وارحل.

-وغد ذو أصل مختلط.

همس بها أبوه بلغته الذي لا يفهمها الآخر، بينما أخرج هذا الأجنبي ثلاث ورقات ضئيلات من محفظته، أخذهم أبوه واللعن في مقدمة شفتيه، والتف، ليرى الفتى.. ولده.

-كم أعطاك؟

قالها لأبيه بينما كانا يسيران نحو المنزل، بائسين أحدهما يمتلك ثلاثين دولارًا وخطًا من الدماء يلاحق قدميه ويسير خلفه، وبجواره ولده المخذول من شيء ما، لا يدري ما هو، ولا يعرف ماذا يقول، غير هذا السؤال الذي صدر عنه ولا يعرف له معنى، قال والده:

-ما الذي أتى بك خلفي؟ ألم أقل لك أن تبقى بجانب أمك؟

-قدمك. . تنزف.

صمت الأب فأتبع الفتى:

-قدمك غالية على هذا الثمن البخس يا أبي.

نظر أبوه تلقائيًا نحو قدمه التي تنزف، ثم استدار للفتى وقال سريعًا:

-أنت تعرف كم أعطاني؟!

-لا. . ولكن أمثاله بالتأكيد لا يلقون بالًا لمشاعرنا واحتياجنا لخنازير مثلهم لأننا في ضيق حقيقي، ينسون أننا كما هم من لحم ودم وقلوب وأوردة، يتغافلون تعبنا، ويأتون لتقديم عمل هم أكثر المستفيدين منه، يلقبوننا بالجائعين والمشردين والبربر والهمج ويسخرون من جهلنا وأزمتنا، ويجعلوننا نقوم بأعمال أخرى خاصة بهم ولا يصورونها على التلفاز كما يصورون قوافلهم والمساعدة التي يقدمونها إلينا.

نظر والده له مضيقًا عينيه بسبب الشمس، بح بصوته:

-تكرههم إلى هذا الحد؟!

-لم أتعلم الكره إلا علي أيديهم.

-لكنهم يساعدونك!

-قلة قليلة تساعدني حقًا، والكثيرون أشعر في مجيئهم الشماتة.

-ما زلت طفلًا.

-بل أنا أكبر منك. . وهم السبب.

صمت قليلًا وساد الصمت وما زالا سائرين، قال درويش:

-أبي. . ألسنا عربًا؟ لماذا إذًا لا تتحدث العربية؟

-كنا عربًا قديمًا عندما كنا "الصومال"، ولم يكن لهم أدنى اهتمام بكيفية حديثنا .

ولكننا عندما تحولنا إلى الصومال . . الآن، أصبحنا عربًا بالاسم فقط .

لكن لا وجود لنا في حسابات العرب أجمع .

قالها، ومضيا نحو طريقهما . . . في صمت .

• • •

بالمساء كانت أمه تنتظر بجانب صاحب الساق الدامية الذي يفترش أرض الخيمة مباشرة فوق الرمال، وبضع أوراق غريبة تبدو أنها أموال، بجانب وسادة من اللوف بجانب رأسه، كان يتوجع وجسده المنصهر ينتفض، لكنه كان يخفي عنها ويكتفي إذا ما سألته إن كان موجوعًا بأن يقول:

-لا شيء . فقط البرد يقرصها .

وكانت تعلم كما يعلم بكذبه، لأنه لم يكن هناك برد من الأساس، والصغير يجلس بآخر الخيمة، يصوب ناظريه صوب والده بلا تحويل، وإلى ساقه التي ربط فوقها بذات الخرقة الخشنة لعلها تحبس الدماء:

-أنذهب للقافلة لعلهم يجدون علاجًا لك؟

صاح:

-لا، ليس بي شيء ولا أحتاج لأحد .

خرج الصغير خارج الخيمة، لا يستر جسده سوى سروال بالي ممزق ومترب، تجول كالضائع بلا مقصد ولا وجهة، حتى ابتعد قليلًا، فلمحت عيناه شيئًا أسود يتلاحم مع الليل حتى كاد يختفي به، اقترب نحوه أكثر، فرآه غرابًا، انحنى عليه يبتسم ويربت فوق ريشاته بلا خوف، وهمس:

-أمي تقول أن مثلك شؤم يجلب النحس .

وأكمل همسًا وهو ينظر نحو أنوار القافلة من بعيد .

-لا تعلم أن مثل هؤلاء المنافقين هم الشؤم حقًا .

أكمل كأنه سيبكي:

-أتعرف. . أنا لا أعرف عن الحمام والعصافير سوى أسمائهم، تمنيت كثيرًا أن أقتني عصفورًا أحرره فيعود لي، أحكي له عن أمنياتي فيستمع، ويسأل الله بينما يطير قرب السماء أن يحقق أحلامي البسيطة.

كان الغراب يحك بمنقاره ريشاته الخلفية، بينما بدا أنه لا يسمع لما يقال حوله، لكن "درويشًا" قال:

-تسألني ما هي تلك الأمنيات؟!

حسنًا . . . أريد أن تنتهي الحرب، وأن تشفى ساق أبي، وأن أستطيع أن أكتب اسمي وأرى كيف يصبح شكله على الورق. وأيضًا أريد أن أرتدي قميصًا يناسبني كفاية ليغطي قسمات صدري وعظامه النافرة، وأن يرحل المصورون وكاميراتهم إلى لعنة كبيرة تلحق بهم ذلًا كالذي يقصدون أن يشعروني به. أريد أن أشرب ماءً باردًا لا لون له ولا رائحة، وأنام فوق وسادة مصنوعة من أي شيء غير اللوف، أريد أن أتذمر وأطرق بقدمي على الأرض كما يفعل من بعمري عندما لا يعجبهم الطعام، أريد أن أكف عن الحديث الكبير والقول اليائس. . وأن أفغر فاهي دهشةً عندما أستمع لحديث أشخاص أكبر مني.

صمت يبتلع دموعه. . بينما كان الغراب ما زال غير عابئ بالأمر برمته، فتنفس درويش بعمق، وقال:

-أريد أن أعود طفلًا .

هنا نظر الغراب له بطرف عينه، تبسم بمرارة:

-أعرف أنني طماع كبير، لكنك على كل حال تستطيع الطير كما يفعل العصفور. أخبر الله إن اقتربت من السماء عن قولي. . ولا تنسى منه شيئًا .

نظر الغراب مرة أخرى، فصرخ الفتى يبكي:

-أخشى أن تكون أصم كما هو حال الجميع.

• • •

كانت الدماء عندما عاد قد صارت مع الرمال تربة خصبة لبناء بيت لا رب له منذ لفظ أبو درويش آخر زفرة محمومة حملت الكثير من الحديث الأبتر، ولم يكن هناك متسع من الوقت ليفصح المحتضر عن ألمه، لكنه ودرويشًا تبادلا قولًا أخيرًا جال بين العيون، وأمه تبكي بجانب والده تسأله الصمود. وكلما سألته القيام لإخبار القافلة أمسك بذراعها دون قول، حتى قال أخيرًا:

-لا أرضى أن يكون قاتلي وطبيبي واحد.

ثم أتبع بين تهدج صوته:

-لقد سرى السم في عروقي لأجل حفنة من المال.. حافظوا عليه وتصدوا للموت... لأجلي.

ثم صمت. وهدأت حشرجة أنفاسه. فرمى درويش من بين كفيه الغراب الذي كان قد أحكم قبضته من فوقه، وصرخت الأم تنتحب على ميتها، والأوراق الخضراء باقية بجانب وسادته جامدة بلا شعور، تتطاير يسرة ويمنة وتطبق فوق عيني الجسد الهامد، والفتى ما زال واقفًا بلا حراك، تتابع عيناه خيط الدم من أسفل ساق والده، والأم تندب، والفتى يشحذ قلبه ليستطيع البقاء صامدًا حتى لا يهوي.

هرولت نحوه تضمه إلى صدرها وتدفنه فيه أمام الجثة وعينيها المذهولتين.. بكت فوق وجهه، وبكت أكثر وهي بالكاد تلتقط حديثها المتساقط:

-وحينما تفيق.. ستجدها أمامك، مائدة بها عجل مشوي وأرز ودجاجات... والكثير الكثير من الفاكهة لا سيما المانجو الذي تفضله، وماء نظيف مصبوب في أكواب كريستالية ملونة، وقدر نحاسي مليء بشراب أحمر طيب المذاق.. وسوف تصبح طبيبًا..

أتسمع؟! أنت سوف تصبح طبيبًا تعالج الفقراء مجانًا ولا تمن عليهم.. أنت ستصبح طبيبًا.. حسنًا!

وعيناه كانتا معلقتين على سيل الدماء.. وقلبه يخفق فوق صدرها، وسؤال واحد يجول في خاطره قد استشعر أنه لن يبارحه أبدًا ما تبقى له من عمر:

-بماذا أخبر هذا الغرابُ السماءَ؟

• • •

فإلى متى هذا السكوت..

وهناك تنسج عنكبوت..

فخًا لنسف الدين..

والأخلاق في أرض العرب..[1]

• • •

[1] – للشاعر والكاتب/ محمود درويش.

احتلال العراق (حرب الخليج الثالثة)...

(حكى عام ٢٠٠٣ ميلاديًا، عن قوات عاهرة أتت من كل حدب وصوب، هدفها مدينة شامخة بين نهرين صافيين، حوصرت لما يفوق العشر سنوات، يموت أطفالها جوعًا، وتبيع من كنوزها مقابل الرغيف، لينتهي الأمر بالطامة الأعظم، بدولة متعجرفة تقود جيشًا من قطعان الخنازير والضباع أتوا متتابعين كما الجراد أو الأكلة، طامعين في كنز العراق وسحرها.. حكى هذا العام، عن قصة شعب مغوار وأرض صلبة، ومزايدات سياسية فارغة. وأطنان من الآهات والأنفاس المحبوسة.. وصراخ طويل فاضت به العراق تطلب النجدة، لكن أحدًا لم يساعدها.. الجميع من حولها كتم أنفاسه أيضًا.. الجميع في يوم أن سقطت مدينة الجمال.. ادّعى الإعاقة!

وفي عام ٢٠١١.. سقطت بغداد المنهكة ذات الرداء الأسود حدادًا على أرواح من رحلوا حتى تتحرر.. وعلى شفاهم آثار تقبيل لأقدامها، بينما في أحذيتهم دماء هجين حقير. لكنها لم تسترح، بل سقطت أمام قبورهم تبكي، وتلعن أثر المحتل العالق بأرضها، وأنفاسهم التي سارع هواء المدينة في طردها بصحبة رائحة الدخان.. والرماد..

وما زال الجميع من حولها.. يدّعي الإعاقة)

• • •

بغداد.. (الحلم كان قلبًا يحمل القالب نحو الخلود.. لكن الخيبة تجذبه جذبًا إلى الفناء.. والحلم ما زال عالقًا)

الثانية ظهرًا، تموز

-يبدو أن تلك الحرب خلقت لتشتعل بلا خمود، وأن اللعنة التي أصابتنا كابتلاء كان لها وجوه كثيرة تخفيها في رداء فضفاض أسفرت عنه مرة واحدة في منتصف رحلة العذاب الملاحق لنا. وكأن بلادنا "منظورة" حقًا كما تطلق عليها أمي، فالحرب فيها قائمة لا تهدأ

منذ وقت طويل، ربما بعد ولادتي بعدة أعوام فقط، وها أنا، رجل. . فتي في العام السابع والعشرين من عمري، أسكن بلدًا مهددًا بالاحتضار. . لكنه ما زال يقاوم لأجل الحياة.

أغلق علي دفتره بعد أن أنهى آخر صفحاته، ثم فضهُ من جديد على أول صفحة، وقرأ بخطه:

"اسمي علي الحسين، عراقي منذ النطفة، من أب مسلم شيعي وأم مسيحية كاثوليكية، لا أعلم كيف فعلاها، ولكنني دائمًا ما أحيي في والدي شجاعتهما في الإقدام على فعل كهذا؛ فالمسيحية والمسلم في بلد كثرت فيه الضغائن بسبب الاختلافات المذهبية كما هو حال العرب عمومًا أمر صعب، لكنهما تخطيا هذا كله لأكون أنا. . لكن ما علينا الآن.

المهم هو أن هذا هو التعريف الذي لا أحتاجه ليتم الاعتراف بي كإنسان طبيعي. . الأصدقاء، لا أعرف لي صديقًا منذ الأزل، تواعدت والوحدة وأنا راضٍ بها، ربما إن أمكنني أن أذكر صديقًا سأتحدث عن ماريا. . ابنة خالتي".

أغلق الدفتر وابتسم ابتسامة جذلة، وثلاث محاولات فاشلات تلوح أمام عينيه لتهدد بسمته المتفائلة.

فتح باب الغرفة يبدد خنقته، كانت أمه تجلس أمام التلفاز، وتشرد مع محتواه، توجه نحوها حتى جلس بجانبها، وما زالت على شرودها، أمسك بيدها وقبلها:

-ما بك؟

نظرت نحوه ساهمة وكأنها انتبهت لتوها بوجوده، فأعاد:

-ما بك؟!

-لا شيء. . لا شيء إطلاقًا.

-حقا!

نظرت له بطرف عينها من خلف نظاراتها السميكة الدائرية، ثم استدارت لتكون في مقابلة له، وقالت قولاً يحفظه عن ظهر قلب:

-فلتسمع إذاً، أنا لست مضطرة للانتظار أكثر من هذا، أنت يا ولدي لا يد لك في رفض زوج خالتك، وأنا لم أجبرك على الزواج من مسيحية، فلتتزوج مسلمة شيعية مثلك، أو حتى سُنّية، تزوج حتى ولو تزوجت صابئة!

صاحت بالقول الذي لم تشأ أن تكتمه، لم يكن يسمع هذا القول الآن لأول مرة، وكأن ذاكرة أمه أبت أن تحمل معلومة أو قولاً غير الحديث عن زواجه، واليوم الذي سوف يمطرها فيه بنسله وذريته؛ فمنذ أن مات والده وبقى مع أمه يعيشان على الباقي من مدخراته طوال سنوات عمره مع التقشف والتقطير بسبب الحصار، وهي لا حديث لها إلا فيما يخص زواجه ونسله الذي تريد أن تراه.

-يا أمي، أنا ذاهب الآن لبيت خالتي، لعل. . .

قاطعته:

-مجددًا!

-نعم يا أمي مجددًا، ولن أسمح للتخاذل أن يصيبني في هذا الحقل خاصةً.

قالها بنبرة الضعيف، وقال أيضاً:

-ماريا أملي يا أمي، وهي الشيء الوحيد الذي يحملني على الحياة.

تأملت فيه معاتبة، لكنها لم تنبس بحديث أكثر.

• • •

في باحة المنزل الداخلية أقعى فوق حصيرة ملونة بجلبابه البني وشماغه الذي يشبه لوحة الشطرنج. كان قد اعتاد أنه كلما ذهب إلى منزل خالته لكي يعيد فوق مسامع أبيها رغبته في خطبتها، أن يرتدي مثل هذا الرداء الوقور، حيث إنه لمح في عيني والد ماريا استهزاءً بزيه

الشبابي في المرة الأولى التي جاءها يطلب يد ابنة خالته؛ لذا فقد اعتاد في المرتين التاليتين ارتداء مثل هذا الزي، وها هي المرة الرابعة تبدأ، بعدما أيقن بخسارته في ثلاث جولات سابقات.

مضى وقت ليس طويلاً وليس قصيرًا، أتت فيه ماريا وقدمت شايًا ثم خرجت دون أن تسمح له حتى بأن يلمحها، وبعد مدة، دخل والدها بزي يشبه الزي الذي يرتديه علي، كان وجهه كعادته كلما قابل عليًا، صلبًا ومتحجرًا، وخاليًا من التعابير:

-يا أهلاً بولد الأخيار.

نطق بها والد ماريا صائحًا وهو يهم بالجلوس أمام علي، كان هذا الترحيب عادة عنده، أي أنه لا يتلفظ بها خصيصًا للشاب الخاطب، ولو أنها لا تصلح لوجهه الجامد، إلا أنه قالها.

تسمر علي لدقائق، قبل أن يقول:

-أهلاً بك يا أبا ماريا، كيف حالك اليوم؟

جلس أمامه وهو يصب من الشاي لنفسه ويبتسم ابتسامة خبيثة:

-أنا ـ الحمد لله ـ جيد جدًا والصحة بفضل الله أصبحت في تقدم، كيف أنت؟ وكيف حال الوالدة؟

-أنا ـ الحمد لله ـ والوالدة أيضًا بخير، والصراحة يا عمي بدون مراوغة، لقد حضرت اليوم من أجل...

قاطعه ضاحكًا:

-أنا أعرف لماذا حضرت يا ولدي.. لكن ما لا أعرفه هو: من أين لك بمثل هذا الإصرار الشديد! الدنيا حصار يا ولدي والذي يستطيع أن يتزوج مثلك لماذا يعرقل نفسه بالثبات على فتاة بعينها، صحيح أن ماريا ابنة خالتك، إلا أنك تعرف جيدًا أنكما لا تصلحان لبعضكما البعض، وإن كان ذلك قد حدث من قبل بين والديك، فلا شأن للعالم بخطأ ارتكبه فردان.

-خطأ! أنت يا عمي تسمي زواج أمي بأبي خطأ؟

ارتشف من كوب الشاي مركزًا عينيه بداخل الكوب، بحيث يبعث رسالة لعلي بعدم الاكتراث، ثم وضع الكوب وضرب بكفيه فوق فخذيه، ونصب قامته وقال:

-انظر يا ولدي، هذا الحديث مفروغ منه، قلناه مرات كثيرة مضت، وأنت تعلم الرد قبل أن تسأل، ابنتي لن تربطها بك صلة ما دامت حية إلا القرابة، ستعيش وتموت ولن تكون لك إلا ابنة خالة.. ولقد قلت لك هذا من قبل، وأنا يؤلمني أن أردك.. ويؤلمني أيضًا أن أخبرك أن ابنة خالتك زفافها الثلاثاء القادم... ويؤلمني أيضًا أن أخبرك.. أنه من دواعي سروري أن تحضر!

فرك قلب علي بين صدره وزاغت عينه، وكاد لسانه يسكن، لكنه جاهد ليقول بثقل:

-ستزوج ماريا!

-ما بأيدينا شيء يا ولدي... إنه الحظ والنصيب.

-حظ.. ونصيب! لماذا؟!

وخرج الآخر عن سكونه ليقول بصراخ:

-لأنك لا تعي، أخبرتك مرارًا أن هذا الذي تريده مستحيل.. ليس ذنبي أن ابنتي تربطها بك صلة قرابة.. ولن أقبل بأي شكل من الأشكال أن يصاهرني مسلم.

وضع كوب الشاي بجانب الإبريق، وقام يعدل شماغه. لم يملك علي إلا أن يقوم وهدفه الباب.. وما إن قاربه حتى قال ببقايا صوته:

-شكرًا لك يا عم.

ورد الباب من بعده.. وخرج يتمشى وقدمه تعرقله. مشى بضع خطوات، ثم عاد ينظر للبابِ الحديدي المردود من خلفه، فتغيرت أمارات وجهه، وأسرع نحوه يحث الخطى حتى صار واقفًا يقابله، وهنا سدد له ركلة غاضبة تحررت فيها قدمه وساقه الثقيلة، فانفرج أمامه الباب

على مصراعيه ليجد والد ماريا ما زال يجلس، والبسمة السوداء تعلو شفتيه أقرب إلى التشفي، لكن عليًا لم يلحظها، سدد ركلته ورحل. . وصوت المفصل الحديدي الصدئ وارتطامه بأخيه يحدث صوتًا مزعجًا من الخلف، لكنه لم يكن يزعج عليًا . . الذي لم يكن يسمع.

• • •

جلست تنتظره وهي ترجوا من الله أن لا يخيب مراد ولدها المحب بصدق، كانت تعلم منذ أعوام مضت بأن ولدها قد هام عشقًا في ابنة أختها، لحت ذلك منذ أن كان طفلًا يجذب جلبابها جذبًا لتزور أختها، وليرى هو معشوقته، كان عندما يزور المسجد مع والده يدعوا الله سرًا أن يوفقها في اختبار الرياضيات خاصتها، ويخبر عمه "حسام" سرًا أن يدعوا هو الآخر ولا يخبر والده، وبموت حسام صار يدعوا وحده، وعندما كبر وأتاها يومًا يفصح أمامها عن رغبته في الزواج من ماريا، ذلك اليوم الذي كانت تعلم بحتمية مجيئه، لكنها كانت تكذب نفسها وتحيدها عن توقعاتها، علمت أن ولدها المسلم يحب مسيحية هي ابنة أختها، وعلمت أن الرجل الذي تزوجت به أختها من المستحيل أن يقبل بهذا، وإن كانت هي كمسيحية قد خرجت على كثير من القواعد لتقترن بمسلم وتنجب منه عليًا، فإنها علمت أن هذا لم يكن يرضي والدتها التي لم تحضر زفافها ولم تحضر يوم ولادة ابنها، وتوفت قبل أن تلمح عليًا، وبالمثل فعلت أختها وزوجها قبل أن تتصالح وأختها يوم أن أنجبت فتاتها ماريا عندما كان صبيها في الثانية من عمره، يومها لم يكن في الحسبان أن يتقدم الشاب لخطبة الصبية ثلاث مرات ويرد خائبًا . . ولم تمضِ لتكمل حديثها عن المرة الرابعة حتى دفع علي الباب وانطلق منه صوب غرفته، لا يكاد يرى ما أمامه، ولا يكاد يسمع نداء أمه؛ فعلمت هي تلك اللحظة أنها لم تكن ثلاث محاولات فقط تلك التي رُد فيها خائبًا.

أما هو، فمن داخل غرفته قام إلى دفتره وقطعه، يلعن الحرب والحصار وزوج خالته، وقعت عيناه فوق النتيجة المعلقة فوق مكتبه صدفة، كاد يمزقها هي الأخرى، لكنه توقف يقلب أوراقها حتى وصل لتاريخ يوم الثلاثاء هذا، فتوسع بؤبؤه لمّا رأى التاريخ الموافق ليوم الثلاثاء، ولم يجد

نفسه وقتها إلا ساقطًا فوق الأرض، وعيونه ذاهلة، طرقت أمه الباب ثم دخلت، وهدرت بخوف ملتاعة:

-ماذا هناك يا ولدي؟

وقال:

-ستزف ماريا لغيري.. في اليوم ذاته الذي قتل فيه عمي يا أمي.

ثم سكن، وبكت.

• • •

مساءً، بعد ثلاثة أيام

يجلس أمام صورة معتمة، لشاب في رداء الجيش تعلو شفتيه ضحكة رحبة، وهو يجلس أمامه، ضامًا ساقيه إلى صدره وذراعاه تحوطان ساقيه.. ويهمس:

-حسام يا صديقي.. كيف حالك؟

لقد اشتقت لك يا عمي، اشتقت إلى حديثك وإيمانك القوي.

اشتقت لضحكتك واصطحابك لي قرب دجلة.. وإسلامك للعراق حواسك وحياتك.. اشتقت إلى أذنك التي تحتويني يا عمي، واشتقت إلى صوتك الجهوري المعتز في وصف بابل والبصرة، ويدك التي حملتني يومًا تلف بي بين حارات الزوراء ومساكنها العتيقة.

يا عم.. أنا مشتاق لشرحك الدقيق وأنت تصف كيف يركب الناس في الأهوار[1] المشحوف[2] ويرتحلون به. وكيف يتحدث الكردستانيون وماذا ترتدي نساؤهم البهيات.

---

[1] – الأهوار هي منطقة تقع جنوب العراق.

[2] – المشحوف هو اسم نوع من الزوارق يستخدمه الأهالي هناك كوسيلة نقل أساسية بين الأنهار العراقية الجنوبية المطلة على تلك المنطقة.

يا عم. . اليوم تتزوج ماريا، أتذكرها؟ تلك التي أخبرتك عنها مرارًا، تلك التي قلت عنها أنني سأنالها يوم تنالني العراق. . أتذكر!

يومها لم أفهم كيف للعراق أن تنالني، وما زلت لليوم لا أفهم. أنت يا عمي رحلت ولم تترك من أثرك إلا ذكرى، وبضع صور أجلس أمامها كما الطفل ضامًا ساقي إلى صدري وأحدثك بخفوت. . أتذكر يا عمي يوم قلت أنه لمن أمنياتك أن لا أشابهك ولا أشابه أبي، ولا يشابه زمان أي منكما زماني. يومها أخبرتك سرًا وطلبت منك ألا تخبر أبي كما جرت العادة في أحاديثنا، قلت لك:

-ولكني أتمنى أن أصير جنديًا مثلك، وأرتدي البذلة العسكرية وأفدي العراق بدمي كما تفعل، ولا أريد أن أكون مثل أبي الذي تخاذل.

ونظرت لي شذرًا يومها وأظهرت استياءك، لكنك قلت بنبرة الواثق:

-أنا أريدك أن تفدي العراق بعقلك لا بدمك، أريدك أن تسكن العراق لكن بهواء جديد لا حرب به، لا أريدك أن تكون مثل والدك، ولا مثلي. . أريدك أن تكون أنت.

يومها أطرقت، وسألتك سؤالًا بدا غريبًا لك، لكنك فهمته:

-حسام. . أنت عندما تنجب ستحب ولدك أكثر مني أليس كذلك؟

وأنت تبسمت وقلت:

-أنا لن أنجب، ولا أتمنى لأي طفل في العراق مصيرًا كمصيري أو مصير أخي الحسين والدك، أنا يا علي رأيت فيك ولدي الذي لن أنجبه، واستعضت بك عنه.

وأنا قلت "هذا جيد" وضحكت، ولكنني لم أكن وقتها أفهم إلى ماذا كنت ترمي!

قطعت أمه مناجاته الصافية وكدرت ظلام الغرفة عندما فتحت الباب عنوة وهدرت خائفة:

-علي! قم يا ولدي، ما عاش من يغمك، قم لا تشمت فيك الحاقدون!

استدار نحوها يبتلع غصة حلقه، وباح:

-حاقدون على علي! هذا محال يا أمي.

• • •

أخرجته من غرفته بعد عناء، ليجلس بجانبها صامتاً وكأن لا وجود له، وطال الوقت حتى فاض بها وهو ما زال على صمته فما كان منها إلا أن صرخت مقهورة:

-أفِق يا علي، أنا لم أتحمل مشقة حملك وتربيتك منذ أن مات والدك وتركك لي صبيًا في التاسعة كي تأتي أنت اليوم ويصبح هذا حالك، وتهدم كل ما بنيته أنا في ما يقارب العشرين عامًا، ولأجل ماذا!؟

لا شيء! الحياة يا ولدي لا تتوقف عن هدر عمرك، فهل ستتوقف أنت عن البقاء لتترك لها المجال واسعًا!

زم شفتيه ولم يبدِ ردًا، واكتفى بالهمس قائلًا:

-أمي، حدثيني عن حسام.. عمي.

عقدت حاجبيها من فرط الدهشة، كانت تعلم أن اليوم هو ذكرى وفاته، لكنها لم تتوقع هذا الرد، قالت:

-أحدثك.. عن.. حسام؟! ولكنك تعرف عنه كل شيء.

-لا بأس، ولكني أريد تذكره معك.

وتنهدت مستسلمة تسترخي مشاعرها لتبدأ بالحديث:

-حسام... لا أعلم ماذا أقول، ولكنه كان يحبك كثيرًا، كان يقول أنك ولده وله فيك أكثر من والدك، على ما أتذكر لقد كنتَ في السادسة عندما قُتل في الحرب، وكان هو في الحادية والعشرين وكان عسكريًا في الجيش، كان الأخ الأصغر لوالدك، وهو الوحيد من بين

أقاربي وأقارب والدك الذي حضر زفافنا، أمي لم تحضر ولا أختي، وبالمثل فعلت جدتك أم أبيك.

كان حسام ناضجًا رغم أنه يصغرني وأباك بثلاث سنوات، وكان مفعمًا بالحياة، عندما قامت الحرب واشتبك العراق وإيران[1] كان أول الحاضرين بساحة الحرب بينما قام أبوك بالتهرب من أمر الاستدعاء للحرب الذي أتاه لتربيتك معي، ولكي لا يتركك صبيًا يتيمًا، ورغم ذلك، لم تمضِ عدة سنوات إلا وكان ميتاً، ولكن على فراشه.

كان حسام يقول عن زواجنا أنه اتحاد للعراق ويضحك، وعندما علمنا بشأن ذهابه للحرب فزعنا للأمر وكدنا أن نقيم مأتمًا، بينما كان هو سعيدًا كما لو كان في زفاف، قال أن ما يؤلمه في الحرب هو تضرر العراق، لكنه لا يرى في نفسه ضيقاً للخوف من القتال، كان يقول أن العراق عروس تستحق رداءً متوجًا بالنصر ولو دفعنا لثمن الرداء أرواحنا نقودًا، كان حسام يقول: "سأرجع، وسأحتفل بنصر العراق". . لكنه من داخله كان يتمنى ألا يعود، وأن يفدي العراق بروحه نقدًا ثمن الثوب البهي، وقد فعل.

وكان يبدي استياءه من والدك ومن مثله من تهربوا من حضور الحرب، ويقول أن العراق تستحق من هم أفضل منهم، ورغم أنه كان يصغر والدك، لكنه لم يكن يخجل من أن يلقي بلومه في وجه أخيه بلا رحمة، وذهب حسام للعراق فداءً كما كان يريد . . ومن يومها لم يعُد.

زفر بوهن، وقد ارتاح جفناه فوق المقلتين يدثرانهما، وكان يغوص داخل ذاكرته، يتذكر حسامًا وحكاويه عند النهر المقدس، وهو يلوح بيديه موقنًا تمام الإيمان بما يقول، وعندما كان يصطحبه للمقهى ويأخذه ليبيت سرًا بغرفته رغم تحذيرات أم حسام التي هي جدته بعدم دخول هذا الصبي ولا أبيه.

وكيف كان حسام يرمي بكل هذا عرض الحائط ليأتي ومعه علي ويقضيان الليل في سرد الأسرار وتبادل الآراء، ثم عندما يحين وقت العودة صباحًا يبذل مجهودًا حتى يخرج الصبي دون

[1] - الحرب العراقية الإيرانية (حرب الخليج الأولى) عام ١٨٨٠

أن تلحظ جدته، وعندما يقضيان الأمر بنجاح يخرجان سويًا يقهقهان على خطتهما الناجحة، وبرحيل حسام، رحلت معه ضحكاته وخططه، وبقى السكون، وبقى العراق مأسورًا.

–تعرفين يا أمي، لقد اشتقت لحسام كثيرًا، وللعراق.

• • •

"وأنا يؤلمني أن أردك.. ويؤلمني أيضًا أن أخبرك أن ابنة خالتك زفافها الثلاثاء القادم... ويؤلمني أيضًا أن أخبرك.. أنه من دواعي سروري أن تحضر!"

"لتنال من تحب، يجب أن تنالك أولًا العراق.."

كتبها بأول صفحات دفتره الجديد، دون تعريف ولا ذكر لاسمه ولا لماريا التي مضى على زواجها الآن أسبوعًا كاملًا، ثم مضى يحكي لأوراقه كما جرت العادة، وقطع أشواطًا طويلة بين الأوراق بينما كانت أمه بالخارج تشتري حاجيات المنزل صعبة المنال غالبًا، خصيصًا في مثل هذا الوقت؛ فالدنيا حصار منذ مدة يصعب حسابها، والعراق مسجون والسجان وغد، لكن الأرض تاقت للتحرر، وعلى ذكر التحرر لا يعلم لماذا ترددت في أذنه: "يجب أن تنالك العراق أولًا!" حاول أن يفكر في سبب تذكره للجملة في هذا الوقت، لكن صوت الطرق المزعج فوق الباب، ، قطع تفكيره.

–نعم يا أمي، نعم أنا قادم.

أسرع نحو الباب يستمهل أمه التي بدت في عقله تحمل حاجيات كثيرة، فتح الباب يستعد ليحمل عنها، لكنها لم تكن أمه..

–ماريا! ماذا هناك؟!

رفعت عينها المنكسرة إلى عينيه وقالت:

–ليس هناك شيء، جئت فقط لزيارة خالتي.

قالتها بصوت هادئ، ليستجمع هو رباطة جأشه ليقول بذات الهدوء وهو يشيح بعينيه عنها:

-خالتك بالخارج تستقضي للمنزل طلباته، يمكنك أن تنتظريها، ستأتي قريبًا.

على عجل قالت بينما همت بتعدي درجات المنزل:

-لا، لا بأس، سآتي في وقت لاحق.

أمسك برسغها وحاجبه مرفوع وهو يجذبها للداخل، قال بضيق:

-تربيتِ معي يا ماريا، اليوم تخافين مني!

وهي تحسست رسغها متألمة وحدجته غاضبة، وصرخت فيه:

-لماذا تعاملني هكذا؟ لماذا تعاقبني الآن وأنت تعرف أن لا دخل لي بالأمر برمته، أنا يا علي أحببتك، لكن الزمان لم يحب كلينا.

أحس حرفيًا أن لسانه معقود، وأن الحديث الذي تبادله في ظلام الغرفة والاتهامات التي يعرف ببطلانها كلها توقفت عندما ذرفت أول عبرة. لم يعرف ماذا يخبرها وكيف يبرر تصرفه؛ فجلس فوق كرسي بجانب الأريكة التي تجلس عليها:

-كيف حاله معك؟

نظرت له معاتبة أولًا وهي تحول نظراتها بينه وبين رسغها، ثم قالت:

-يبدو لي أنه لا يختلف عني كثيرًا، هو مجبور أيضًا على تلك الزيجة، أو أن شيئًا آخر يضايقه، لا أعلم.

-وأنت.. ماذا تشعرين؟

-......

-أحقًا يا ماريا أنت أحببتني يومًا من الأيام؟

وصمتت لتقول بخفوت:

-أنا لا يمكنني أن أتحدث عن هذا القول الآن، أنا يا علي امرأة متزوجة، أتفهمني!

وبقى يحدجها صامتاً بلا حراك، حتى طرق الباب فقال:

-خالتك جاءت.. زوريها إذاً.

• • •

ثم انقطعت أخبار ماريا عنه وانكبَّ هو فوق الأوراق يشكو إليها، وانخرط كلاهما في الحياة كلٌ في طريقه الخاص، كانت دعوات أمه تتعالى يومًا بعد يوم فوق أذنه حتى يتزوج، وعندما يئس أن يؤجل الأمر لأكثر من هذا، لم يجد في طريقه إلا أن يطاوعها في بغيتها.

وتزوج! قبل حتى أن يحفظ اسم العروس المسلمة الشيعية التي اختارتها أمه بعناية رغم أنها كانت تسمى "فاطمة"! ولم يمضِ عدة أيام إلا وكانت العروس في بيته. كان يقضي النهار أمام الورق، أو في الدكان الذي كان قد ورثه عن والده، والذي يبدو شبه فارغ من السلع بسبب الحصار على البلد، وفي المساء كان ينام في غرفته الجديدة موليًا ظهره إلى تلك التي من المفروض أنها زوجته، كان يعرف بظلمه لها، خصيصًا عندما كانت ترجوه أن يخبرها عن العيب الذي يمنعه من الحديث معها أو حتى النظر في وجهها، كان لا يبتسم لها إلا صدفة، ولم يمسسها إلا أول ليلة من باب العادة، ثم وكأنها أصبحت بعد هذا اليوم عليه حرامًا، كانت أحياناً تبكي، وأحياناً أخرى تشكو جفاءه لأمه وأمه تعاتبه، وهو لا يستمع ولا يهتم.

ثم لم يمر على زواجه عدة أشهر، كان قد استمع خلالها أحاديث من أمه عن ماريا لكنه أيضاً لم يكن يهتم، كان بليدًا جدًا في تلك الفترة، فاترًا ولا يملك حق الشعور إلا عندما يسكب مشاعره في الأوراق حينما يختلي بها سرًا.. وحده.

وفي وسط معتركه الخاص، قام المعترك في بغداد أيضاً يشتعل، ثم لم تحضر ماريا بعد ذلك، وقامت قائمة بغداد وانبثقت الحرب من رحم الحصار في ولادة للندم والشؤم، كما تبعث النار ككرة من لهيب، ليظن الجميع أنها سقطت، ولم يعلموا أن السجان فقط زاد طغيانه عندما لم يجد

رادعًا من إخوة المسجون الموتى أو أنهم يدَّعون ذلك، بل إن السجان لم يكن له دور من الأساس حتى ينصب نفسه واليًا يحاصر ثم يفجر ليفكر في اقتحام البلد المسكين على الأهالي، ليدكها فوق رؤوس الأبرياء بلا ذنب وبلا خطيئة!

مضى على زواج ماريا شهور طويلة وهو كذلك. والحرب ببغداد دكتها، والزحام شغله عن السؤال عن أحوال ماريا، ولم يدرِ لماذا كانت بغداد وقتها هي أكثر ما يشغله، بغداد التي كان يراها تلك الفترة كثيرًا ما تشبه مَاريا، حزينة وصامتة، لكنها متألمة، خصيصًا عندما سمع عن هجران زوجها المنزل، وخروجه في جماعة من جماعات المقاومة ولم يعد.

ثم لم يمضِ وقت طويل حتى سمع عن خبر وفاة والدها في إحدى عمليات القصف، لم يدرِ وقتها كيف يشعر، لكن الخبر عندما وصله هزه، كان بين التفكير بالفتاة التي أصبحت الآن يتيمة بمعنى الكلمة، فها هو والدها أيضاً يتركها بعدما هجرها زوجها بلا رجعة، وبين التشفي الذي لم يستطع منع نفسه منه. عندما استمع إلى الخبر تذكر فورًا تلك النظرة الخبيثة على وجه الرجل وهو يخبره بأمر ماريا وتزويجه لها ليحرمه منها، وتلك الضحكة اللزجة والقول المختفي بين عينيه، والذي كان مفاده: "أنا أربح".

لكن عليًا تغاضى وذهب إلى العزاء وبقى بجانبها، يتابعها من بعيد ويختلس النظر إليها، ثم قرر أن يستجمع شجاعته ليذهب لها ويواسيها ويواسي خالته، استقبلت خالته مواساته على مضض بين بكائها، أما ماريا فلما قال لها أنه سيهم بالذهاب أمسكت برسغه تجذبه كما فعل هو من قبل، وأمرته أيضاً أن ينتظر، وبدون أن ينبس بما هو أكثر، أستمع لما قالت، ثم جلس.

ولما انفضّ الناس عرجت أمها إلي غرفتها، وبقت ماريا بالداخل وعلي بساحة المنزل من الخارج، وهو ذات المكان الذي جلس فيه يومًا، وحصد منه خبر زواج ماريا.

خرجت له تقدم له شأيًا، وجلست أمامه:

-كيف حالك يا علي؟

قالتها وهي تنكس رأسها قليلاً لأسفل، لكن عينيها انطلقتا صوبًا إليه، بينما نكس هو رأسه حرفيًا، وعيناه جاهدتا لتثبت فوق كوب الشاي، هاربًا منها:

-كيف حال زوجتك يا علي؟

قال متلعثمًا:

-هي جيدة.

-وخالتي؟

-هي أيضاً . . .

-وأنت؟!

قاطعته فارتبك وأمضى وقتاً طويلاً يستجمع أنفاسه ويحاول أن يقول بشجاعة:

-أنا أيضاً بخير. . وأنت؟

-أنا؟!

أشارت إلي ذاتها متعجبة، وبرزت من أماراتها المرارة، وباحت بصوتها:

-لنقل جيدة، حتى يصبح كلانا كاذبًا.

-. . . . . .

-أنا متعبة يا علي، زوجي لم يعد منذ عدة أشهر، وآخر ما سمعته من أخباره أنه يشارك في عمليات المقاومة ضد الأمريكان، ولم يعد يأتيني، أنا أعلم أنني لا أعني له شيئًا وأنه كان مغصوبًا على الزواج مني كما هو حالي، لكنه مهما كان زوجي، ووالدي تركني ورحل، وأمي كما ترى امرأة ضعيفة، أنا خائفة يا علي، خائفة.

-. . . . . . .

-أنا آسفة لكنني سأقولها . . . أنا يا علي لم يعد لي سواك، أنا يا علي. .

توقفت عن الحديث، فرفع هو أخيرًا عينيه إلى وجهها، كانت كما الضائعة، وحديثها مسلوب منها، وقلبها يخفق، وعيناها تدمعان على ذكر أبيها المتوفى، وتنظر إليه كأنه المرسى، وعود الجريد الذي سينجدها، ولم تكن تعرف أنه ليس إلا قشة خاوية، ستجبرها التيارات والأمواج المتلاطمة على السقوط وحدها دون أن يسقطها أحد، أو يستنجد بها أحد.

–أنا يا ماريا أحببتك، أحببتك كما لم أحب ذاتي، تصورت يومًا أن حبي لك سيساعدنا في وجه الحصار، وأننا سنحارب معًا بالبناء، وأنني سأنجب منك من يبني من جديد، لكنكِ تزوجتِ ولم تصيري لي، وأنا تزوجت ولم أصبح لكِ، والحصار صار حربًا واحتلالًا، وزوجك الذي لم يحبك يومًا وتزوج بك غصبًا عنه مثلك تمامًا، هرب منك إلى الحرب، وأنا أيضًا أهرب من زوجتي، لكني لن أهرب منها إليكِ يا ماريا.. لن أهرب إليكِ منها.

–يا علي، أنا أريدك أن تكون بقربي فقط، تشدد أزري، وتبقى بقربي، أنا أتهاوى يا علي، و...

–وأنا أيضًا أتهاوى، لكن ليس الآن فقط، أنا كرهتك يا ماريا، كرهتك وكرهت فاطمة زوجتي، كرهت من زوّجك ومن زوجني بفاطمة.

–لكنني لا أكرهك يا علي، ولم أكرهك، ولن أكرهك، وأنت أيضًا.

صمت. قام وألقى بكوب الشاي من يده فسقط أرضًا وتهشم، وقالت بوهن:

–الشاي سعره غالٍ جدًا للعلم.

صرخ:

–ماذا تريدين مني يا ماريا؟

قامت أيضًا ووقفت أمامه، ونظرت إليه بعيني صقر ثاقبتين، كانت الدموع تنساب فوق وجهها، لكنها حافظت على ثباتها، وقالت بجمود:

–ماذا تعتقد أنني أريد منك؟

-. . . . . .

-أنا فقط أخشى. . . أن يكون ما في معتقدك الآن، أنني أريد أن أخطفك من زوجتك لأتزوج بك، أليس هذا ما فكرت به؟!

تجهم علي، كان حقًا هذا ما خطر بذهنه، أو شيء يشبهه، شعر أنها اخترقته تمامًا، فدارى عينيه في شماغه يتصنع الإرهاق. وقتئذ برقت عيناها، ونظرت له نظرة غاضبة وكأنها ستصفعه، لكنها قالت بصوت بطيء:

-قل لي أنك لم تفكر في هذا يا علي. . قل لي أنني فقط أطلب النجدة من علي الذي أعرف كم يحبني كأخت قبل أن يعشقني كحبيبة، قل لي أنك فهمت أنني أتعلق بأكثر أهل هذا الكون معرفة لي، قل أنك لم تظن في السوء وأنك. . .

قاطعها:

-أنا . . .

-أنت لم تعد تعرف من هي ماريا يا علي. . أنت نسيت.

التفت بعصبية فأمسك برسغها وقال:

-يكفي هذا يا ماريا، يكفي.

نظرتْ إليه:

-عدني ألا تتركني وحيدة، اجعلني في منزلة الأخت أو القريبة، كما تشاء، لكن فقط كن قريبًا مني. . قل أعدك.

-أعدك.

خرجت منه كخروج الروح، وبكت هي على يده، ولم يتحدث.

• • •

بعد خمسة أشهر، ظهرًا

–وأنا أيتها المزينة بأنواره، مشتاق لكِ. أشتاق إلى صوتك وأنت تنشدين المسبحة الوردية بصوتك العذب، صرت أراكِ في أحلامي ترفلين في رداء أبيض لا يناسب إلا القديسات. . أنا مطمئن عليكِ وأعرف أنك تنعمين بحياة أفضل، لكن أتمنى أن تزوريني الليلة وتخبريني عن حالك، بالتأكيد لا حرب لديكِ، أليس كذلك؟

أعلم أن الله اصطفاك كما يصطفي الأطهار من أمثالك، وأنك تسكنين الآن مكانًا أفضل، ربما بلدًا ما ينعم بالهدوء، ربما تمرّين بوقت أفضل وتعيشين حياة هادئة.

أتعرفين ما الصعب بالأمر؟ أنكِ فقط مبتعدة، خصيصًا والضيف الجديد قد جاءنا المنزل على غير موعده، عندما يكبر سيعشق سيرتك، وأنا متأكد من أنكِ لو كنتِ شاهدتِه لكنتِ عشقتِه. أتعلمين أنه جميل مثلك؟ تخيلي!

زوجتِني من فتاة لا أحبها فقط لتربيه، وألححتِ علي مرارًا وزججت بي داخل الهوّة فقط لأجل هذا الصغير، ولأجل رؤيته وحمله، ورحلتِ حتى قبل أن تطالعيه.

ترك دفتره ونظر إلى الخلف يطالع الصغير بين يدي فاطمة، كان يبكي وفاطمة ترضعه وهو يطالعه عن كثب من خلف النظارات السميكة الدائرية التي صار يستخدمها مؤخرًا مع أنه لا يعاني من ضعف النظر، وفاطمة تطالعه من بعيد:

–ماذا تكتب؟

–. . . . .

–أتوق لأنْ أعرف ماذا تحمل في هذا الدفتر.

–. . . . .

–هل أنت معتاد على عادة التدوين تلك من زمن؟! هل لك دفاتر غيره؟

سكت ونزع إحدى صفحات الدفتر وأخذ يكتب في صفحة جديدة.

-الورق غالٍ جدًا، لا تهدره أرجوك.

لم يهتم وأكمل، وصدح المسجد القريب بصوت أذان الظهر حينما قام هو يستعد للصلاة.

-ستذهب للصلاة؟

-نعم.

-ألن تلقي نظرة على حسام؟

-إنه مرتاح بين حضن أمه، اتركيه كما هو.

عدل من هندامه وهم نحو الباب، لكنه لمّا وصل إليه أحس كأنه تذكر شيئًا، وارتقى في ذاكرته شيء من حديثها:

-هل لك دفاتر غيره؟

عاد من جديد نحو غرفته، تاركًا إياها واندهاشها من عودته، وصراخ الصغير بين يديها وصوت الماء الذي يغلي فوق شعلة الغاز وصوتها المرتفع، دخل غرفته وأغلقها، تلك الغرفة التي كان قد أغلقها منذ زمن، منذ أن أجبرته والدته قبل أن تموت أن يتركها ويتخذ غيرها لتكون له ولزوجته لتكفيهما، لكن هذا لم يكن السبب الحقيقي، بل كان السبب هو فرط جلوسه بها وبقائه فيها أغلب النهار والليل، حيث كان يقضي فيها أغلب وقته عندما كانت زوجته في شهور حملها الأخيرة، ولم يمضِ الوقت طويلا حتى توفت أمه ووضعت زوجته وظلت الغرفة مغلقة.

كانت مليئة بالغبار، لا سيما أنها لم تنظف منذ فترة لأنه كان يمنع فاطمة من دخولها، كان مكتب الغرفة الذي شهد سنوات دراسته يبدو وكأنه سافر عبر الزمن، عتيقًا كان، والغبار يكسوه، سيرة الدفاتر ذكرته بتلك الغرفة، وحالة الذهول التي يعشيها أنسته كل شيء، صار يشتري الدفاتر ويهتم بها أكثر من غذاء زوجته وولده ذي الأربعة أشهر، والحرب القائمة بالخارج والتفجير والدمار كل هذا لا يعني له شيئًا، لكن سيرة الدفاتر القديمة على لسان فاطمة جعلته يتوتر فجأة.

انكبَّ فوق مكتبه يبحث عن دفاتره القديمة، في الأدراج لم يجد شيئًا ولا على الأرفف، قلب المكتب عدة مرات بلا جدوى، كاد يمل لكن شيئًا تذكره أعاد إليه الهمة والرغبة في البحث، أحضر كرسيًا وصعد فوقه ليكون في مستوى الخزانة، وفوقها وجد صندوقًا كرتونيًا صغيرًا مغلفًا بعناية، تبسم بظفر وأمسك به ونزل. أخذ يتلمس محتوياته بعناية، وينفض عنها التراب، الدفتر الأحمر والأزرق في أقصى القاع، وأوراق مفردة وبضع صور وأقلام للذكرى، علب فارغة، وأوراق خُطط فوقها أسماء آل البيت الكرام كان يكتبها في صغره، ألوان مائية جفت، ودفاتر صغيرة للذكريات، وزجاجة عطر فارغة قديمة، وأجندات كبيرة تناسبه عندما كان في العشرين، حمله بعناية ووضعه أمام المكتب.

-الظهر سيفوتك يا علي، هيا اخرج.

لم يهتم، وأخذ يفرغ الصندوق ويخرج دفاتره بعناية، قرر أن يقرأها بالترتيب، كان الدفتر الأحمر الصغير ذو العشرين ورقة هو أول دفاتره، والذي بدأ الكتابة فيه عندما كان في السابعة، فضه على الصفحة الأولى: "اليوم هو أول أيام الدراسة، وبما أني كنت من الناجحين في العام الفاءت فأنني اليوم وبحمده أصبحت في السف الثاني".

ضحك وهو يكتم صوته على أخطائه الإملائية، ثم قلب عدة صفحات وقرأ في أول الصفحة بخط ركيك:

-شيء جيد أن يكون لك صديق يحبك، وأنا لي صديقان، حسام، وماريا . . صحيح أن حسامًا غائب، لكنه بالتأكيد سيعود قريبًا.

تنهد بيأس، وقلب عدة صفحات وقرأ:

-اليوم جاءنا زميل جديد اسمه عبد الزهراء، يبدو لي فتى لطيفًا ويبدو أننا سنصبح أصدقاء، يقول أنه من بابل وقد انتقل مع والده للعمل في بغداد، حكى لي اليوم كثيرًا عنها ويقول إنها مملكة من الجمال، أنا أتشوق حقًا لأراها وأتشوق أيضًا لرؤية وزيارة كردستان، الحقيقة أنني أتشوق لرؤية كل بقعة في العراق، العراق جميل جدًا، أنا أشفق على من ليس عراقيًا على كل هذا الجمال الذي يفوته.

تنهد وهو يتذكر كيف صار العراق الآن، وأخذ يقلب في الصفحات، ومن دفتر إلى آخر، وراح بين الحبر والأوراق، ونسي ما كان وما سيكون.

• • •

طرقت بقوة أكثر بعدما تريثت طويلاً تنتظر بالخارج كمن يتقلب فوق الجمر، نادته فلم يجب وطرقت بخفة فلم يجب، الشمس قاربت المغيب وهو معزول داخل غرفته منذ أذان الظهر، حاولت القيام بشيء مختلف بغرض إزعاجه، صرخ الصبي باكيًا فأخذته واقتربت من باب الغرفة، طرقت الأواني ببعضها البعض لكنه أيضاً لم يخرج. حتى يئست تمامًا فقامت وجلست أرضاً بجانب باب الغرفة ووليدها بين يديها حتى داهمها النوم، ثم عادت لتستيقظ على يد تطرق فوق كتفها، فزعت بادئ الأمر لكنها لما تبينت وجهه الذي دنا منها ارتاحت وقامت واقفة أمامه:

–ماذا كنت تفعل كل هذا الوقت، لقد شغلتني عليك؟

ابتسم لها قاصدًا، وليس صدفة تلك المرة، ورفع خلف ظهره حقيبة دُهشت لرؤيتها، قالت:

–ما تلك الحقيبة، أين ستذهب؟!

حوط وجهها بيديه، كانت تقف في مواجهة له شبه ملتصقة به، والصغير نائم بين يديها، وهي ترفع وجهها لتنظر إليه من أسفل إلى أعلى، قال:

–فاطمة.. أنا آسف.

وأنزل كفيه من على وجهها ليطوقها حتى التصق الصغير بصدره، أمسك بذقنها يتحسسه ويرفعه فارتبكت لمّا مال بوجهه نحوها، ولمّا التصق بها أغمضت عينها وتاهت، كانت حقاً تائهة على قدر اندهاشها مما يحدث، فقد كان علي بالنسبة لها زوج، لم تعتد منه إلا تقطيب الوجه والجفاف وألا يرد حديثها بحديث، حتى ولده لا يمسسه ولا يتجاوب معه ولا يلاعبه وهي قريبة.

انحنى بخصره حتى نفاها فيه، وأحكم الإمساك على خصرها حتى أفاق الرضيع وبكى، وهي كانت بعيدًا، لا تكاد تصدق أنه بهذا القرب، فقط أغلقت عينها واستسلمت، بلا سؤال ولا استفسار، كانت تريد أن تعيش اللحظة كما هي، فربما لن تحظى بهذا الشعور معه بعد الآن.

ابتعد عنها وسلب من بين يديها الصغير، لثم جبينه وكانت هي تعاني من خدر أثقل جفنها، تستشعر الخمر على شفتيها، تحسست شفتيها وكأنها تستلهم وجوده هنا لأول مرة، وعندما أفاقت وجدته يبتسم من جديد، أغلقت عينيها وفتحتها لعله حلم، فما سبق منذ زواجهما أن ابتسم في ذات الشهر مرة واحدة، وها هو يبتسم لها في ذات اللحظة مرتين. أعطاها الصغير وقبل جبينها وهم نحو الباب، هدرت خائفة:

-أين تذهب؟!

ابتسم.. وغادر.

سكنتْ لبضع لحظات حينما بقي صوت الباب الحديدي المزعج الذي تركه وخرج، وحين تقدمت نحو الغرفة فوجدت أرضيتها مبعثرة بالكتب والأوراق. جلست بينهم تستطلع ماهية تلك الدفاتر فبكى الصغير لما انحنت، وقلبت هي بين يديها الأوراق وقرأت في بداية أولى صفحات إحدى الدفاتر بحبر لم يجف بعد: "تعلمت أن التدوين والهروب والشكوى للأوراق لم يعد أيٌ منهم يصلح لي، ولما قرأت بين أوراقي وحديثي عما كانت العراق قديمًا وما آلت إليه، عز علي أن يكون الجبن دوري والخزي رفيقي، قررت أن أفعل شيئًا مختلفًا، فزوج ماريا لم يكن يومًا أفضل مني، أعلم أنني الآن أب وزوج وأن ماريا وخالتي صارتا ملزومتين مني، وأعلم أن العراق أيضًا ملزومة مني، أعلم أنني سأقف أمام الله وسأحاسب لو اختبأت، وأعلم أن ولدي سيكون فخورًا بي لو ساندت العراق في أزمته بدلًا من أن أختبئ لأربيه، أعلم أن الهوان والذل الذي يلحقه الاحتلال ليس دائمًا، وأن عقدة النقص التي أتت بأساطيلهم إلى بلادنا ستغور يومًا ما، وكل مناي قبل أن أهب نفسي للعراق أن تسامحيني يا فاطمة فور قراءتك لهذا الحديث، وأن تخبري الصبي أنني ذاهب لتنالني العراق، حتى ينال هو من يحب".

تركت هذا الدفتر وأمسكت بغيره، فتحته على أول صفحاته وقرأت فيه:

" وأنا يؤلمني أن أردك.. ويؤلمني أيضًا أن أخبرك أن ابنة خالتك زفافها الثلاثاء القادم... ويؤلمني أيضًا أن أخبرك.. أنه من دواعي سروري أن تحضر!)

(لتنال من تحب، يجب أن تنالك أولًا العراق..)

وقفت أمام الأحرف تتبع الكلمات المرصوفة فوق السطور بخطه المنمق، تذكرت رسالته قبل قليل، وتذكرت احتضانه لها.

• • •

في باحة المنزل الخارجية جلست تنتظر، والصغير أمامها يحبو على كفيه وركبتيه، كان خمريًا بعينين رماديتين وشعر بلون العسل تمامًا كوالده، ثم ما لبثت حتى دخلت عليها ماريا بكوب واحد من الشاي يخص الضيفة، تبادلتا السلام بنظرات مرتبكة، وجلست ماريا أمامها وفاطمة تحييها.

ارتشفت عدة قطرات من كوب الشاي، كان الصغير يزحف بعيدًا فأمسكت به تجذبه بجانبها:

-أهلًا بكِ يا أم حسام.

-أهلًا بكِ أنتِ.

ارتشفت مرة أخرى من الشاي ولم تكمل.

-حسام، ما شاء الله.. عيناه حلوتان، ربي يحرسه.

-يشبه أباه.

-الله يرده.

نظرت لها فاطمة يائسة، وماريا كانت تهم بالحديث لكنها تراجعت، نظرت نحو الحقيبة الممتلئة بجانب فاطمة فسألتها:

-ما هذا؟!

-هذه كتابات علي.. أغلبها عنكِ.

ارتبكت ماريا فارتشفت مرة أخرى من الكوب، وأخذت وضع التأهب للحديث، لتقول:

-منذ سافر قبل أربعة أشهر وأنا وحسام نعيش كالأيتام من دونه، لم يأتني ولو مرة واحدة حتى أطمئن عليه، كلماته كانت كفيلة بأن أعرف أنه ذهب كمن سمي حسام على اسمه، كان قريبًا له على ما أعتقد و...

قاطعتها:

-حسام عمه، وعلي يريد أن يجعل حسامًا ولده فخورًا به كما هو فخور بعمه الذي كان يومًا من الأيام محاربًا، مات على حدود العراق أيام الحرب مع إيران.

زمت شفتيها ثم تنهدت:

-على كل حال.. كان يبدو أنه يحبك كثيرًا.

أمارات وجهها قاربت البكاء، حينئذ أخرجت فاطمة من الحقيبة التي بجوارها دفترًا وناولته لها على صفحة معينة:

-خذي، اقرأي هذا.

أمسكت ماريا بالدفتر.. وقرأت:

"تشبهين أنتِ يا ماريا بغداد، صلبة، آسرة، تشفق قليلًا وتحنو كثيرًا، أرضها مقبرة لمن يعادي، ونهرها من أسرار الخلود، وطينتها ليست من هذا الكوكب، صارخة الجمال بقدر هدوء ملامحها، تسقط بالكبوات لأن من حولها لم يعرفوا كيف يقدرونها، أحبكِ ولا ينافسكِ في قلبي إلا هي، بغداد منحتني حبًا نادرًا يا ماريا، وأنت أيضًا. ورغم أن الزمن كتب الفراق بالحبر

في دفاتر كل منا، فإنه كان علي أن أنفذ وصية حسام يومًا ما، كان علي أن أقدم نفسي ثمنًا لثوب العراق البهيٍّ، أن أفنى فيها حتى ولو اضطررت إلى ترك وليدي وزوجتي وأنت يا ماريا.. لأجل العراق".

-ترك تلك الرسالة لكِ، وكتب مثلها لأمه رغم وفاتها، يبدو لي أنه كان يفكر في هذا الأمر منذ فترة.

لكن ماريا لم تحتمل الصمود، وبكت:

-أنا وعلي كنا نحب بعضنا البعض منذ كنا صغارًا، لكن والدي لم يوافق على زواجي من مسلم، وزوجني رغمًا عني من فاضل زوجي، لكن فاضلًا أيضًا كان مجبورًا هو الآخر، ولم يمضي على زواجنا عدة شهور ورحل في بدايات الاحتلال، رحل حتى دون أن يترك رسالة كالتي تركها علي، والآن علي أيضًا يرحل، ويتركك ولدك.. ويتركك، ويتركني بلا معين.

لم تكد تكمل كلمتها حتى كُسر الباب الحديدي الذي يستر المنزل، كان الذي كسره عسكري أمهق من جنود الاحتلال يمسك بين يديه بندقية والشرر يتطاير من عينيه ومن فوهة بندقيته. تقدم وجلاوزته تبعوه، أمر أحدهم بالانقضاض على الصغير، والآخر على فاطمة، وأمسك هو ماريا من شعرها غير عابئ بصراخها وتوسلاتها أن يكف، وأخذوهم وألقوهم بسيارتهم السوداء المرتفعة.. وخرجوا وتركوا الباب ومزلاجه الحديدي يصدر ذات الصوت الذي لم يعد يزعج إلا الفراغ.

• • •

السجن العراقي "أبو غريب"، بعد ثلاثة أيام.

غرفة مظلمة قذرة أكلت الرطوبة أطرافها، وماء مثلج يملأ الأرضية زيادة في التعذيب. الغرفة كانت بلا نوافذ والنور الخافت من فتحات الباب يؤلم عينها المنهكة، بالكاد رأت ماريا الجسد الضخم من أمامها والمتخم بالملبس العسكري، أما فاطمة فقد أثقلها التعب، والدماء

المكدسة فوق عينيها حجبت رؤيتها وضاعفت الألم، وحسام ملقى فوق الماء بوجه دام وجسد محموم، انفرج باب الغرفة عن ضوء بعيد قذف الرعب في قلب ماريا التي رأت أمامها جسدًا ضخمًا آخر يرتدي الزي ذاته، وابتسامته اللزجة تبتلع شفتيه، اعتدلت وانكمشت ووكزت فاطمة حتى تفيق، ولما رأت الأخيرة ذلك الجسد فزعت أيضًا عندما أشعل الضخم مصباحًا في أعلى الغرفة، نظرت كلٌ منهما إلى جسدها بذعر، كانتا شبه عاريتين، بالكاد يستر الجسم بضع خرقات ممزقة ملطخة بالدماء. ولولت فاطمة وهرعت إلى صغيرها تقلب فيه، كانت إغماءته عميقة، والكدمات على وجهه وأنفه أبرزت الحقد الذي واجهه، نظرت تلقائيًا نحو الجسد الضخم فرأت ضحكته تزداد عندما قال بلغته:

–لا تقلقي، هو مرتاح الآن، لكني حقًا لا أستطيع أن أعدك أن يفيق.

تفلت فاطمة في وجهه عندما اقتربت وصرخت فيه باللعن والسباب، أمرته بالابتعاد عندما أحكم قبضته على ذراعيها.

–سؤال واحد وسترحلين، زوجك يشارك في مجموعة ممن يسمون أنفسهم المقاومة، أريد أن أعرف أين أجده الآن؟

–أنا لا أتحدث لغتك يا حقير، ماذا فعلت بولدي، وماذا فعلت بي؟!

–لم أفعل بكِ بعد، تحدثي جيدًا حتى تخرجي من هنا حية.

أجهشت في البكاء بينما جلجل صوته ضحكًا، تركها واقترب من ماريا:

–وأنتِ؟

–ابتعد عني.

قالتها بلغته فتبسم بلزوجة، وقال:

–تبدين رائعة بهذا الرداء الشفاف.

–قلت ابتعد عني.

رفع يده وأمسكها من شعرها:

-لا أعلم كيف يذهب ويهجرك لشيء تافه كالذي يسمونه تحرير ومقاومة ومثل تلك الترهات.

تحسس وجهها فانكمشت، حاولت دفعه بعيدًا لكن قوتها التي خارت لم تنفع أمام ضخامته، كادت تبكي إلا أن فاطمة قامت ودفعته بعيدًا ثم انقضّت عليه لكمًا وسبابًا، ولم يمضِ سوى عدة ثوانٍ حتى جاء صاحبه وطرحها أرضًا ليقيد رسغيها. قال صديقه الثاني:

-أيتها المتهورة!

لعنته وصرخت فيه بالابتعاد كلما اقترب.

-لا تخافي، سأتركك لبعض الوقت.

ثم استدار نحو ماريا:

-أنتِ من أريد.

وحينما مال بجذعه فوقها صرخت، وحينما جردها مما تبقى من ملابسها صرخت، ولما انحنى فوقها وقيدها بكت واحترقت، نادت عليًا وصرخت باسمه، وكذلك فعلت فاطمة المقيدة أرضًا، وماريا كانت تعاني سكرات أقوى من سكرات الموت، خرجت منها الأنفاس كأنها لهيب يقلبها من فوق فوهة جحيم، حتى تلاشى صوتها المسكين تمامًا. سرح بيديه وجار على جسدها الذي أُنهكته الكدمات المتفرقة في شتى أنحائه في الليالي السابقات الثلاث، حاولت أن تتملص منه بعيدًا لكن الضحية كانت ضعفية ومحتلها كان دنيئًا، انقضّ فوق جسدها وقيدها، وهي لم تجد مناصًا منه ولا معينًا، استجارت بالمعين الإله من فوق سمائه وبالعذراء أن تنجيها، تمنت الموت كما فعلت العذراء في عقيدة فاطمة الطريحة بقربها. تمنت ألا تولد من الأساس، ولعنت اليوم والساعة والأيام، صرخت فاطمة أيضًا وسالت دموعها، شعرت بغليان دماغها، وعينها مثبتة فوق ماريا التي رفست طويلًا وقاومت وسبت وانتفضت، كانت تسألها الصمود، وعندما توقفت تمامًا وسكنت.. سكنت فاطمة أيضًا.

قام عنها ليتركها جسدًا خاويًا، جفناها كانا منقبضين وبؤبؤها تثبت على فاطمة ونظرة التشبث آخر ما شَهَدَ، أطراف أناملها كانت ترتعش، وجسدها العاري أخذ في الانقباض، ودموعها السائلة لم تتوقف. فاطمة التي كانت ملقاة بجانبها هرول قلبها بداخل صدرها وارتعشت، اشرأبت لتطل على ماريا فوجدتها ساكنة تمامًا إلا من جفن يرتعش، كان يعدل هندامه وماريا وكأنها تيبست، رأت فاطمة عيونًا تنز دموعًا بكماء وصدرًا يعلو ولا يهبط، ونظرة حادة تجمعت الدموع على حوافها، رأت جسدًا متحجرًا جلموديًا، ماريا لم تجد في حلقها طعمًا إلا العلقم وقطرات من سُم زعاف ينبع من أعماقها. ثم أمسك جسدها رجفة لما رأت فاطمة تبكيها، وعافرت ماريا لتحرك قطع الزجاج المشقوق في عينيها لتلقي بنظرة تحذير لفاطمة التي كانت مشدوهة بها لكنها فشلت، ولم تفِق فاطمة إلا على صوت صراخها هي، حينها رأته ماريا يخلع زيه من جديد، لكنه تلك المرة كان يقف أمام فاطمة التي انتفضت هي الأخرى وجاهدت لتحرك جسدها الموشوم بالسياط، والصغير كان بالقرب من قدميها التي انتفضت في صدر الصبي الذي أدركت موته، ولم يتبقى بالغرفة ما يشق سكونها إلا صراخ فاطمة، وكل دمعية غطت وجه ماريا، وضحكات المحتل الحسيل صارعت صرخات فاطمة والسكون.

وفي مكان آخر في الليل البهيم، اختلى علي بأوراقه بعيدًا عن عيون رفاقه، وكتب:

"أيها النجم الساطع اللامع في السماء، ستظل ترافقني من اليوم وحتى الغد، وستخبر أحبائي وتزُف لهم خبر الرجوع، غدًا أراك يا حسام ويا فاطمة، وأزورك يا ماريا، غدًا سيحول المحاق إلى بدر.. اليوم نجحنا في قتل أربعة عساكر من جيوش المحتل، وغدًا أرافقك يا فاطمة لننير المشعل سويًا ونلاعب الصغير، وأخبرك عن شوقي وأخبر ماريا، غدًا أخبركم عن تنفيذي لجزء من وصية حسام حتى يظل حسام الصغير رافعًا هامته إلى السماء فخورًا بأبيه، غدًا.. وإن غدًا لناظره قريب".

•••

القنديل الذي تهشم

يومها . . أزحت الكتاب قليلاً، لم أستطِع أن أغلقه لفرط ثقل غلافه وأوراقه أو ربما الأمر عائد لوهني أنا الخاص والمستفحل، كان القبو منيرًا ببقع الأشعة التي تتسرب من بين ثقوب الباب الحديدي، حاولت النهوض عازمًا على الخروج، لكن أصوات الباعة والمقهى والغادين بالطريق حثتني على البقاء .

وقتها؛ لم أمتلك حقًا جوابًا معينًا من نفسي على ما كنت أقرأ منذ قليل، لم أملك حتى القدرة على تفريغ شحنة الضغط العالقة آثارها بقبضتي المغلقة بالأحمر المتجلط . كان جسدي ملقى بجانب الباب الصدئ كهيئة لبهيمة دائخة نزعت عنها الغشاوة للتو، حينها أدركت أن للحياة جانبًا آخر غير الدوران في ساقية تسقي أرضًا عريضة جوعى لا ترتوي، يتسيدها إقطاعي دنيء ويقود الساقية مُزارع لا يعنيه إلا در الماء ليرضي سيده، فغمّى البهيمة منذ مولدها وساقها حتى نسيت أن لها عينين، ظلت تسير في الطريق الذي لا ينتهي على أمل الوصول، ويوم سقطت ولم يفلح معها التعنيف أو العلاج، ألقيت مع العجزة من أقرانها تستعد ليوم الذبح، بضع ساعات أو حتى أيام كانت تفصلها عن نهايتها الحتمية، تلك المدة التي انتظرتها بعد نزع الغشاوة وحتى الطريق إلى صخرة النحر، كانت وقتي الذي أقضيه ذاك اليوم في بيت القصيد .

تمددت وساقي أمامي حينما ارتقت يدي تتحسس آثار الحمى من جديد ، حاولت التمدد أكثر ليغافلني النوم لكن رأسي التي ارتطمت بصفحات الكتاب أبت أن تحيد عنه، فارتكزت فوق إحدى صفحاته العتيقة، وعلى رائحة الزمن التي انتهكت أنفي غفوت، لم أرَ وقتها غير اللوحة المزخرفة في أعلى السقف، لم أتبينها رغم قوة ألوانها ، كانت تائهة عني وكنت بعيدًا . . بعيدًا جدًا .

• • •

لم أدرِ المدة التي دفنت بها رأسي بين الأوراق، لكني عندما أفقت وجدت رغبة عارمة في التنفس، بالبداية وجدتني لا أعرف كيف أفعلها، فكرت لثوانٍ لو أن الله ترك لنا أمر أنفاسنا، كانت أمي شُمَيّسة تقول دائمًا: "كنا ما وجدنا وقتًا للعمل ولا لأي شيء وتفرغنا لشهق الأنفاس وزفيرها حتى متنا من الجوع والسهر".

اعتدلت حتى بدأ التهدج يختفي، نظرت من أسفل باب القبو، كان النور الخافت ضئيلًا، علمت أن الغروب قد حل، وانتني فكرةٌ فتحاملت على ذاتي حتى قمت، حاولت رفع الكتاب لحمله معي لكن ذلك بات مستحيلًا فاكتفيت بحمل نفسي وأنا أرفع القدم عن القدم كمن يرفع شكائر قطن من يم عميق، ارتقيت السلم درجة درجة حتى وصلت بعد رحلة شاقة إلى الطابق الثاني، تقدمت بوقع ثابت حتى الشرفة حتى أصبح لا يفصلني عن زجاجها المزخرف سوى بضع أنفاس ساخنة، تابعت توديع الشمس لأرض الحي بأكمله لأكثر من عشر دقائق على حسب تقديري، حاولت التقدم أكثر لكن الفكرة سريعًا ما صُرفت؛ فاكتفيت بالتحديق إلى اللون البرتقالي يمتزج بالأحمر الذي جذبه إلى أسفل برقة النجوم، والقمر كان يطالعهما عن كثب ويبتسم، بقربي، لم يكن أيٌّ منهما يعلم أن طفلًا يافعًا يحملق لتجلياتهم في لوحات أعظم رسام في الكون، بل هو من رسم الكون بأسره. ثم احتضن الأحمر البرتقالي وقبله واختفيا مع الأفق البعيد، ولوحت النجوم ورؤوس الجبال تودعهم حتى حل الليل، وجهزت ثلاث نجمات وديعات العرش ليتوسط القمر كبد السماء في محل حبيبته التي لم يكتب لهما اللقاء، وأنا كنت أتابع، حتى إذا ما انتهت الحوريات من اللعب بالسحاب. هبطت إلى القبو، وأشعلت القنديل من جديد، تلمست الكتاب على ذات الصفحة التي تركته أمامها، كانت تحمل عرقي في محل نومي، واختلطت حبات العرق برائحة أوراقها لتملأ المحيط بعطرها الخاص، المشابه تمامًا لكل شيء حولنا، كان هناك العديد من صفحات تحمل السطور الأولى منها أسماء بلاد قديمة هي نفس أسماك ضِياع بلدتنا الآن، لم أكن أريد أن أكمل، لقد تحملت بما فيه الكفاية الحديث عن الألم وأصحابه وحكاياتهم التي زادت حُمتي وأوجاعي، قلبت الكثير من الصفحات لعلني أجد شيئًا غير قصص الدمار والمعذبة أرواحهم حتى وجدت صفحة نُقش في محل عنوانها، قرأت الخط العريض في أعلى الورقة:

"القنديل الذي تهشم". تعجبت من سخرية القدر، هل يعرف هؤلاء أن قنديلي الذي فقد توهجه القابع بجانبي قد نجا من سقطة كادت تودي بعمره الليلة الماضية!

لم أكترث كثيرًا ومضيت مع الكلمات. . .

هل أنت على مقربة منا الآن؟! هل بدأت تستوعب ما نريد أن نشرحه لك؟ الأمر أبسط حتى من شرحه.

قبل أعوام طويلة من العام الذي تقرأ فيه هذا الكتاب، كان في تلك البقعة التي تسكنها وطنًا أوسع من خيالك الضيق، ولا عيب فيك إن كان ضيقًا، نعم نعلم على ماذا تربيت وأين، تسكن جحرًا يسمونه منزلًا! في مكان ما يسمونه وطنًا أو "ضيعة" وما هي إلا قطعة أرض بنيت فوق خراب، كل هذا تضمه حدود واهنة في شيء أوسع بقليل من جحور الفئران يطلقون عليه "الحي" ولا يكملون، نعم اسمه حي. نحن أسميناه الحي. . الحي المقصي. . الحي المقصي؟!

تسأل عن الاسم الغريب خصيصًا في أولى المرات التي تستمع فيها إليه؟ نحن أشرنا في اسمه الجديد إلى ما آلت إليه الأحوال. "الحي" تعبيرًا عن الوطن الذي تقلص، و"المقصي" وصفه الجديد، لم يعد بلاد العلماء والشرق، صار مجرد أشلاء من قطع أراضي متفرقة لا يساوي أكثر من حي، قادته الحرب إلى السفر عبر الزمن لقرون مضت، فأصبح مقصيًا عن العالم ومن حوله. وأهله؟ بربر متناحرون تركوا الوجود يبرق والعالم يمضي نحو المجد والعزة، وبقوا هم يتنافسون من أحق منهم ومن أفضل، ومن الأشرف ومن ومن ومن ومن ومن! والعالم الذي شجعهم حتى يضيعوا ويتخلفوا، ضحك ضحكة ساخرة طويلة تقدر بالعقود، وهو يمضي إلى الأمام تاركًا بواقيهم من البيوت ومخلفات الأرض المحترقة والعرايا من نسلهم مذعورين فوق النار. . فوق الجثث. . فوق المهدم، وفوق كل شيء.

وكلما عدت مع الزمن إلى الوراء رأيته يتسع أكثر، هل ترى ذلك الآن؟ نعم نعم مملكة كالتي تصورتها، لكنها أوسع كثيرًا حتى من تصورك، كانت شاسعة لا تكاد تصل سنابكها ببعضها البعض، شامخة وقوية، أمة أوسع من أي وصف وصفوها به، ثم بتقدم الزمن وتعاقب الناس

واختلاف العادات، تقلصت. تسأل عن السبب! ما عليك إلا أن تلقي نظرة على نفسك ومن حولك وستعرف بالتأكيد.

لقد حكت لك أمك بالتأكيد عن نصر بلدتك في كل شيء، وتفاخر والدك بانضمامه لجند الجيش يومًا ما، وإذا ما تذمروا يومًا لاعنين خطأً ما بها وبأنظمتها يلحقون كل البلاد الملاصقة لبلدتكم بذات اللعنة، لا تعرف لماذا! ولكنهم يفعلون ذلك عن طيب خاطر مطمئنين معتقدين أنه عين الصواب في حين أن البلاد المجاورة لكم يلحقونكم بذات اللعنة حينما لا يرضيهم أمر في بلدتهم، وعلى هذا تجري الأمور إلى ما لا نهاية.

إن أهالي بلدتك الكرام ينتشون بالكراهية.. يرضيهم الرقص فوق هفوات الآخرين والإشاعات المروجة ضدهم، يقودون بعضهم البعض للسقوط بهوة الخطأ لتبدأ ألسنتهم السليطة في البلبلة وتوزيع القمامة، مشكلاتهم دائمًا لا تتخطى حدود أراضيهم، تمامًا كالطفل الأهوج، يضرب أخاه بلا جريرة ويضحك، ويصفه بالأحمق ويأمره بمشاهدته وهو يضرب ولد الجيران ولكن ولد الجيران عندما يمرغ وجهه في الطين والحصى يقوم ينفض التراب عن وجهه ويعود ليضرب أخاه لأنه لم يساعده.

هكذا هم أهل مدينتك البائدة، هم أيضًا كانوا قبل عقود طويلة، كانت بلادهم الواسعة لها اسم كما الفيروز على نحر بدوية بلون الخمر، جيوش وأهالي وأرض وأوطان، أرض لها حكام وباعة على الطريق، علماء ومساجد وأروقة كنائسية عتيقة، أنهار تجري هنا وهناك، فرات، ونيل وبحور سماوية وخلجان مفروشة بصخور الورد، سمراوات صغيرات وفتيان بعيون كحيلة، أخمرة طويلة وشامات على الوجوه، مقاهي الشاي وجلابيب النساء، الشعور الطويلة البنية، الشفاه الغليظة التي قبلت هذا التراب في كل حرب، مقاتلون قطعوا الوعود بالفوز أو الشهادة، يقفون. ينزفون دماءهم وينحرون رقابهم بسيوف المحتل فداء لابتسامة الوطن الحر، لطالما تشبعوا من المجاعات فداء هذه الأرض، هم وحدهم فعلوا ذلك، وشب الطفل في مهده على عادات الدم الحار، وأغنيات السمر على الحدود مع رفقاء ساحة القتال، إخوانهم على الحدود الأخرى وهبوهم قلوبهم حتى ينالوا الاستقلال، كانوا قديمًا لا يقيمون الأوطان على أغلفة الكتب وأعلام الجامعات، بل كانوا يقيمونها في قلوبهم حية لا تموت، كانوا يقيمون الأوطان حتى لو طغى الجوع

والنزاع، ويستغفرون الله أيًا كان الدين ويرجونه الرحمة والسلام واتقاء الفتن، ولكن من يوم أن سلبت منهم الأرض، بدأت الأصوات المنكرة تتعالى.

رغم عاداتهم الشرقية التي يفتخرون بها فإن عرق العجرفة في دمائهم قادهم كثيرًا إلى الجنون، اثنان وعشرون دولة، على مر الزمان كانت المصائب تلاحقهم لا لشيء أكثر من غربتهم بين أنفسهم، بلدة منهم يصيبها الجوع والفقر، يظهر في بادئ الأمر أن القلوب تتهافت لمساعدتها، وبمرور الأيام يتخذ الأمر الصورة الروتينية، لا يصبح الاكتراث لمثل هذه الأمور هو مركز الأحداث وينصرف كل إلى مصيبته الخاصة حتى تطمر قضايا الجوع والحرب، ويبقى الجرح مفتوحًا في أجساد أهله، لا غيرهم.

لكنها يوم أن سقطت، كان الأمر أكبر من مجرد تدارك، كان المخطط لإسقاطها أقوى منها وحدها، تطلب الأمر أن يبقى الجميع جنبًا إلى جنب معها، لكن هذا، لم يكن حاصلًا.

فلسطين.. هكذا يلفظونها، بلاد المسجد المقدس وحائط بُراق الرسول، وطريق الآلام، بلاد المسيح والعذراء ويحيى الذي نحرته باغيةٍ ردعها عن الذنب والمعصية ولم ترتدع، فأقسمت بجسدها الملعون أن ترقص عارية احتفالًا برأسه المقطوعة، وفعلت.

وبعد ألف عام أو يزيد أتى قومها على الأرض التي دفن في باطنها رأس يحيى الرسول، أتوا كما الأكلة يعسكرون على الأرض المقدسة ويقسمون أنها بلادهم، وبالعدة والبنادق والأموال سرقوا الأرض، تطلب الأمر أن يبقى العرب إخوانها إلى جانبها، لكن نزاعاتهم المضنية شغلتهم عنها، وبقت وحيدة ومسروقة، انتفض أهلها يومًا بعد يوم، وخلعوا المعاطف ليستقبلوا الرصاص وعانوا الغدر بشتى أنواعه ليفيقوا يومًا فيجدوا أنفسهم مسجونين على بقعة أرض داخل بلادهم، سألوا عن البقية فأجيبوا أن العالم أجمع على أن تلك البقعة هي حقهم، وبلادهم!

لم تعد كذلك بلادهم، قُسّمت ليصبح اسمها وأعلامها وشعاراتها عكس ما كانت، والعرب ماذا فعلوا؟ لا شيء.

الأمر قضى وقتًا طويلًا يدور في ذات الدائرة اللعينة بلا فائدة، وقضية الأرض المحتلة احتضرت في صمت حدادًا على أروح كل من قتلهم الرصاص أو انتظار العرب الفاتحين، ويومًا ما

صرخت جارات فلسطين ليخرج كلُّ مكنوناته، الثورة كانت جذوة انطلقت تأكل كل ما في طريقها بلا ارتواء ولا هوادة، واعتقد أهالي تلك النواحي أنهم حققوا النصر المنشود على فساد بلادهم الذي حققه بالأساس صمتهم المقيت، وبين ليلة وضحاها صورت لهم عقولهم أن إنقاذ الأرض المحتلة بات قريبًا جدًا، وهكذا مضت الأمور حتى وقعت الطامة الكبرى وأصابتهم جميعًا حالة الرتابة بعدما اكتشفوا أن ثوراتهم لم تجلب لهم إلا دماءً وقتلى على أرصفة الشوارع، الأمر يومها كان هزيلًا جدًا رغم عظمته في أعينهم، لم يكونوا على علم أنهم سيتعايشون مع ما هو أبشع من ذلك، ذلك لأنهم تذمروا من المشكلة وقصدوا التجاهل التام لأسبابها، ربما لأنهم عالمين تمام العلم، بأنهم كانوا أسبابها الرئيسية. وانقضى الحال مدة على ما هو عليه، ولفترة طويلة حتى عام ٢٠٢٦ كانت حُلة الرتابة والفتور أكثر ما كسا عقولهم، حتى نهاية ذلك العام، عندما نشب خلاف بينهم على أحقية الفوز بالريادة، تسمع هذا الشيء اللعين للمرة الثانية على التوالي وتسأل، ما هذا الشيء الذي لا ننفك نتفوه عنه؟!

إنها سر جهنم، الريادة كانت الكلمة التي تتقدم كل أحاديثهم ولو لم يتفوهوا بها، هي قوت الشعوب العربية، يسمعونها فيغمضون أعينهم فرحًا منتشين بأنهم ما زالوا يتصدرون قائمة ما، ليس المهم أي قائمة، المهم حصولهم على رقم واحد، كل العرب كتبوا في صحفهم وجامعاتهم أنهم رقم واحد، وإذا ما تطلب الأمر مناقشة مع بقية الدول، كان الجميع يتجنب الحديث عن مثل هذه الأمور متشدقين بالإخاء بين أفواههم في اجتماعاتهم العريضة، تلك الاجتماعات لم تكن تمثل أهمية كبيرة لمن يتواجدون فيها، فولي الأمر العربي لا يكترث لمثل هذه الترهات الفارغة، الأرض والريادة أمور لا تعنيه شخصيًا في شيء، تعنيه فقط في إثارة روح الشعوب الجاهزة للاشتعال. خاصةً الطبقات الأدنى منهم، الفقر وما أسفل منه، تلك الطبقة فقدت كل ما يمكّنها من إدراك الحياة والإيمان بالأفضل فيها، ولم يتبقَ لهم إلا التشبث بلواء الوطن الذي كسر ظهورهم لكنهم ما زالوا يتمسكون به وكأنه ختم الشرف لإحدى عذراواتهم، تأكيدًا على أنهم ما زالوا أحياء ولهم أمل في تلوين الغد القاتم، كانوا يتشدقون على الشاشات ومن خلفها وعلى أغلفة الصحف وبداخل المنازل العتيقة، يلقنون الطفل بين ألعابه والرضيع في مهده أن بلادهم وحدها تستحق أن يفخر بها، وأن العالم المحيط بهم لم يكن له أن يبقى وينتصر إلا على قواعد أسستها

بلادهم قديمًا، مع أن ألسنتهم لا تجرؤ على التفوه والتقول خارج البلاد التي تحيط بهم، بلاد العرب، أما غير ذلك! لا يجرؤون على المقارنة والتهكم وتبادل الاتهامات، بل لا يجرؤون في أكثر الأحيان على المطالبة بالحقوق، بنفس منطق الطفل البغيض، يسخر من أخيه ويضربه ولد الجيران ويعود ليضرب أخاه لأنه لم يساعده، وعندما يسخر الأخير منه لأنه استهزأ به من البداية يعود ليتفوه عليه بالسباب ويتهمه بأنه ناكر للجميل وخائن للمعشر.

تلك كانت قصتهم، قصة مؤثرة حقًا تدنيك قربًا من عقولهم، عقولهم التي عجزوا هم أنفسهم عن تحديد أنماطها والطريقة التي تنتهجها في الحياة، ونحن على ثقة أنك لا تندهش الآن، ربما لأنهم لم يختلفوا أبدًا، قديمًا . . والآن.

لكن في ذلك العام (٢٠٢٦) قرروا النقاش. مدعين أن الرائدة منهم ستقبض بين يديها زمام جيوش العرب لتحرير الأرض المحتلة، لم تقُم الكلمة من تلقاء نفسها، بل إن الأمر لم يتعدَ زيادة بطش المحتل، وتضييقه الحصار زاد حتى صار الزحام يقتل الناس كما تفعل البنادق والرصاص، فاستغاثت الأروقة المقدسة كما تفعل دائمًا، لا تفهم ما الذي دعاهم ليلقوا لها آذانهم تلك المرة مع أنهم أعلنوا من قبل أن الصمم علتهم الأم، تحسب الأمر كله كان مزحة سخيفة، لكنه بين ليلة وضحاها صار جديًا، الشعوب ثارت. بل قل جلجلت تطلب الدفاع عن حقوق الدماء العربية، بالحقيقة الشعوب لم تثر جمعًا، بل ثار كل شعب على حدة. لا لا، الحقيقة أنهم لم يثوروا جميعًا، بل هم قلة فقط في كل بلد، حتى إننا نذكر أن هناك بالفعل أصواتًا نادت ذلك الوقت بعدم الاكتراث لصرخات القدس وأهلها، مدعين أنهم ليسوا مدينين للقدس بشيء، ولا يجبرهم شيء حتى تشن بلادهم حملات لإنقاذ المنكوبين، وأن على المتضررين تحمل مشاكلهم دون إزعاج جيرانهم بها، لكن على أيه حال اتفقت بضعة دول على إقامة "اجتماع" من اجتماعاتهم المعتادة، للنظر في أمر القدس. . وفلسطين، ونجدتها . . .

الاجتماعات لم تفد بالكثير، مجرد غثاء بين قاعات وثيرة لا فائدة منها ولا عائد، الاجتماعات قامت، الاجتماعات أسفرت عن، الاجتماعات حددت وناقشت، الرئيس قال والسلطان ناشد، الملك قرر والأمير شدد، ولا جديد. شهور تتابعت بلا فائدة. . الشعوب ثارت من جديد تطلب من السلحفاة العربية أن تتزحزح، بالقوة، بالقلم، بالتهديد، بما يشبه الثورة،

قامت الجيوش تحاول نجدة الأرض المحتلة، الشعوب فعلت ذلك ليخلد كل منهم اسمه بقطرات الذهب على صفحات التاريخ، البلد الفلانية فعلت، البلد العلانية انتشلت الأرض من الاحتلال، نحن أقمنا نحن فعلنا، نحن، نحن، أنا . أنا . أنا . الفردية سمتهم الأعظم، يستمعون لقصة النعجة التي أكلها الذئب ويسعدون معتقدين في قرارة أنفسهم أن أكل الذئب للنعجة وحيدة وشهرتها ونسج القصص حولها والأقاويل حول حكاياتها أفضل لها من أن تكون مجرد نعجة في ذيل القطيع، نعم على قيد الحياة، لكن لا اسم ولا ذكر لشخصها البديع، نعم هم كذلك، نعم وخالقهم. . هكذا يفكرون ولو أنكر منهم من ينكر.

الجيوش بعضها سافر، الجيوش بعضها عاد، الجيوش هزمت أول مرة، نزاعات، مزايدات، اتهامات متبادلة وتبجح بلا حياء .

-أنتم فعلتم .

-أنتم هربتم .

-جيوشكم ضعيفة .

-جيوشكم جبانة .

-أنتم . .

-متواطئون .

-خائنون .

-جحيم يلحق بكم النار .

-عار أنتم على بلادكم وعلينا .

ولا جديد .

الجيوش تجهزت من جديد، قرروا تنحية الخلافات بعيدًا، "ولو ظاهريًا" . . الأمر لا يسلم من

بلبلة شعبية بين حارات البلاد من شرقها وحتى الغرب، نصف هزيمة نصف انتصار، مقتولون على ضفاف حيفا وغزة، القنابل أكلت الجيوش مرة أخرى.

-أنتم تدفعون أموالًا بدلًا من الجنود!

-هذا يكفي!

-نحن نموت.

-ونحن نخسر المال.

-جنودنا أم مالكم؟

-من يقدّر يعرف.

ثرثرة، خواء، تبادل للاتهامات والخوض في عرض الأرض على طريقة الفاحشين معروضة على أغلفة الصحف والأرصفة، المحتل يطلب هدنة لتفاهم الجيوش والحكومات على خطة لمحاربتهم! يحتفلون، يقيمون حفلات الرقص على شرف عاهراتهم بوعد أن تطلق أيديهم الناعمة رصاصًا على الجيوش الحائرة، ويحتفلون ببشائر الأراضي الجديدة التي خططوا ليفوزوا بها من جديد.

يحتفلون بالميعاد القريب، بدنو الأجل، بقرب الطريق إلى الأرض المنشودة، يحتفلون بميعاد الهدم الذي بات أقرب من أي شيء.

خواء.. بلبة.. لا شيء جديد. الحرب.. الاتهامات فاقت الحد، واليوم مر بعد اليوم والجنود وصلتهم الأخبار. ثاروا على بعضهم البعض شأنهم شأن بلادهم، كنا منهم، واشتركنا بذات الشجار العقيم، لكن الأوامر أتت من "أعلى" إلى الجميع، أن ليس الآن.

الأمر تداعى، تفاقم، إما تبادل الاعتذارات على البذاءة التي تبادلتها الصحف، وإما فض الأمر برمته، الشعوب ثارت لكن تلك المرة على بعضها البعض، الحكومة طلبت مد الهدنة والشعوب تبادلت العداوة، قالوا من كان السبب في ضياعِ الأرض! تباحثوا والهدنة طالت، ضحك المحتل والأقلام كتبت، كلما سببت أكثر جنيت مالًا أكثر، سب! سب العرب والعن

نعراتهم وخياناتهم. سب واحكِ وقل إن بلادهم كانت وكانت، وكلما سببت أكثر ارتقيت كبطل في أذهان شعبك، سيقولون أنك تعشق وطنك وينسجون حول اسمك قصص البطولة والولاءً.

الشعوب ثارت، المال قطع، الجيوش انسحبت وامتدت يدا المحتل لتنهش مزيدًا من الأرض التي لو استطاعت لانتفضت لتبتلع الجميع.

إحدى الحكومات اعتقلت كل من ينتمون لجنسية بلد دار بينهما الشجار في تلك المهزلة التي أسميت ثورة أو حربًا، لم تدم ولم تكن شيئًا إلا مسرحية هزلية أثبتت بجدارة أن العرب صاروا قادرين كل المقدرة على الرقص كالمهرجين أمام أعدائهم ومن يقيمون الحروب معهم، الحكومة الثانية غضبت، طالبت بالمعتقلين فلم يسمع أحد، ثارت الشعوب، كتبت الأقلام، القشة اشتعلت، البلد الأخرى فعلت بالمثل واعتقلت كل من يملكون جنسية البلد الأخرى.

القشة بدأت تصدر دخانًا.. الشعوب الأخرى ثارت، ضحك المحتل مليًا، شيئًا فشيئًا أُعلنت العداوة، وتجهزت العدّة تلك المرة بكل دقة وانتظام، وكأن الأمر مقصود.

سنحارب من؟! هؤلاء.

خطوة بخطوة سقطنا داخل الهوّة، الشعب بكل أرض صفق منتشيًا وطالب بالنصر، والبعض بكى.. الأقلام كتبت، الحرب قامت؟

بالتأكيد، والتهديد صار واقعًا، الجيوش قتلت، والحكومات نددت، قالوا سنقضي على الخونة لنحيا سالمين.

ماذا حدث؟

العاهرات رقصن.

• • •

الحرب الأهلية العربية

* قائمة منذ زمن، قبل أن يفكروا في تحديد تاريخ معين، ولكنها قامت تحديدًا عام (٢٠٢٧)، ورغم كل الخراب الذي خلفته، لم تنتهِ حتى اللحظة التي تقرأ فيها هذا الحديث.

والآن تسأل ماذا حدث غير رقص العاهرات، وسخرية المحتل ولعنة الأرض؟

تعرف؟ إنه لسؤال مخزي، وإجابتنا ستكون مخزية كذات السؤال، الأمر لم يطل لأكثر من ثلاث سنوات. . ثلاث سنوات كفيلات بأن ينتهي كل شيء.

الجنود تجهزت أيما تجهيز لتجهز على بعضها البعض، نحن كنا منهم، ونقسم أننا كما غيرنا لم نكن نعي ما يدور حولنا، هناك حدث جلل، هناك كارثة حدثت، تساءلنا كيف سنقتل أبناء جلدتنا وقد كنا إلى جوارهم منذ شهور قليلة نعاونهم ويعاوننا على ذل المحتل وقهره، كيف سنشهر السلاح ونضغط الزناد نحو قلوبهم؟

أسألتنا قوبلت بالإهانة. ومن كان يطيل الحديث كان ينزع منه سلاحه الذي يخاف حمله ليدسّوه في حلقه ويضغطون هم على الزناد فيخرس، ويخرس الجميع.

تقدمنا بالرضا، بالتدشين، بالتعنيف وبالقوة، والإكراه.

بلد بعد الآخر تحمس لخوض العراك، البعض مدافعًا عن البعض، والبعض ضد البعض، وبلحظة ما يصبح المدافع عدوًا والعدو حليفًا، البلد الجائعة والبلد المنكوبة انضمت إليها كل البلاد، وحمى الوطيس حتى لم يبقَ للشعب ما يأكله، أرادوا النصر والفخر فلم يحصدوا إلا جوعًا وقتلى.

ويبدو أن الحرب أعجبت الحكام، كانت تكسب أزياءهم نياشين وأسماءهم سمعة، ليس المهم ماهية تلك السمعة، المهم أن التاريخ سيتكلم عنهم، وسيكون لديهم سبب واضح كالشمس

يفسر أين الأموال ولماذا الجوعى، ولما نفدت أموالهم تسابقوا للخارج يطلبون من يمدهم بالمال والسلاح مقابل الولاء وأشياء أخرى!

ويبدو أن العالم المحيط بهم كان طيبًا جدًا، من بعيد كان يقف من يبتسم وهو يمد كلًا منهم بما يريد، كان الشغل الشاغل للكثيرين كيف يهدمون القلعة المحصنة، عانوا من الأمر كثيرًا ولم يكونوا على علم أن أصحاب القلعة يمتلكون من الفطنة قناطير تكفيهم ليفعلوا هم ذلك عن طيب خاطر.

وفعلوا. لم يمضِ الأمر إلا لمحة أمام عين الزمن وكان المجد قد بات خزيًا، وكل شيء تحول إلى رماد.

-وستبقي الوحدة للعرب مجدًا.. والعربي للعربي سندًا.

شعار اندثر مع الأعلام المرفرفة والذين تغنوا بمجد العرب وشرف أن تتحدث بالضاد، شأنه كشأن كل أناشيد الصباح وأغنيات الأوطان، كله فنى.

الخراب وصل عنان السماء، قرى بالكامل حرّقت وطمرت مع السيل، حدث كل شيء بغل دفين وكأنهم حقًا كانوا في حرب مع المحتل الذي تعاون بعضهم أو أكثرهم معه تقديرًا للظروف وبعد النظر على حد تعبيراتهم، وفي لمحة بصر، شاخ كل شيء.. وذبل، وما أبقت الحرب إلا نحن.

كل الحكام، الأمراء والسلاطين، قتلوا، إما بخيانات أتتهم من داخل قصورهم الفخمة، وإما علنًا أمام منصاتهم وشعوبهم التي لا حول لها ولا قوة، ولم تنتهِ الحرب إلا برأس آخر حاكم بهم، ولم ينَل أيٌ منهم أي شيء. في نهاية عام (٢٠٢٧) بقينا نحن وبقعة يتيمة في منتصف الأرض التي سُلبت تمامًا، كان هذا الثمن، فكل من ساهم وساعد بالمال والسلاح كان عليه أن يأخذ مقابلًا، ولكن بما أنه لم يعد هناك من يعطيهم حقوقهم، فقد فضلوا الحصول عليها بأنفسهم لما يرونه من حقوق، والمحتل استطاع أن يملك البيت المقدس ولم يترك لنا من ريح القدس إلا أروقة وباحات قليلة، لنصحو يومًا فنجد أنفسنا بلا شيء تمامًا، عارين.. أراضينا نهبت، وأهلونا قتلوا، وكأن كل ما كان هنا كأنه مجرد حلم أو قصة لا وجود لها إلا في حكايات وكتب عفا عليها الزمن، كنا

قلة مشردة، انفضّ عنها كثيرون هربًا إلى ملجأ من الموت المحتم، جنود ورجال ونسوة ما زال غبار الحرب يلفح وجوههم، أعدادنا لم تكن كثيرة، بضعة آلاف ربما أو أقل أو أكثر، ولكننا لم نشأ أن نهرب كغيرنا للخارج، ليس لسبب معين، فقط لم نرد هذا، أو ربما تسرب إلى أنفسنا ضيق الحال والمأساة لما كنا نسمع من أخبار من هربوا، صاروا خدمًا يعملون بالمنازل، صاروا مشردين، جلسوا على حدود البلاد جوعى ومرضى ينتظرون الإذن ممن ساهم في تقتيلهم لكي ينتشلهم مرة أخرى من الويل الذي عاينوه طويلًا. فقط لم نشأ أن نكون هكذا، عشنا، قررنا أن نتحمل، لم نعلم كيف ولماذا فعلنا هذا الشيء رغم كل حرب كانت دائرة بيننا قبل وقت وجيز، لكننا نجحنا في التعايش، زرعنا بأيدينا وحاولنا تجنب وتخطي كل شيء، نظفنا الأراضي وذاكراتنا من كل شيء، داعين الله حقًا أن يقدرنا على النسيان، تزوجنا وأنجبنا من بعضنا البعض، وكثرنا وكثرت أعدادنا، أسمينا حينا وجعلنا أحدنا مليكه اسمًا فقط لكي يقبل العالم بنا كما يقبل أي جزيرة يسكنها نفر قليل من الناس، رغم أننا لم نكن نعني للعالم أي شيء.. أي شيء حقًا.

بنينا بيت القصيد وأودعنا فيه أسرارنا، حكينا لنسلنا الأول عن قصتنا وأمرناهم أو حتى قل رجوناهم ألا يكرروا المصيبة، وهم هاودونا حتى أنجبوا وأنجب أبناؤهم، وعلموهم علمًا خالصًا، ضاربين بكل أقوالنا عرض الحائط، ليعيدوا الكرّة من جديد، بنوا الحواجز لما مات بعضنا، قالوا مجرد فواصل بسيطة لنفرق الطرق والأسماء، قال الباقي منا لا نريد فرقة! لم يستمع أحد.

حجزنا أنفسنا ببيتنا لعلهم ينوون تغيرًا، لكن أحدًا لم يلحظ، وعلى هذا.. رأينا شرارة الحريق الذي أنقذنا الله منه تُصدر ذات الدخان البغيض.. من جديد.

• • •

الجريمة ستعيد نفسها عندما لا تجد من يسحق ثراها

*** ما بعد الحرب والبناء، وقبل الهدم الجديد .**

تعرف الآن عن شيء في الغابرين كان اسمه "حرب أهلية" أي أن أهل البلد ذاتها قاتلوا بعضهم البعض، والأمر لا يقتصر على بضع قصص وبضعة حروب لبضع مدن حرّقت وعواصم نهبت، الأمر كان أعظم وأبشع، لكن دعنا نقول أننا لا نريد أن نتمادى في الوصف، ربما لأننا لا نريد تذكر فاجعتنا في أهالينا وأطفالنا وأزواجنا من جديد، وربما لأننا لا نريد أن نسهب لك في الحديث عن مأساتنا، ربما لأنك ولدنا؟ ولأننا نخاف عليك أن تنكسر وتتأذى كما حدث لنا .

لك فقط أن تعرف أن بلادك الاثنين والعشرين بشتى أرجائها "قديمًا" لم يخلُ منها شيء يدعى الحرب الأهلية، طوال الوقت متربصين يتحرقون شوقا لموضوع ما، يفكرون في الخلاف لمجرد رغبتهم فيه، الدين، الأصول، العرقية، الأنساب، الغنى والفقر، حتى كرة القدم! كلها كانت أشياء تفرقهم أولًا في بلادهم، ثم يتطور الأمر لتفرقهم الأوطان والشعوب عامة خارجيًا وداخليًا .

تطور الأمر، من استنكار، لسخرية، ثم بغضاء مكبوتة، بغضاء مصرحة، عداوة مكبوتة، وعداوة مصرحة، ثم حرب، ثم البقية حسبما تعرف .

واليوم. . وبعد المدة التي تقرأ فيها ما تقرأ، وبعد كل شيء، وبعد كل تحذيراتنا حول الأمر نفسه، ما زلت تراهم يتقولون، يتفاخرون بأنهم يرجعون بنسبٍ لاثنين وعشرين رجلًا عمروا أرضًا بكرية، لم تكن بكرية، لقد كانت خربة!

ولم يكن أنساب الاثنين والعشرين رجلًا تعود لرجل عجوز هو أبيهم جميعًا كما سمعت من قبل، بل كانت تعود لاثنين وعشرين بلدًا تنازعت بلا نزاعٍ وبلا فائدة فقضي الأمر بالقضاء عليهم، جميعًا، إلا من اثنين وعشرين جنديًا منهكًا على رأس بضعة رجال ونساء لم يكن لهم مأوى ولا ملاذ غير تلك الأرض التي تقف عليها الآن.

ولم يكن الرجال خالدين كما يبلبل أهل منطقتك، ولم يكن أي شيء مما علموك صحيحًا، لم يكن أي شيء!

حتى وجودك هنا.. في بيت القصيد لم يكن صحيحًا، بل هو خطيئة، حسبما علموك أيضًا.

والآن بعدما علمت كل شيء، فمن حقك كأبيك وأمك أن تصم أذنيك وتدعي أنك لم تأتِ يومًا بقدميك حتى بيت القصيد فلم ترَ فيه رجلًا واحدًا، بل رأيت كتابًا بحجم رجل، قرأت فيه أن كل ما يعيشه قومك ما هو إلا قصة هزلية حمقاء وأن كل ما سمعته طوال حياتك لم يكن إلا سخافة كبيرة، ولكن أيضًا أنت بإمكانك أن تصدق.. كل شيء بين يديك.. كل شيء.

• • •

رماد

(أفيقوا قبل أن تستحيل بلادكم إلى كومة رماد)

نظرت حولي. أقسم أن أعينهم الآن تتربص بي، إنهم يرونني! يعلمون أنني هنا، وأنني لا أفهم شيئًا، يعرفون عن حكايات أمي! الصفحات بعد ذلك كانت خالية، عتيقة وخشنة وواهنة بذات الوقت، كأنها حقًا تستعد لتتشرب بقع دم كما تنبأوا! هناك شيء خاطئ بالأمر. آخر الكلمات كانت لها رائحة حبر قوية، إنهم قريبون!

لم يتركوا المكان منذ أمد بعيد، هل كتبوا هذا الشيء ليخبروني بكل هذه الأشياء ثم يرحلوا!

هل تلك هي أصالتهم، يعرفون كل ما يعرفون ويتركونني وحدي!

إذًا كل هذا كان كذبة، حكايات أمي شُمَيّسة وثرثرة رافدة العجوز، كله كان مزحة سخيفة كما يقولون!

حسنًا.. ونسبي وأصولي الذين لا ينفكون يتحدثون عنها يعايرونني بها، وأي شيء آخر عشت فيه لسبعة عشر عامًا، كله كان كذبًا!

أدرت الكتاب بصعوبة، كان هناك شيء ما مكتوب بآخر صفحاته، عندما شرعت أبدأ بقراءته كان القنديل قد نفد نفطه وكل شيء أصبح دامسًا، تمعنت بقلبي ويدي تتوغل في الأوراق، فقرأت الحديث مغمض العينين، بعقلي فقط، ربما لأنني سأفهمه هكذا أكثر، وربما لأن عيني كانت منشغلة تذرف الملح السائل في هدوء، بلا رغبة في فعل أي شيء آخر.

• • •

–وحينما تقرعين بابي يا زهرة القرنفل، سوف أتأملكِ طويلًا، ماذا سيحدث لو كنت مثلك، زهرة! أتزوج من بذرة وأنجب الرحيق، وتدهسني دبابات الحرب. أتألم حينًا، وأنزف الرحيق فوق الرمال والتراب، لكنني سريعًا ما سأنتهي، أوراقي الممزقة ستكون رمز الوحشية، سأدعى بما بعد الخراب، لكنني لن أعاين الخراب، لن أشاهد الجرح في ساقي وساعدي يهدر دمًا بضعة عقود، لن أولول على حالي كل لحظة، ماذا لو كنت أنتِ؟ ماذا

لو كان كلٍ ما يربطني بتلك الأرض جذع بسيط؟ ينتهي كل شيء لأن صغيرًا أعجبه لوني أو عاشقًا فقيرًا يميل فوقي فيقتص روحي كرمز للمودة؟ ماذا سيحدث لو كنت مثلك! تعرفين؟ لم يكن ليحدث شيء . . كما جرت العادة.

قبل أن يبزغ فجر اليوم الثاني علي ببيت القصيد، خرجت، بقنديل عاجز وقلب أجوف، بيدٍ منهكة وروحٍ هناك من عبث بها. شابًا أسمر فارع الطول خالية هي عيناه من الشعور، فارغًا، لم يعد يلوي على شيء، كل خططه المطولة لم يعد لها أهمية، وصراعات سبعة عشر عامًا طارت في الهواء، ولد زنا! الأمر لم يعد له أهمية، قدسية شُمّيسة؟ يبدو أنها أصبحت كذلك، للأسف.

فتحت باب القبو مع قنديلي، تأملت العهد مرة أخرى، وكل شيء يحتشد مرة واحدة في مخيلتي، لم أطل في تأمله، أغلقت الباب، وخرجت.

كل شيء كان ساكنًا، مقهى العم ياسين مغلق، المنازل والشرفات، ارتقيت إلى المنزل، كان كل شيء كما تركته، أم ماجد فقط لم تعد موجودة، وضعت القنديل مكانه، رأيت الفراش من بعيد كمن يحملق إلى نقطة وصول، بعد سبعة عشر عامًا من السباق، ارتميت حرفيًا فوقه، ولم أشعر بي إلا كتلة من العظام النافرة يكسوها جلد وأوجاع، لمحت كل ما بالغرفة لبضع ثوانٍ، كل شيء رتيب مثلي، السقف مشقق والعتمة تعطيه ملامح كما القبر، قلت سأتأمله قليلًا، لكنني لم أفعل، وحيث أخذني المرسال، ذهبت.

• • •

صحوت على يدٍ ناعمة تهزني بقوة:

-أتيت!

همست أم ماجد، أو هكذا تبينت.

-ماذا تريدين؟!

-ما بك يا ولدي؟! أنا فقط مشغولة عليك.

-لا أريدك، ولا أريد أحدًا، فقط اتركيني وشأني.

تراجعت قليلاً مذعورة، قلت ربما هابتني، لكنها سريعًا ما اقتربت وتحسست أسفل عيني وهي تثنيه بين أصبعيها، أزحت يدها بعجرفة لعلها تكف، قالت:

-عيناك مجهدتان، لعلك لم تنم فترة طويلة، أين كنت؟

هدرت:

-قلت لا شأن لكِ في هذا، أريد فقط أن تبتعدي.

وهدرت هي بصوت أعلى:

-لن أبتعد!

قالتها بعند، ولم أفهمها، قمت إلى جانبها وأشرت لها أن تجلس بجانبي، قلت:

-من أين لكِ بمفتاح منزلي يا "فضية"؟

هزت كتفيها بلا مبالاة وقالت:

-هو معي من البداية!

-كيف؟

-أعطته لي شُميّسة.

أمي! ماذا يحدث الآن؟ كيف تعطي أمي هذه المرأة مفتاح منزلها وهي أعلم من أي شخص وقتها أنها كانت تهم برأسي! حاولت أن تبدو ملامحي طبيعية، وقلت:

-لماذا أعطته لكِ؟

عدلت ساقيها، وشبكت أصابعها، ثم بدأت تروي:

-قبل مدة قصيرة من وفاة شُميّسة أتتني، الحقيقة كنت كارهة لتلك الزيارة، ولدي رغبة حقيقية في خنقها، أعلم أن أغلبكم يظنني انجذبت لكن هذا لم يكن حقيقيًا، فراق ولدي

أجهد عقلي فقط، لكنني كنت واعية لكل شيء، وشُمَيّسة هي أمك، وأنت المتهم بقتل؛ ولذا فزيارتها تعني لي شرًا كبيرًا، لكنها جلست طويلًا تقسم لي أنك لم تفعل، وأن هذا الولد الأسود كان هو الفاعل. وأنا صدقتها، لا أدري لماذا ولكنني فعلت، وقبل أن تخرج سلمت لي مفتاح منزلها، ومالت على أذني وأخبرتني أنك محل ولدي، وأقسمت برأس والدها ألا أناديك إلا بماجد، وأن أسكن معك بذات المنزل بعد أن تموت هي، قلت لها بعد الشر، ليس من أعماق قلبي بالتأكيد ولكنني قلت، والعجيب أنها ماتت بعد هذا بمدة وجيزة، وأنا نفذت وصيتها.

–متى كان هذا بالضبط؟

–قبل أن تصاب شُمَيّسة بالعمى، ببضعة أيام.

علمت أي يوم تقصد، هو ذات اليوم الذي زارني فيه حلم الهرة السوداء. صمتُّ، فقط صمتُّ، سألتها أن تخرج ففعلت، بدلت ملابسي وحملت حقيبة وضعت بها أوراقًا ودوايات حبر وأقلام، ملأت القنديل زيتًا وأخذته هو الآخر، وخرجت لا أستدير لأجل شيء، تخطيت منزلنا ومنزلها، حتى قاربت المقهى، كان هناك هرجًا حوله، نظرت ساخرًا بغير قصد لباب قبو بيت القصيد الذي كسر قفله ولم يشعر أحد!

اقتربت نحوهم، سألت العم ياسين:

–ماذا هناك يا مذياع مدينتنا؟

–بلدة من بلاد الشوام، يقولون أن مشكلة كبيرة حدثت هناك، هناك ما يشبه غارات الحروب، الحي المجاور لنا الذي قسم الضيعة المجاورة وبحيرتها ينوي تقسيم تلك أيضًا، وأهل البلد ينفرون بعيدًا، هناك حدث جلل وآخر ما نعرفه أن الأهالي يموتون وتهدم منازلهم، ومنهم من يتفرقون وينتقلون إلى ضِياع داخل الحي وبعضهم ينفر للخارج، ولم يصلنا حتى الآن أي جديد.

وقفت قليلًا، بين الصدمة وعدم الاتزان قبل أن أتفكر في الطامة الأعظم، إنها بلاد لبيبة! لم

أشعر بنفسي إلا مهرولًا، ليست لُبيّبة أيضًا ! لم أكن أستمع لأي شيء، ولكنني شعرت بأصوات قريبة من المقهى تتهامس قرب أذني، الأول قال:

-الله يعينهم، لكنهم حقًا لا يمتلكون أصلًا، يلجأون لكل بلاد الله إلا نحن، كأننا جربى!

-الحقيقة أنهم يستحقون ما جرى لهم، هم بالأساس قوم سوء وسحر وعهر، ماذا تنتظر أن يجري لهم!

توقفت لبضع ثوان، نظرت مشمئزًا وتفلت على التراب أمام أعينهم. ثم مضيت في طريقي إلى الأمام. . ولم أعقبٍ.

• • •

-منزل جدي طابقان، بعد دخول الضيعة ستمضي ثلاثة شوارع والرابع هو شارعنا، منزلي مميز، لون جدرانه من الخارج كلون الثوب الذي أرتدي، أمامه هناك حديقة صغيرة من زهور النرجس تحوط المنزل من كل سنابكه، ستجده صغيرًا بالنسبة إلى المنازل التي تحوطه، لكن أقسم أنك ستستشعر البسمة على شرفاته، وعبقي يملأه.

هذا منزلك يا لبيبة! جدرانه حمراء داكنة بلون النبيذ، والزهور البنفسجية ها هي تحوطه، عبقك يا لبيبة! إنك ها هنا، تحت القصف، تحت الجدران الحمراء المهدمة، بين الزهور المدفونة في حطام منزل جدك، لكنكِ كذبت يا لبيبة، أين البسمة التي تعلو شرفاته، بل ليس له شرفات من الأساس، أين كل شيء يا لُبيّبة؟ أنت هنا ! أم أنكِ نزحتِ مع من نزحوا، شردتِ يا لُبيّبة؟ قصف بلادكم أخرجكِ من منزلك في جوف المساء ولم يأتي إلى عونكِ أحد، صرختِ يا لُبيّبة فلم أسمعك؟ أين أنت يا لُبيّبة؟ لن تتركيني أنتِ أيضًا يا لبيبة، لُبيّبة. . أرجوكِ يا لبيبة. . .

لكن لُبيّبة لم تكن موجودة لتسمع ما أقول، كانت تنفر مع والديها في مكان ما، يبحثون عن ملجأ من جذوة الحرب المشتعلة، من دخان القشة الذي سينشب من طرف الثوب وحتى رقبته عندما تظل أمُتي كما هي.

• • •

أكملت الطريق، أعاين الخراب الذي قرأته الليلة الماضية، إنه أسرع مما توقعت أن يكون، بقايا النار، البلدة شبة فارغة، حتى المنازل التي لم تهدم بعد مغلقة بالأقفال، كل شيء ساكن ألعن من القبور، كل شيء لا معنى له.

مضيت بفلسطين أو ما بقي منها، ها هي الأروقة التي زعمنا أنها مقدسة، مجرد شوارع وحارات، والمسجد الذي كذبوا قديمًا وقالوا أنه المقدس، وما هو إلا مسجد من مساجد الله، وأما المقدس خطف منا قديمًا لا اليوم، وأما عن الموجود الآن فما هو إلا بيت من بيوت الله زعم أهل البلدة أنه الأقصى، كي لا تؤنبهم ضمائرهم يومًا بعد يوم وهم يتذكرون أن المسجد المقدس سلب منهم بينما هم ما زالوا يتنازعون الأفضلية بينهم، كل شيء بلا طعم وبلا رائحة منذ انفضوا، كل شيء بلا طعم وبلا رائحة منذ وعيت تلك الدنيا.

تجاوزتها نحو الباقي من البحيرة بعد تقسيمها، الضفة الأولى ناحية الحي المجاور أو هكذا نسميه، كانت ثلاثة أضعاف ضفتنا تقريبًا، مجرد بقعة من الماء من أمامها اليابسة، شيء مفجع أن ترى كل شيء على طبيعته، ثم تصدم به بعد أن يتغير.

جلست، بقيت أطل على البحيرة المسيجة طويلًا، أتشبث بها، أتعلق بثراها، ألعن الوقت الذي جئت به إلى الدنيا، ألعن الدنيا المتمثلة في صورة حي، ألعن الحي وأهله، أتذكر رافدة ورحيلًا وأمي وشرقية وبولس ومينا وفضية، أيعقل أنهم كلهم كاذبون! أعمارهم تؤكد أنهم كانوا على تلك البقعة، واعين لتلك الدنيا عندما تركت النار بلادنا رمادًا، يعلمون أنْ لا خالدين، وأنه ليس مجرد حي على أرض خصبة جديدة، بناه رجل له اثنان وعشرون من الولد، يعلمون أن الاثنين والعشرين لم يكونوا مجرد رجال أقوياء صالحين، كانوا جنودًا متفرقين، لم يبقوا بعد أن فنت الجموع العريضة، يعلمون كل شيء، إذاً لا حكاية روتها جدة أمي شُمَيّسة لها، كله كان تأليفًا، أيعقل أن تلك الوجوه البشوشة، صنعت كل هذا العبث؟!

جاءني الصوت من خلفي، كان رقيقًا ينطق باسمي، قالت:

–ماذا تفعل هنا؟

علمت سريعًا من تكون، لم أشأ أن ألتفت، فقط قلت:

-ما الذي جاء بكِ خلفي من هناك حتى هنا؟

-لم أذهب خلفك، كنت هنا من البداية؟

-وتسمح جدتك لكِ بالعبور عبر الأراضي المحرّقة، ألا تخاف عليكِ؟

-هي لا تعلم بوجودي هنا، جئت وحدي.

التفت، كانت كما قبل، بخصلاتها الطويلة وقامتها القصيرة، أشرت لها بالجلوس بجانبي، جلسنا صامتين لدقائق، ثم قلت:

-أهل الشهامة في بلدتك قرروا ألا يتدخلوا في مثل هذه الأمور التي تجري حديثًا من حرق ونهب لما بقي من الأراضي في الحي، طالما أن الأمر ليس من شأنهم ولم يطلهم أذاه، فما رأي جدتك؟

هزت كتفيها لا مبالية وقالت:

-لا أدري، لم أسألها، أنا أحضر إلى هنا خلسة، كما تفعل أنت.

صمتُّ، وأتبعت هي:

-لا تخف، سمعت أن لُبيّبة ووالديها وأختها نزحوا لبلاد ما بعيدة عن طريق البحر، لم يقصف منزلهم فوق رؤوسهم.

-الأمر بالحالتين لن يسعدني، سواء أكانت نزحت أو قصفت، بالحالتين، لقد ضاعت لبيبة.

صمتت هنيهة، ثم قالت:

-أنا لم أعد أفهمك، لا يعجبك شيئًا، تتحدث بغرابة، تصاب بالحمى دائمًا، عينك مغلقة، تخفي كل شيء مع أنها تبدو كالزجاج، لو طرقت فوقها فقط لتهشمت وفاضت منها سيول من دموع.

-لن يفهمني أحد يا رحيل، ولن يبالي بي أحد ولن يصدقني أي أحد ولو قلت كل ما أخفي.

-لكن أنا أبالي بك.

صمتت مرة أخرى وقالت بصوت شديد الثقة:

-أنا أصدقك.

قالتها واثقة تنظر لي بتحدٍ، فصرخت من فوري كأنني تعلمت الحديث اليوم، قلت:

-تصدقين! لو قلت لكِ إن عمرك كله كان كذبة، ستصدقين؟ لو أخبرتك أنك لا تعيشين في مجرد حي كما يتشدقون دائمًا، وأنكِ تسكنين أرضًا كانت بالأصل خربة خرجت من معركة لم يخرج منها فائز، بل لم يخرج منها إلا قلة على رأسهم اثنان وعشرون جنديًا هم أول من ساهم في تعمير تلك الأرض، لو قلت لكِ إنه لا يوجد شيء اسمه والدك ونسبك وعرقك، وإنك مجرد مخلفات حطام الحرب، ستصدقين؟ لو قلت لكِ إن بيت القصيد فارغ ولو قلت إن جدتك كاذبة وأمي مثلها، لو قلت إن ذلك المسجد الموجود في تلك الأرض التي نقف فوقها ليس هو المسجد المقدس، وإن كل مقدساتنا سرقت في غفوتنا، لو أخبرتك أن الدور على بلدتك قادم لا محالة، تصدقين!

ثم قلت؛ متشبثًا بإجابتها:

-تصدقينني يا رحيل؟

وردت بعفوية:

-أصدقك.

-قولي لي سببًا واحدًا يجعلك تفعلين هذا غير أنكِ تريدين إنهاء هذا الحديث بأي رد؟

-يمكنني أن أقول ألف سبب، لكنني سأكتفي بواحد. المرء يفعل كل شيء لأنه يحب، أهل مدينتك لا يفعلون لأن بغضاءهم تمنعهم، أنا لا أعرف ما تعرف بالضبط ومن أين أحضرت حديثك، لكنني واثقة أنك لا تكذب، ربما تربيت على قول أمي أن لنا شرفًا وأبًا يسكن ذلك المنزل العظيم مع واحد وعشرين أخًا له، وأنه يلبي نداءنا له، وأنه ولي من أولياء الله، وأنه عابد تقي، تربيت على أن هذا الرجل ملجئي، وأنني أسكن أرضه، وغربتي عن

أرضه تعد نفيًا وعذابًا، تربيت على خلوده، والدعاء له، أحببته ووثقت فيه، وانتظرته يقود الجيوش لما سرقت تلك الأرض التي نقف فوقها، فلم يأتِ، انتظرته قبل ذلك لما تنازعت ضيعتان في الجانب الجنوبي من الحي وتناحرا، فلم يأتِ ولم يأتِ إخوته، وها أنا أنتظره اليوم لكن دون جدوى، صدقني حتى أنا صرت أشك في وجوده، إنهم في ضيعتنا يزوجوننا مبكرًا ويطلبون أن ننجب أطفالًا كثر، لا يعنيهم العلم بقدر ما تعنيهم المباهاة والمفاخرة على بقية الضِياع بكثير النسل، يفعلون أشياء ويقولون عكسها، تقول أمي أنها لا تحب أن تعامل أي شخص خارج حدود ضيعتنا، لأنها لا تثق في تعاملاتهم، مع أن والدي يعملٍ مع أشخاص من خارج الحي، لا يتحدثون بلغتنا ولا يدينون بديننا وأمي لا تقول شيئًا، بل إنها تمجد تعاملاتهم وأماناتهم.

سافرت مع والدي عن طريق البحر عدة مرات، كنت أتساءل دائمًا لماذا أبدو قديمة وأتية عبر الزمن من ألف عام مضى عندما أقف قرب أحد الأغراب، أقصد ليسوا من حينا، لماذا تبدوا عملاتهم أذكى وأزهى من عملاتنا، بل إن ورقة واحدة تساوي بعض الأحيان مائة ورقة من أوراقنا، كنت أشعر أننا غير هؤلاء الناس، هم يبدون سعداء حقًا، بينما نحن متربصون دائمًا وغاضبون، كل هذا جعلني لا أثق في وجود أبي، وأبي ضيعتي، جعلني أرسمه في عقلي كالأشباح، وجوده، كعدم وجوده.

صمت، فكرت لو أن أصارحها بدخولي بيت القصيد ليلًا ورؤية كل شيء، بل فكرت أن آخذها معي لترى، لكنني تريثت، وقلت:

–تعرفين، حلمت بك قبل عدة أشهر.

بدت مندهشة وسعيدة في آن واحد، قالت:

–أنا!

–نعم.. رأيتك في الحلم تدخلين علي المنزل وبجانبك هرة بجفاء سوداء وبشعة، كانت تهم بي بشر، وكنت أنت لا تنفكين عن ترديد: "يا لقيط".. وأنتِ تبتسمين لي!

تراجعت للوراء وحركت يدها، فأتت نحوها تهرول، قطة، صغيرة، بعين واحدة والأخرى ممسوحة أو مخفوقة، سوداء. . بشعة، قالت:

-تلك هي هرتي، رأيتها أمام باب منزلنا يومًا، كانت لا تزال مولودة، حملتها وأطعمتها، وبقت معي، وذات يومها بينما تلعب، سقطت على فرع شجرة دخل عينها، فحدث ما ترى.

-. . . . . . .

-لكني بالأكيد لم أكد أتلفظ بـ"يا لقيط" لك.

-لقد كانت تهم بي بشر!

في ذات اللحظة، تقدمت نحوي هرتها، تراجعت قليلًا، لكن رحيلًا أشارت لي أن أتوقف لتريني شيئًا، وعندما اقتربت الهرة راحت تمسح في حذائي، انتظرتها أن تغدر لكنها لم تفعل هذا.

-كانت تريد أن تتمسح في حذائي!

-ليس كل ما تراه من جانبك صحيحًا كما تخيلته، لا تكن كأهل بلدتك الذين تبغضهم.

-لم أعد أفهم من المخطئ، لم أعد أثق في شيء، حتى إنني لم أعد أفهم ماذا أريد؟

-تريد أن تكون أنت، تريد أن تخبر العالم بأنك تعرف كل شيء، تعرف كيف تصرخ في وجوههم وتلعن أفعالهم، تريد أن تلعن كل من شكك في أصلك، تريد أن تكون أنت، لا ما يجبرونك أن تكونه، لو صرت كما أجبروك، ستصبح مثلهم، خاويًا، تتنازع على أشياء لا قيمة لها، هم أيضًا كان لديهم ما يقولونه يومًا ما، لكنهم لم يملكوا من الشجاعة قدرًا يمكنهم من أن يقولوا هذا، فانساقوا، وأخرجوا المشاكل والنزاعات من العدم، لكن أنت تمتلك الشجاعة لفعل شيء ما، فلا تتردد لو فعلته، اليوم، قبل أن يلعنك أحفادك لأنك ممن رأوا الوحل، لكنهم لم يزيحوه عن الطريق، بل تخطوه، وتخطوا الموجة.

افعل ما تراه صحيحًا حتى لو خالفت قول أمك وأمي، افعل هذا حقًا.

رحيل قالت ما قالت، وحملت قطتها، ثم ابتسمت، ورحلت في طريق البلدة.

أما أنا.. فأشعلت القنديل، وأخرجت الدوايات والأقلام والأوراق، فكرت في فعل شيء ما، كتبت في أول صفحة:

-اسمي هو..

لم تعجبني البداية، مزقت الورقة وكتبت من جديد:

-من ليلتين ماضيتين دخلت بيت القصيد...

لم تعجبني تلك أيضاً، فأنا لست جيدًا في الحديث للأوراق على كل حال.. لكنني فكرت لو أكتب كل شيء، بأي طريقة كانت.. منذ ولدت حتى الآن، فكرت بأن أترك لمن بعدي كتابًا، حتى يعلم من يأتِ بعدي أنه كان هناك شابًا في تلك المدينة عانى كثيرًا طوال عمره القصير، بحثًا عن مغزى من كل ما حوله، مع أنه كان يسكن قريبًا من بيت القصيد، لكن حتى بيت القصيد عند أمة العرب، يصبح فارغًا، ولا معنى بداخله. كتبت:

كانون، مساءً..

زقاق مهجور كان.. مثله كمثل أغلب الأزقة القابعة بالجهة الغربية من الحي، كانت ليله باردة بالتأكيد، وصوت صرير البرد يلفح جدران المنازل المغلقة، ويلفحني، كان صوتي الباكي يئن بحرقة خافتة كأنه لشبح مسجون، ذلك المشهد كان قبل سبعة عشر عامًا، يوم كان لا شيء يومها يختلف عن اليوم، وفي أحد الأزقة التي يمتلئ بها الحي، وجدتني شُميّسة. الطبيبة العجوز التي لم تلدني...

قررت أن أكمل على هذا النحو، سأحكي كل شيء، منذ وجدتني شُميّسة إلى تلك اللحظة، سأفعل هذا.

• • •

عندما تركتني رحيل كان وقت العصر، قضيت من العصر وحتى شروق اليوم الذي يليه أكتب، لا أفعل شيئًا سوى الكتابة، عندما حل الليل أضأت القنديل ثم عدت أكتب، كتبت عن رفيق ولبيبة، وأمي، حكيت عن ثرثرة رافدة وأحاديث شرقية، تكلمت عن تقلبي بين حال وآخر، عن أم ماجد وقصة ولدها مع درويش وأخته، حكيت عن قصص الحرب التي قرأتها في بيت القصيد، وحكاية بولس وقصته مع أمي، تكلمت عن حبي للجميع، وكرهي لهم بين ليلة وضحاها، حينما أدركت تمام الإدراك أن أهل مدينتي يمتلكون وجهًا لكل شيء، حتى أمي.. صرت لا أعرف شعوري نحوها وهي التي بين يدي خالقها الآن، أسامحها؟ كيف أفعل، وهي التي خلقت لي هذا الوهم من البداية، هي من علمني عن بيت القصيد وقدسيته، كانت ابنة الأربعة عشر عامًا يوم فنى كل شيء هنا قبل ثلاثة وستين عامًا، كانت تعلم بأن هؤلاء الجنود ليس أيٌ منهم أباها، تراها خافت أن تقول لي؟ تراها كمن غيرها ترفض الاعتراف بأن رعونة أبيها وأجدادها وبلدها هي ما أطاح بكل شيء، فانجرفت مع من انجرفوا وعلمتني ما تعلمته!

تكلمت عن رحيل وأمها، عن كل شيء قرأته وشاهدته في بيت القصيد، تكلمت عن الحمى التي أمسكت بالبلاد وبي، عن الرماد الذي ينتظرنا لنكونه، عن كوننا أمة ضائعة، عن كوننا أغبياء، هدمنا كل مجد وحضارة بكل بساطة، والآن بعدما خرج منا من يبني شيئًا يريدون هدمه من جديد، حكيت ولن أصمت، وقلت كل شيء، قلت عن كل ما علمت..

علمت أخيرًا أن الأسماء مهما استعظمت أو استصغرت ستظل تشير إلى معنى واحد.

ضيعة.. بلدة.. دولة، كلها تشير إلى الوطن الذي لم نقدره وأهدرناه، علمت أن أمتي تعشق مضيعة الوقت، يستنزفون الوقت في خلق الأكاذيب بدلًا من مواجهة الحقيقة، علمت أننا العرب نرى الهوّة بأعيننا، نتأكد من مدى عمقها، ونعرف أن من سيسقط سينتهي لا محالة، لكننا نكمل السير، وحينما يسقطون يقسمون بالله أنهم لم يكونوا على علم، علمت أن الله لم يخلقنا فرقًا، وإنما نحن من قررنا أن نكون، علمت أن أمي كذبت، وشرقية كذبت، ورافدة ورحيل، وأن بولس ومينا الراهبين لم يخبراني يومًا الحق، وعلمت تمام العلم أنني لو كنت واجهت أيًا منهم لكان لامني أنا على كل شيء، أدركت أخيرًا معنى الكلمة التي قالها لي الفتى الشامي في يومي الدراسي الأول، قال: "قريبًا ستفهم". وحقًا.. لقد فهمت.

علمت أن شُميّسة كانت ترابًا ككل البشر، وأن اللقيط لم يكن أنا، بل اللقيط هو من كذب، من خان ومن غدر، اللقيط هو كل من آمن بقوانين الحي المقصي.

تأكدت رغم تكذيبي لنفسي أن أمي كذبت، فلم تكن لها جدة تخبرها بحكاية الاثنين والعشرين أخًا، أولياء بيت القصيد ورعايا الحي وأهله.

علمت أن أهل بلادي يملكون أعظم روح إيمانية تجاه الله وأنبيائه، والأولياء ولو كانوا من زعمهم، لكنهم يلحدون ببعضهم البعض.

علمت أن "حينا المقصي" اسم من أطلقه لم يكن يقصد أن هؤلاء القوم عزلوا أنفسهم عن العالم لأنهم يكتفون ببعضهم البعض، بل قصد أننا نفينا أنفسنا في غياهب الجهل والضبابية، قصد أننا نقصي أنفسنا عن بعضنا البعض، بداخل أرض مقصية عن العالم متخلفة عنه مليارات السنين. علمت كل شيء أهلك عقلي وأطلق الشيب فيّ قبل أوانه، علمت كل شيء، لكن الشيء الذي عجزت وعجز أصحاب بيت القصيد عنه...

هو إيجاد سبب واحد لكل ما فعل ويفعل وسيفعل.. أهالي الحي المقصي.

علمت أن الحديث لم يعد مُجديًا، وخصيصًا عندما يكون المستمع عربيًا، فما علمته مؤخرًا أننا العرب لا نمتلك إلا ألسنة، لا نستخدم حاسة السمع إلا للتركيز على ما يقع فيه الآخرون من هفوات، الآخرون منا؛ فالعرب لا يستطيعون التأسد إلا على العرب... والعرب نوق مسيرة... على غير العرب.

وأنا لست ناقة... ولا أرغب أن أكون أسدًا مثلهم.. سأكون أنا، لأرضيني، لا لأرضي أهالي وسكان الحي المقصي.

• • •

الآن أنتهي.

أغلق الكتاب مع حلول الصباح. جمع كل شيء، وخرج، في طريقه التقى بعصا سميكة، التقطها وأكمل، الكلمات تتردد في أذنه.. الصمت الذي كسر، والشوق.. والشوك، والمناجاة بالسحر.. أغنيته الأثيرة تمر معه بكل ما تهدم.. طريق العودة كان وعرًا أكثر من الذهاب؛ لأنه يعلم أن العودة قد تكلفه ألا يذهب مجددًا.

وصل حتى المقهى، وجد رفيقًا يجلس على كرسي ويحملق في الفراغ، ترك الحقيبة والقنديل على الطاولة وأحكم القبض على العصا، قال:

-تفكر في لُبّيبة؟

-ومن غيرها؟

صمتا طويلًا حتى قال:

-رفيق، هل تعتقد أننا وصلنا إلى نهاية العالم؟

نظر مفكرًا، وقال بعد فترة:

-لا أعتقد؛ فالمرء منا في كل أزمة يبادره شعور بالنهاية، مثلًا من عانوا من الحروب العالمية، ألا تعتقد أنهم لم يظنوا يومها أنهم في نهاية العالم؟

-بالتأكيد.

-لكنها لم تكن النهاية، والدليل، ها أنا وها أنت، وها هو كل شيء حولنا، لم تكن نهاية العالم كما توقعوا.

-ولكنها ستكون النهاية حقًا إن لم نتوقع نحن.

قال ما قاله، وحمل عصاه، تقدم ببطء وعصاه تقلب الرمال على الطريق، سمع الأصوات تستنكر الصوت، ثم يعلو إنكارهم كلما اقترب، نظر للقفل مغتاظًا من بعيد، لباب بيت القصيد العظيم، وكلما اقترب ازداد الغيظ في عينيه، والبطش. بدا أن رفيقًا يعلم ما يجول بعقل صديقه، ناداه فلم يستجب، علت أصوات الناس يستنكرون ماذا سيفعل هذا الفتى بعصاه عند بيت القصيد، لكنه باغتهم جميعًا، ورفع عصاه، زاد الصراخ، تهافت السباب من كل حدب تزامنًا مع صوت القفل المكسور الذي دوى، الكل شاخص النظر وكأن سربًا من صقور حل فوق رؤوسهم، الكل متجهم، لم يتكلم سواه، عندما صرخ بكل جسده:

-أفيقوا أيها المخبولون، هذا البيت فارغ كعقولكم، أفيقوا قبل أن يجرفكم السيل وتبيتوا بلا أرض كما فعل أهلوكم، أفيقوا يا كذبة، يا منافقي أنفسكم، أفيقوا قبل أن تستحيل بلادكم بطغيانكم إلى رماد.

وقف.. عصاه بين يديه وقفل بيت القصيد مكسورًا تحت قدميه، ورآهم جميعًا من أعلى لأسفل، كانوا متجهمين تكاد عيونهم تقفز من وجوههم. بقى السكون سائدًا للحظات قبل أن يسمع الأصوات تبدأ، قال صوت قصد صاحبه أن يكون عاليًا ليسمعه السُبة:

-إنه ابن شُميّسة ولد الحرام.

وهتف آخر مندهشًا:

-شُميّسة أحضرته من حرام!

-بل شمسية وجدته على قارعة الطريق، أحضرته من زقاق.

-أو ربما ابنها هي من حرام.

-ابنها من الراهب!

وهتف رفيق متأزمًا:

-"ثائر"، ماذا تفعل؟!

وصاح أحدهم يهم به:

-اقتلوا هذا الصفيق ولد الحرام، من يتعدى على أولياء الله حراس البيت والحي لا سبيل لعقابه إلا سفك دمه.

وصرخ من جديد:

-اقتلوا ولد الساحرة، ولد شُميّسة الساحرة!

-شُميّسة أإذاً هي أمه الحقيقية.

وصاح من الخلف صوت:

-شُميّسة أمه الساحرة ليست من ضيعتنا، إنها من ضيعة فقيرة مجاورة لنا جاءت تحمله في مخاضها لتلده في إحدى الأزقة بجينا، لا نعلم له أبًا ولا لها زوجًا، شُميّسة العاهرة لا تنتمي لنا، وولدها المعاق لا أصول له في ضيعتنا، الآن بعد كل هذا الزمن الذي آويناهم فيه، يأتي ولدها ويسبنا ويستنزل علينا لعنات أهل البيت المبارك!

ثم صلب قامته ورفع يديه نحو بيت القصيد وقال راجيًا:

-لا تؤذونا بلعنتهم، عاقبوهم... لا تلعنني يا أبي، لطالما خدمتكم بلدتنا، ولطالما آذتكم وتحدثت في سيرتكم بقية القرى، لا تلعنني يا أبي، لا تفعل.

وثائر ما زال واقفاً، والنظرة المشمئزة كانت أسمى تعابيره، ولم يفسر وجهه شيئًا آخر.

تمت (أو لم تتم بعد)

٢٢- ٩-٢٠١٦ م

مريم منصور

شكرًا

-إلى أمي. . إلى من علمتني كيف يكون البذخ في البذل دون مقابل. وكيف يمكن أن أستغني عن أمة البشر في سبيل واحدة منهم، وكيف يصبح النور مجرد ثرى ينثره حذاؤها عندما تخطو.

إلى أمي. . إلهامي وملهمتي وهامتي المرفوعة. إلى أمي. . . التي ترسل العرفان والحب للعالم ولا تنتظر منه شيئًا .

إلى أمي. . . المرأة الوحيدة التي تستطيع إرغامي على إكمال كل ما تحتمله الحياة من سخافة لأجل نظرة واحدة من نظراتها الراضية.

إلى أمي. . وكفى.

- إلى أبي. . أول نقّادي، صديقي ومؤنس وحدتي. وإلى أخي"عمر" . . توأمي الذي جاء بعدي بثلاث أعوام، شكرًا لأنكم كنتم وما زلتم معي دائمًا .

- إلى "آية غانم". حتى تلك اللحظة التي أكتب فيها لكِ تلك الكلمات أنا لم أقابلك أبدًا . ولكنني استشعرت بكِ في أغلب وقتي. . كنت حاضرة بكلماتك. تواسيني وتسعدين قلبي وترغميني على الإيمان بما أفعل.

شكرًا لكِ على كلٍ شيء؛ فبوجودك حلت أمور جيدة كثيرًا وانزاحت أمور لم يكن التخلص منها سهلًا لولاكِ أنتِ.

شكرًا لكِ.

- إلى العزيزة على قلبي (هاجر سعيد) أدعو لكِ دائمًا بالخير، لأنك دومًا تستحقينه. شكرًا على نقائك الذي أتمنى ألا يبارحك أبدًا.. لأنكِ دائمًا تستحقين أفضل. وإلى (ماجدولين الشامي) التي عرفتها بعدما وضعت نهاية قصتي، لكنني لا أنسى يومًا أنني سألتها الدعاء لي ففعلت أمامي ليأتيني خبر الموافقة على نشر كتابي في ذات اليوم.. شكرًا لأنكِ ستجعليننى أسافر من بلدكِ وأنا أحمل ذكراكِ المشاغبة. شكرًا جزيلاً إلى كل صديقاتي اللاتي لن أستطيع تعدادهن جميعًا خشية أن أنسى إحداهن.. ولكن.. أنه شكرًا لكل من أخبرتني منهن ذات يوم أنني أجيد يومًا شيئًا أو انني استهلت حديثي معها دون الشعور بالأزمة، شكرًا للتي تدعو لي سرًا من بينهن والتي تسعى مثلي لتحقيق حلماً ما.

- إلى كل من ساهم وساعد حتى تنبثق تلك الرواية من عتمتها، وتخرج من شرنقة الأزمة لطور التكون. شكرًا لكل من آمن بي.. وشكرًا جزيلا لكل من أضاع وقته يومًا ليطالع ما أقول، شكرًا لكل من رسم بسمتي يومًا ما، ولكل من أفادني بتشجيعه أو بنقده، شكرًا لـ"الجوهرة البرقي".. معلمتي التي أكن لها أجل تقدير واحترام. وإلى معلمتي (هناء سليمان) التي تشعرني دائمًا ببسمتها الجميلة وحديثها الهادئ الوقور بأنني ربما أفعل شيئًا صحيحًا. شكرًا لكم.. على كل شيء.

- شكرًا إلى وطني العربي.. الذي نجح في إبقائي ثلاث سنوات كاملات أنزف بالقلم وأنا أتحدث عن شيء بغيض يدعى "الرماد".

التعريف بالكاتب...

مريم محمد محمود منصور

ولدت عام ٢٠٠٠م

طالبة مصرية مغتربة تدرس بالمملكة العربية السعودية

لها عدة أعمال روائية

ولكن تعد رواية (رماد) أول عمل روائي مطبوع لها .